الرحالة «كاف»

عبد الرحمن الكواكبي

بقلم
عباس محمود العقاد

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية



السيد عبد الرحمن الكواكبي



سيرة ممهدة

بدأت بحثى فى سيرة الكواكبى فرأيت أن أعود إلى تاريخ «حلب» لأعرف الكواكبى من المدينة التى نمته وأنشأته ، وأعرف من تواريخها وأحوالها أين تقع المزية التى كان لها الفضل فى نشأته وتفكيره والاتجاه به إلى وجهة حياته .

ويعلم قراء العربيـة أن مدينة حلب إحدى المدن «المخدومة» من الناحيـة التاريخية بين مدن الشرق العربى القريب ، ونعنى «بالمخدومة» معناها فى اصطلاح العرف الحديث ؛ ومعناها فى هذا الاصطلاح أنها مدينة لقيت من يخدمون تاريخها من أبنائها والنازلين بها من العرب وغير العرب ، فكتبوا عن حوادثها وعهودها ومعالمها وأعلامها وطبيعة إقليمهـا وخيرات أرضها ما لم يتفق نظيره لغير القليل من مدن العالم القديم . فلم يفتهم من تسجيلاتهـا شىء توافر لمدينة غيرها ، وما فاتها فى هذا الباب فهو الذى فات المؤرخين الأقدمين أن ينظروا إليه على عادتهم فى تسجيلاتهم ومحفوظاتهم عن كل مدينة وكل زمن ، لا حيلة فيه للمؤرخ الحديث غير إتمام الرواية والخبر بالتفسير والتقدير .

إلا أننى رجعت إلى تاريخها فى هذه المرة لأعرف «الكواكبى» غاية المعرفة التى تستطاع من العلم بموطنه وماضيه . فلم أفرغ من مرجع واحد حتى تمثلت لى المزية التى بحثت عنها وبدالى أنها كافية وحدها ولو لم تشفعها مزية أخرى :

حلب مدينة حل وترحال غير منقطعة عن العالم ، ولم تنفصل قط عن حوادثه وأطواره ، كأنها المرقب الذى تنعكس فيه الأرصاد فلا تخفى عليه خافيـة ، ولا ينعزل بينها عن دانية ولا نائية .

ولم أرنى أخوض بعيداً من الضفة فى هذا البحر الزاخر بالأخبار والأنساب لأعلم من أمر أسرتى وبلدتى أن أسوان لم تنفصل فى عصر الكواكبى خاصة عن حلب ، على مابين البلدتين من بعد المسافة بحساب الفراسخ والأميال .

إن أجدادى — لوالدتى — سلالة كردية تفرعت أصولها زمناً بين ديار بكر وأورفة ومرعش ، ورأيت آخر من لقيته منهم يلبس العمامة الخضراء كما يلبس الطربوش العثمانى والقلنسوة الكردية . ولم يزل بيت أخوالى فى البلدة يعرف ببيت الشريف ويسجل فى مكاتب البرق بهذا العنوان .

وكنت أسأل كبراء السن منهم مازحاً : من أين لكم هذا الشرف وأنتم سلالة أكراد ؟ فكانوا يذكرون لى قصة طويلة عن اتصالهم بالمصاهرة بمن جاورهم من آل البيت فى مدن الإيالة ، ويذكرون جيداً كل صلة لهذه المدن بعواصم الإيالات مع ارتباك العلاقة يومئذ بين الديار الكردية وعواصم الإيالات العثمانية ، تارة إلى حلب وتارة إلى العراق .

وأقرأ فى الكتب الأوربية على الخصوص أحاديث شتى عن «الرءوس الخضر» فى حلب أولئك الذين يلبسون العمامة الخضراء ممن ينتسبون إلى آل البيت من جانب الآباء أو جانب الأمهات ، ومن هؤلاء أكراد أمهاتهم عربيات .

وتنتسب إلى هذه الطائفة من لابسى العمامة الخضراء أسرة أسوانية أخرى مضى على وفود كبيرها من موطنه أكثر من مائة سنة وأذكره فى أخريات أيامه بعمامته الخضراء وموكبه من أتباع الطرق الصوفية التى تتشعب فروعها فى البلاد العربية والتركية ، وهو مع اشتغاله بالتصوف تاجر ناجح ورأس أسرة ناجحة ينتمى إليها اليوم الطبيب والمحامى والموظف والتاجر ومالك العقار .

وقد وفد العسكريون والمدنيون من أصحاب هذه العمائم إلى الصعيد بعد ثورات دامية فى ولاية حلب على ولاتهم الترك الذين أجلاهم جيش إبراهيم باشا عن الولاية بعد قليل ، فلما أعيدت هذه الولاية إلى الدولة التركية تعذر مقامهم فيها فعادوا مع الجيوش المصرية وأقام بعضهم فى الصعيد وبعضهم فى السودان .

ولعل « عبد الرحمن الكواكبي » الذى ولد بعد هذه الحوادث بسنوات قلائل كان يتحدث فى صباه بحديث واحد عن نقابة الأشراف التى ادعاها غير أهلها فى القسطنطينية ، وعن حكام الترك الذين انتزعوا مناصب أبناء الوطن فى الديار الكردية ؛ وهو الحديث الذى ردده هؤلاء المهاجرون الحريصون على شارتهم وشارة أهليهم فى بلادهم ، وظلوا يرددونه على وتيرته حتى سمعناه منهم مرات !

ولو أن إنسانا يختار لنفسه رسالته ومولده لما اختار عبد الرحمن مولداً أصلح للرسالة التى نهض بها من مدينة حلب : مدينة تتصل بالحوادث وتتصل الحوادث بها ، هذا الاتصال .

* * *

إننى علمت من تجربتى فى قراءة التراجم وكتابتها أن النوابغ من أصحاب الرسالات فئتان :

فئة تظهر فى أوانها لأن أسباب نجاحها تمهدت وتم لها النجاح قبل فوات ذلك الأوان .

وفئة أخرى تظهر لأن الحاجة إليها قد بلغت غايتها ، وهى التى تظهر لتحقق تلك الحاجة التى تبحث عن صاحبها ، وله منها معين يذلل صعابها ويهدى إلى طريقها .

والكواكبي نموذج عزيز المثال لأولئك النوابغ أصحاب الرسالات الذين اتفقت لهم أسباب زمانهم ومكانهم وأسباب نشأتهم ودعوتهم ، تكاد سيرته أن تغرى بالكتابة فيها لأنها « تطبيق » محكم لتراجم هذه الفئة من نوابغ الدعاة .

تهيأت له البيئة وتهيأ له الزمن ، وتهيأت له الرسالة ، فلا حاجة بكاتب السيرة إلى غير الإشارة القريبة والدلالة العابرة ، وهناك فانظر . . . هاهو ذا صاحب الدعوة قائماً حيث ترى من حيث نظرت إليه .

ولو لم تكن للسيرة من موجباتها غير هذا الإغراء لكان ذلك حسبها من وجوب عند كاتبها وقارئها ، ولكنها سيرة يوجبها الفن للفن ويوجبها التاريخ للتاريخ ويوجبها علينا أنها حق لصاحبها وقدوة صالحة لمن يقتدى به فى دعوته الباقية . . .

وإن لها لبقية متجددة بين أبناء اللسان العربى فى كل جيل .

عباس محمود العقاد

الكِتابُ الأوّل

مدينة

(١) مدينة عربية عريقة :

ولد عبد الرحمن الكواكبي ونشأ فى مدينة عربية عريقة ، هى حلب الشهباء .

وقد عرفت المدينة باسمها هذا — مع بعض التصحيف — منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، فورد اسمها فى أخبار رمسيس الأكبر ، وورد بين أخبار حورابى فى القرن السابع عشر قبل الميلاد ، وورد فى أخبار شلمنصر (٨٥٨ ـ ٨٢٤) . . . وورد خلال هذه القرون فى كثير من الحفريات والآثار التى تتصل بتواريخ الحيثيين والعمالقة من الشمال إلى الجنوب .

ولا يعرف على التحقيق مبدأ بنائها وإطلاق هذا الاسم عليها ، ولكنها — كيفما كانت التورايخ المروية — أقدم ولا شك من كل عهد وردت أخباره فى تلك الروايات ، لأن قيام مدينة فى موقعها ضرورة أحق بالتصديق من أسانيد المؤرخين وأساطير الرواة . لأنها فى مكان توافر فيه كل شرط من شروط المدينة العامرة من خصب التربة وسعة المكان واتصال الطريق بين مواقع العمران وقوافل التجارة ومسالك الفاتحين أو معاقل المتحصنين المدافعين . ولا غنى عن مدينة فى مكانها للانتفاع بموارد الزرع والبيع والشراء ، وتنظيم الإدارة الحكومية فى جوارها ، وتبادل المعاملات فيما حولها ، وتأمين المواصلات بينها على تعدد الحكومات أو وحدتها .

فالمدينة التى ينبغى أن تقوم فى هذا المكان حقيقة تاريخية غنية عن سجلات التاريخ . وقد يخطىء بعض المؤرخين فى بيان السنة أو الفترة التى بنيت فيها ، لأنه يخلط بين بنائها الأخير بالنسبة إليه وبنائها الأول قبل ذلك بقرون ، إذ كانت

موقعاً معرضاً فيما مضى للزلازل معرضا للغارات والمنازعات ، يبنى ويهدم آونة بعد أخرى ولـكنه يسرع إلى العمار ولا يطول عليه الإهمال . وقد فطن بعض المؤرخين إلى ذلك فيما نقله ابن شداد حيث يقول : « ... وهذا يدل على أن سلوقوس بنى حلب مرة ثانية وكانت خربت بعد بناء بلوكرش ، فجدد بناءها سلوقوس . فان بين المدتين ما يزيد على ألف ومائتى سنة »(١)

ومما يدعو إلى اللبس فى تصحيح أقوال المؤرخين عنها أنها سميت بأسماء أخرى أو ذكرت باسم « قنسرين » على سبيل التغليب والمجاورة للتعميم بدل التخصيص . ومن أسمائها عند اليونان إسم « برية » الذى أطلقوه عليها كعادتهم فى إطلاق أسماء بلادهم على المدن التى يدخلونها .

ولكن اسم « حلب » أقدم من هذه الأسماء جميعاً وأقرب إلى طبيعة المكان وإلى اللون الذى سميت من أجله بـ « الشهباء » وهو لون أرضهـا ولون الحوار الذى تطلى به مبانيها .

قال ياقوت الحموى فى معجم البلدان :

« حلب مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء صحيحة الأديم والماء، وهى قصبة جند قنسرين فى أيامنا هذه . والحلب فى اللغة ؛ مصدر قولك : حلبت أحلب حلبا . . . . . قال الزجاجى : سميت حلب لأن إبراهيم عليه السلام كان يحلب فيها غنمه فى الجمعات ويتصدق به . فيقول الفقراء : حلب حلب ، فسمى به » .

قال ياقوت : « وهذا فيه نظر ؛ لأن إبراهيم عليه السلام وأهل الشام فى أيامه لم يكونوا عرباً ، إنما العربية فى ولد ابنه إسماعيل عليه السلام وقحطان . على أن لإبراهيم فى قلعة حلب مقامين يزاران إلى الآن . فان كان لهذه اللفظة أصل فى العبرانية أو السريانية لجاز ذلك . لأن كثيراً من كلامهم يشبه كلام العرب لا يفارقه إلا بعجمة يسيرة كقولهم : (كهنم) فى جهنم . . . »

---

(١) الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب .

إلى أن قال : « وذكر آخرون فى سبب عمارة حلب أن العماليق لما استولوا على البلاد الشامية وتقاسموها بينهم استوطن ملوكهم مدينة عمان ومدينة أريحا الفور ودعاهم الناس الجبارين ، وكانت قنسرين مدينة عامرة ولم يكن يومئذ اسمها قنسرين وإنما كان اسمها صوباً ... » .

وقد أصاب ياقوت فى ملاحظته الأولى ؛ فان لغة إبراهيم عليه السلام لم تكن عربية ، ولم تكن العربية كما تكلمها أهلها بعد ذلك معروفة فى عصره ، ولكنه أصاب كذلك فى ملاحظته الثانية إذ خطر له التشابه بين ألفاظ اللغات واللهجات التى شاع استعمالها فى بطحاء حلب قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون . فان الآرامية ــ عربية ذلك العصر ــ قريبة بجميع لهجاتها إلى العربية الحديثة ، وتفيد كلمة « حلبا » فيها معنى البياض ، ومنه لون اللبن الحليب ، بل يرجح الكثيرون أن اسم « صوبا » الذى ذكر ياقوت أنه كان يطلق على قنسرين إنما يعنى « الصهبة » التى تقرب من الشهبة فى لفظها ومعناها ، وكانت حلب توصف بالشهباء وتشتهر بالصفة أحياناً فيكتفى بها من يذكرونها دون تسميتها . وورد اسم مدينة صوبا غير مرة فى أسفار العهد القديم فرجح أناس من مفسريه أنها حلب ورجح الآخرون أنها قنسرين ، ولا يبعد إطلاق الاسم أحياناً على المكانين .

على أن الأمر الثابت من وقائع التاريخ أن الآراميين سكنوا هذه البقاع قبل عهد ابراهيم عليه السلام ، وأن المدينة وما جاورها كانت عربية بالمعنى الذى نبحث فيه عن أصل العربية القديم ولا نقف فيه عند تاريخها الأخير ، وقد ثبت أن أسلاف الآراميين غلبوا على هذه البقاع فى عهد الملك سراجون قبل الميلاد بأكثر من عشرين قرناً ، ولم تكن هنالك لغة أخرى يفيد فيها الحلب معنى البياض غير الأصول العربية الأولى .

* * *

(٢) ومدينة عامرة :

والمدينة بموقعها وقدم عهدها مدينة حل وترحال ، يقيم فيها من يقيم ويتردد عليها من يتصرفون فى شئون معاشهم من أبنائها وغير أبنائها ، تعددت فيها أسباب المعاش من زراعة وصناعة وتجارة فلم تنحصر فى مورد واحد من هذه

الموارد ، وكتب رسل Russell — وهو ممن أقاموا فيها حقبة من القرن الثامن عشر — مجلداً ضخماً عن تاريخها الطبيعي فأحصى فيها ما يندر أن يجتمع فى مدينة واحدة من محاصيل الغلات والفاكهة والخضر والأبازير والرياحين ، ومن أنواع الدواب والماشية والطير والسمك ، ومن خامات الصناعة للملابس والأبنية ومرافق المعيشة ، فصح فيها مايوجزه الكاتب العربى حين يجمل الوصف عن أمثالها فيقول إنها مدينة خيرات .

وتكلم عنها ملطبرون صاحب الجغرافية العالمية التى ترجمها رفاعة الطهطاوى قبيل عصر الكواكبى فقال بأسلوبه الذى ننقله بحرفه : « ولنبحث الآن عن أشهر الأماكن مبتدئين بالقسم الذى بجوار الفرات وهو إيالة حلب فنقول : إن المدينة المسماة بهذا الاسم هى كما فى كتاب البوزنطيا «برّة» القديمة ، وهى أعظم جميع المدن العثمانية فى آسيا ، سواء بتأدب أهلها أو بعظمها وكثرة أموالها وغناها ، وظن بعضهم أن أهلها لايزيدون عن مائة وخمسين ألف نفس ، ومبانيها من الحجر النحت كما أن طرقها السلطانية مبلطة به أيضاً ، ومنظرها عجيب لما فيها من أشجار السرو المظلمة الأوراق المباينة بالكلية لمنارتها البيضاء ، فما أحسن اختلاط كل من الجنسين بصاحبه ! وبها فابريقات القطن والحرير على حالة زاهية ، وإليها تأتى القوافل العظيمة من بغداد والبصرة فتحمل إليها بضائع بلاد العجم والهند ، وبالجملة مدينة حلب الشهباء مايسميه المتأخر (تدمر) ورياضها مزروعة بالعنب والزيتون كثيرة الحنطة . . » .

وملطبرون يفهم بالتقدير الذى سماه ظنا أن سكانها لايزيدون على مائة وخمسين ألف نسمة ، ولكن الرحالين والخبراء من الأوربيين الذين أقاموا بها بين القرن السابع عشر والثامن عشر يبلغون بتعدادها نحو أربعمائة ألف نسمة ، ويقول دارفيو D'Arvieux الذى كان قنصلا لفرنسا فى المدينة بين سنة ١٦٧٢ وسنة ١٦٨٦ إن الطاعون أهلك من أهلها نحو مائة ألف ولم يشعر طراق الأسواق فيها بنقص سكانها . وكان بعض المؤرخين ممايعولون فى تقدير سكانها على إحصاء الموتى فى الكنائس المسيحية ، أو على مقادير الأطعمة اليومية التى تستنفد فيها ، لاضطرارهم إلى الظن مع قلة الإحصاءات الرسمية ، فراوحوا فى حسابهم بين ثلثمائة ألف وأربعمائة ألف فى عامة التقديرات إلى نهاية القرن

الثامن عشر ، ثم تبين من الإحصاءات الأخيرة أنهم لم يخطئوا التقدير .

* * *

(٣) ومدينة اجتماعية :

وهى مدينة يقوم عمرانها على « مجتمع ناضج » على خلاف المدن العامرة التى يقوم عمرانها على كثرة السكان بغير اختلاف يذكر فى كيانها الاجتماعى أو تركيب الطوائف التى تتألف منها المجتمعات السياسية .

فالسكان فيها كثيرون ، ولكنهم أصحاب مرافق وأعمال لا تستأثر بها صناعة واحدة ، ولا تنفرد الصناعة الواحدة بينهم بنمط واحد على وتيرة واحدة ، سواء اشتغلوا بالتجارة التى يعمل فيها التاجر المحلى وتاجر القوافل وتاجر التصدير والتوريد ، أو اشتغلوا بالزراعة التى يعمل فيها زارع الحقل وزارع البستان وزارع الخضر والأعشاب ، أو اشتغلوا بالحرف اليدوية التى يعمل فيها النساجون والنجارون والحدادون والمختصون بفنون البناء وتعمير البيوت .

وفيما عدا هذا التركيب الاقتصادى يتنوع المجتمع فى المدينة بائتلاف المذاهب والأجناس من أقدم الأزمنة قبل الإسلام وبعد الإسلام ، وقلما يعرف مذهب من مذاهب الإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو مذاهب الديانات الأسيوية لا تقام له بيعة فى حلب أو مزار مشهود مقدس عند أتباعه ، وهى تتسع لأصحاب هذه المذاهب من العرب والترك والكرد والأرمن والأوربيين ، يتفاهمون أحيانا بلغة واحدة مشتركة أو يتفاهمون بجميع هذه اللغات كلما تيسر لأحدهم فهم لغة أخرى غير لغته التى ولد عليها .

ولم تزل المدينة منذ القدم عرضة للمنازعات الدولية بين الفرس والإغريق ، أو بين العرب والروم ، أو بين المسلمين والصليبيين ، أو بين أصحاب العقائد فى الديانة الواحدة واللسان الواحد . وهى حالة لا تتكرر طويلا إلا تركت لها أثرين لا محيص منهما ولا مفر من التوفيق بينهما ، فمن أثرها أن تزيد شعور الإنسان بعقيدته وحرصه على شعائره ومعالم دينه . ومن أثرها فى الوقت نفسه أن تروضه على حسن المعاملة بينه وبين أهل جواره من المخالفين له فى شعوره

أو تفكيره ، وهى رياضة عالية تعتدل فتبدو على أحسنها فى السماحة الدينية ورحابة الصدر ودماثة الخلق وكياسة العشرة والمجاملة ، وقد يجنح بها الغلو إلى مثال من الخلط بين العقائد والشعائر لا يعهد فى بيئة لم تتعرض لتلك التجارب التاريخية ، فقد روى دارفيو المتقدم ذكره أنه وجد فى عين طاب « عينتاب » طائفة تسمى الـ (كيزوكيز) ، أى النصف والنصف ، يصلون فى المساجد ويحفظون القرآن ويعلقون المصاحف الصغار فى أعناق أطفالهم ويوجبون تعميد هؤلاء الأطفال وتقريب القرابين فى المعابد المسيحية والذهاب إلى كرسى الاعتراف وإقامة الصلوات فى عيد الميلاد وعيد القيامة .

* * *

ومن نتائج الائتلاف فى المجتمع أن تتأصل فى العادات خصال التعاون الاجتماعى ، فتصبح المدينة العامرة معمرة قادرة على التعمير ويكسب أبناؤها قدرة على تجديد عمرانها بعد الكوارث التى تنتابها كما تنتاب أمثالها من المدن على أيدى الفاتحين أو بفعل الزلازل والأوبئة التى كانت تنتشر فى الشرق والغرب فلا تسلم منها مدينة كثيرة الوراد والطراق يخرجون منها ويثوبون إليها بغير رقابة صحية على القواعد العلمية . وقد تمكنت حلب من تجديد عمرانها واستئناف علاقاتها ومعاملاتها مرات فى مدى التاريخ المعروف منذ ثلاثة آلاف سنة ، واستطاعت ذلك أربع مرات منذ القرون الوسطى إلى اليوم . ويشير ياقوت الحموى إلى خصلة التعمير والتأثيل فى أهلها فيقول : « ولأهلها عناية باصلاح أنفسهم وتثمير الأموال . فقلّ ما ترى من نشئها من لم يتقبل أخلاق آبائه فى مثل ذلك . فلذلك فيها بيوتات قديمة معروفة بالثروة ويتوارثونها ويحافظون على حفظ قديمهم بخلاف سائر البلدان » . .

* * *

(٤) ومدينة سياسية :

والمدينة الاجتماعية على هذه الصفة مدينة سياسية باختيارها وبما تنساق إليه من ضرورات تدبيرها وإصلاحها ، فلا يسع إنساناً يقيم فيها أن يغفل

عن السياسة التى تديرها ولا عن أحوالها التى تستقيم عليها شئونها المشتبكة أو يعتريها الخلل من جانبها ، وربما حالت السيطرة المستبدة دون إطلاق الألسنة والأقلام فى أحاديث هذه السياسة ، ولكن المجالس التى تدور فيها الأحاديث بين أهلها لا تلبث أن تخلق لها منادح من القول المباح فى باب النقد الاجتماعى ولو قصرته على نقد الأحوال العامة وآداب العرف الشائعة ولم تزد فيه على الحنين إلى الأيام التى كانت تخلو من عيوب هذه الأيام ، أو على الثناء والذكرى لمن كانوا يسوسون الأمور سياسة لا يدركها الملام .

قال رسل فى تاريخه الطبيعى لمدينة حلب ، وهو يسمى المسلمين بالترك على عادة الأوربيين فى زمنه : « إنهم على احتجازهم فى مسائل السياسة لا يقال عنهم إنهم سكوت صامتون . فانهم يفيضون الحديث عن مسائل الديانة والآداب ومساوىء البذخ والترف ، وشيوع الرشوة فى الدواوين ، وربما تحفظوا فى الكلام على أخطاء الحكومة الحاضرة. ولكنهم ينحون على الأخطاء الماضية بغير هوادة ، وسواء كان مجرى الحديث على هذه المسائل أو على أشباهها من المسائل الخلافية تراهم يحتدون فى مساجلاتهم ولا يطول الحوار بينهم دون أن يتطرق إليه الغضب حتى يفصل فيه صاحب الدار برأيه ، إن كان من ذوى الصدارة ، فيميل الأكثرون إلى الرأى الذى أبداه .. »

وإذا قيل هذا عن أواخر القرن الثامن عشر فالحالة السياسية فى غير هذه الحقبة المظلمة لا تحتاج إلى بيان .

* * *

(٥) ومدينة متصلة :

ومن تحصيل الحاصل أن يقال إن المدينة التى لها هذه العمارة وهذه العلاقات الاجتماعية على ملتقى الطرق المعبورة فى القارات الثلاث لن تنقطع عن العالم فى عهد من عهودها ، ولن ينقطع العالم عنها .

إلا أن العلامات المحسوسة أوضح من الأحوال المفهومة فى الدلالة على تمكن هذه الصلة وشدة الحاجة إليها . فمن هذه العلامات أن نقل الأخبار بالمشاعل

والمصابيح كان معروفاً فى حلب قبل ستة وثلاثين قرنا كما يرى من ألواح « مارى » الأثرية التى كشفت بجوارها ، أما فى العصور الأخيرة فلم تخل حلب قط من الوسائل السريعة للانتقال أو نقل الأخبار ، وحيثما وجدت وسيلة أسرع من سواها فى قطر من الأقطار النائية لم تلبث أن تصل إلى حلب بعد قليل وأن يفتن الحلبيون فى استخدامها وتحسينها لزيادة السرعة فيها ، فاشتهرت بالجمال السريعة التى نعرفها فى وادى النيل باسم الهجين ، واجتهد أصحاب القوافل بها فى توليدها بين العربية والتركمانية لتوريثها أحسن الصفات من فصائلها الممتازة ، وانتظم فيها بريد الحمام الزاجل وهو أسرع بريد عرفه الناس على المسافات البعيدة قبل استخدام البرق والبخار ، ولكنهم فى الخطوط التى تمتد من حلب وإليها يحتاطون لعوائق الطريق فيغمسون أقدام الحمام فى الخل ليشعر بالرطوبة فى الجو فلا يستدرجه الشعور بالعطش إلى الماء فينقطع عن السفر أو يسقط بين أيدى المترصدين له فى الطريق .

* * *

(٦) ومدينة حساسة

وهذه العوامل المتأصلة جميعاً قد بقيت إلى العصر الذى نشأ فيه الكواكبى وعاش فيه بين منتصف القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، بل كانت كلها على حالة من النشاط والتحفز توصف « بالحساسية » المفرطة التى تضاعف انتباه المنتبهين إليها على غير المعتاد فى سائر العصور .

كانت مدينة حلب قبل مولده بسنوات جزءاً من العالم العربى الذى كان يجمع الشام وفلسطين وطرفا من العراق والجزيرة العربية فى نطاق واحد ، وظلت كذلك بضع سنوات حتى أعيدت إلى الدولة العثمانية فى سنة ١٨٤٠ بعد تدخل الدول الأوربية فى حروب إبراهيم باشا والسلطان عبد المجيد .

وكانت فتنة الأرمن ومحنة لبنان وغارات الحدود بين العرب والترك فى العراق شغلا شاغلا لأبناء حلب على الخصوص ، لأنها المدينة التى يصيبها كل عطل ويرتد إليها كل اضطراب .

وكانت مسائل الامتيازات الأجنبية تثار كل يوم فى أوربة وفى الشرق العثمانى مع ما يتبعها من مسائل التشريع والإدارة التى تفرق بين الطوائف والأجناس فى كل بقعة من بقاع الدولة التركية .

وكانت هذه الدولة تتقدم خطوة وتنكص على أعقابها خطوتين فى طريق الحكم النيابى والإدارة العصرية واستبدال النظم الحديثة بالتقاليد البالية التى جمدت عليها منذ قرون .

وكانت قناة السويس تفتح ، ومراكز الشركات تتحول من حلب شيئاً فشيئاً إلى القارة الأوربية أو إلى شواطىء الهند وإيران وموانىء البحرين الأحمر والأبيض على طول الطريق .

كان كل عامل من عوامل الحياة الاجتماعية فى حلب يتحرك ويتنبه ويبلغ به الانتباه حد الحساسية ، بل حد الإفراط فى الحساسية حين نشأ الكواكبى فى هذه الحقبة المتوفزة ، ووكل إليه القدر أن يكون لها لسان حال ، فاستجاب لها فى بيئته من حيث يستجيب أمثاله من الرجال .

العصر

كيف نشأ الكواكبي فى هذا العصر ؟

كيف لم ينشأ الكواكبي فى هذا العصر ؟

سؤالان لايتردد المؤرخ بينهما ، بعد ما تقدم ، أيهما أحق بالتوجيه وأيهما أدعى إلى الاستغراب . فان حوادث العصر وحوادث السيرة الكواكبية تشيران كلتاهما إلى الأخرى متقابلتين كما يتقابل العدلان المتلازمان .

ولد الكواكبي حول منتصف القرن التاسع عشر ، وتوفى بعد ختامه بسنتين ، فحياته على وجه التقريب هى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى ملتقاه بطلائع القرن العشرين . وهذه حقبة من حقب التاريخ الحديث يلوح عليها كأنها نشطت من عقال . فكل شىء فيها ينفر من الجمود والركود ويتحفز للحركة والوثوب إلى التغيير .

كان هذا النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، فى القارة الأوربية ، امتداداً لعصر الكشوف العلمية والنزعة الفكرية إلى التمرد على القديم ، وكان حقبة عامرة بأسباب القلق والاندفاع إلى المجهول حيثما وجد الطريق ، تمخضت عن أخطر مذاهب الفكر والأخلاق وأدعاها إلى الثورة والانقلاب ، ولا نطيل فى شرح المذاهب الخاصة بتلك الحقبة أو التى تعد من ولائدها ونتائجها ، فاننا نطوى الكف على خمسة منها فلا نستكثر بعدها أن يحدث فى بقية القرن التاسع عشر كل ما حدث فيها من عظائم الأمور وعوامل الحركة والانقلاب .

فى بقية القرن التاسع عشر شاع مذهب داروين عن التطور وتنازع البقاء ، ومذهب كارل ماركس عن رأس المال ، ومذهب نيتشه عن « السوبرمان » أو الإنسان الأعلى ، ومذهب المدرسة الطبيعية عن حرية الفن والأدب ، ومذهب الديمقراطية عن الحكومة الشعبية ، وكل مذهب منها لا يستقر حيث ظهر على حال من أحوال الجمود والرضى عن التسليم والاستسلام .

ووصلت فتوح العلم إلى السوق والطريق ، بل وصلت إلى الجهلاء الأميين أهول وأضخم من صورتها التى وصلت بها إلى العلماء الدارسين .

سمعوا الجراموفون « الحاكى » فقالوا إن الإنسان ينطق الجماد .

وسمعوا عن البرق بأسلاكه وغير أسلاكه فجدد لهم خبر المردة المسخرين فى نقل الأسرار بين السماء والأرض ، وبين المشرقين والمغربين .

وسمعوا صوت الهاتف بعد أن شهدوا الصورة التى يرسمها لهم شعاع الشمس فكادوا يلحقونها بالخوارق والمعجزات .

وكبرت فى أيامهم مخترعات الأمس ، فأصبحت المطبعة والباخرة والبندقية أشباحاً تطاول المردة بعد أن كانت فى الحقبة الغابرة ألاعيب أطفال أو أطفالا تتعثر بين المهود والحجور .

كذلك كان النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى ميدان الفكر والصناعة .

أما ميدان العمل والحياة العامة فجمل ما يقال فيه أنه يتلخص فى كلمتين تترددان بلسان المقال أو لسان الحال فى كل أمة غالبة أو مغلوبة ، ومتقدمة أو متأخرة ، وحرة ناهضة أو متأهبة للحرية والنهضة ؛ وهما : الحرية وحق الأمة .

ففى البلاد الإنجليزية كان سلطان الملوك يتقيد ويتبعه سلطان السادة النبلاء إلى القيد ، ولم تهدأ فيها صيحة المطالبة بالمشاركة فى الحكومة بين أصحاب الأموال وجماعات العمال ، فكان العقد الثانى بعد منتصف القرن فاتحة العهد الذى برز فيه الأحرار وتمهدت فيه السبيل لطوائف العمال .

وفى البلاد الفرنسية قضت حرب السبعين على الإمبراطورية وتحولت بالحكم

إلى النظام الجمهورى على أساس المبادىء التى أعلنتها الثورة وتجاوبت بها أصداء العالم ، وهى مبادىء الحرية والإخاء والمساواة .

وفى البلاد الألمانية ظفرت القومية المشتتة بالوحدة التى كانت تنشدها واجتمعت الولايات التى كانت موطن المغيرين من الشمال والجنوب ، ومن الشرق والغرب ، فأصبحت قوة القارة التى يخشاها المغيرون !

وفى البلاد الإيطالية تجمعت تلك المتفرقات من قضايا العصر كله ، ومنها قضية الاستقلال ، وقضية الوحدة ، وقضية السلطة الدينية ، وقضية الحكومة الشعبية ، فكانت — وهى تضطرب بجميع هذه القضايا — كأنها الحلقة الوسطى بين الغرب والشرق ، وبين القارة الغالبة والقارات التى تشكو الغلبة عليها ، فثارت إيطاليا قبل منتصف القرن تسترد الحرية من الدول الثلاث التى تنازعتها وهى النمسا وفرنسا وأسبانيا .

وعند منتصف القرن ثارت على أمرائها الذين تنازعوها وفرقوا أرضها وأبناءها وجمعت شملها فى ظل رايتها الموحدة على رضاها . وفصلت الوطنية الإيطالية فى قضية السلطة الدينية كما فصلت فى قضية الملك والدولة ، ثم فصلت فى قضية الحكم فأقامتها على قواعد النيابة الشعبية ، ولم ينقض القرن حتى دخلت فى سباق الاستعمار طامعة فى أسلاب غيرها بعد أن كانت مطمعا للقادرين عليها من الغرباء عنها ومن أبنائها .

وقد توحدت إيطاليا بعد مجهودات كثيرة تفرقت مساعيها واتفقت قبلتها فى النهاية . فكان الوطنيون المجاهدون يعملون جميعا على توحيدها والنهوض بها إلى مصاف الدول العظمى ويأنفون أن تكون بين جاراتها أقل منهن شأناً وأصغر منهن قدراً فى مجال العلاقات الدولية ، وهى أعرق منهن ماضياً وأقدم ثقافة وموطن اللغات الذى نبتت منه لغات اللاتين واقتبست منه سائر اللغات فى أمم الحضارة ... إلا أنهم — مع هذا الاتفاق فى الغاية — تفرقوا فى الوسائل والمعايير السياسية ، فأرادها فريق منهم « جمهورية حرة » تنال حريتها وتنشر مبادىء الحرية لغيرها ، وعلى رأس هؤلاء المجاهدين حكيم إيطاليا ورائدها الأول يوسف ماتسينى ، مؤسس « إيطاليا الفتاة » ثم مؤسس « أوربة الفتاة » إيماناً منه بأن الحرية فى القارة الأوربية شرط لاغنى عنه لدوام الحرية فى بلاده .

وفريق آخرون يريدون بقاء الملكية على عرش واحد ، أو يسمحون ببقائها إلى حين ريثما تتهيأ الفرصة لإقامة الجمهورية ، وعلى رأس هؤلاء كافور الزعيم الوزير الذى كان يخالف الفريق الأول فى سياسة الأحلاف الدولية ويتبرع بارسال الجيوش إلى القرم لمحاربة روسيا ومعاونة تركيا وإنجلترا وفرنسا أملا فى تأييد الدولتين الأخيرتين له فى مساعيه الدولية ويأساً من تأييد روسيا القيصرية لقضية من قضايا الاستقلال والثورة على النظم الدولية العتيقة .

ويتوسط بين الفريقين فريق غاريبالدى الذى كان يستعين بالكتائب المتطوعة كما كان يستعين بالجماعات السرية من قبيل جماعة الفحامين « الكربونارى » ولا يرفض التعاون مع « إيطاليا الفتاة » كلما اتفقت الحملة على خصم واحد من خصومه وخصومها . ولكنه يتوجس من المحالفات الدولية ولا يؤمن بجدواها ويكاد يقطع بتحريمها خوفا من مغارم « المقايضة » التى تجور على حقوق الدولة الناشئة كما تجور على أقاليمها ومواردها . ولا تعرف وسيلة من وسائل الأمم فى جهادها لم يتوسل بها فريق من هؤلاء المجاهدين ولم يتصل خبرها بطلاب الحرية فى البلاد الشرقية ، لانتشار الإيطاليين على شواطىء البحرين الأبيض والأحمر ، وإقامتهم على طريق التجارة القديمة بين الهند والبندقية وجنوه ، واشتراكهم من قبل الساسة والزعماء معا فى حروب الدولة العثمانية .

ولابد من الانتباه الدقيق إلى دخائل السياسة المزدوجة التى أملاها على الدولة الإيطالية وضعها الجديد بعد الاتفاق على توحيدها . فهى — من جهة — دولة أوربية طامحة إلى مساواة الدول التى سبقتها فى حلبة الفتح والسيادة ، وهى من الجهة الأخرى أمة تشبه الأمم الشرقية فى جهادها لدول القارة وتتفق مع بعضها فى مقاومة النفوذ العثمانى وتشجيع الثورة عليه . ومن آثار هذه السياسة أن بيتها المالك كان على مودة « شخصية » ودولية تربط بينه وبين بيوت الحكم والرئاسة فى أكثر الأقطار التى خضعت للسيادة العثمانية ، فلما عزل الخديو إسماعيل جعل مقره الأول فى البلاد الإيطالية ، ولما هاجر الأمراء الإيطاليون من بلادهم فى الحرب العالمية الأولى وبعد الحرب العالمية الثانية كان اختيارهم لمصر مقدماً على اختيارهم للرحلة إلى قطر من الأقطار الأوربية ، وكان ملك إيطاليا

يتوسط أحياناً فى الأزمات المستحكمة بين أمم المغرب ودولتى فرنسا وأسبانيا ؛ كأنه يرى أن هذه الأمم تطمئن إليه وتتقبل منه ما لم تتقبله من الحكومات الأوربية ، وقد تطوع الإيطاليون بعد احتلالهم « أرتريا » لبذل المعونة ونقل السلاح إلى سواحل جزيرة العرب لمقاومة المنافسين لنفوذها من الأوربيين وغير الأوربيين ، وكانت لهم جالية قوية فى المدن السورية تعرب عن تأييدها للأحرار والثائرين توددا لهم أو نشراً للدعوة التى نقلتها من بلادها فى إبان نهضة التوحيد والحرية .

* * *

هذه نبذة عاجلة عن حركات الغرب فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر أوجزنا فيها القول عن أمم أربع من أممها التى سرت أخبارها وأخبار قضاياها إلى الشرق العربى وبلاد الدولة العثمانية ، وهى على تفاوتها فى كل ظاهرة من ظواهر السياسة والثقافة تشترك فى خصلة لا تغيب عن واحدة منها فى خبر من أخبارها وهى المطالبة بالحقوق والحريات .

فاذا كانت قارة الاستعمار قد حصرت خطتها حيال الشرق فى سياسة واحدة تريدها وتتعمدها لتقهره وتتغلب عليه ، فهناك سياسة أخرى لم تردها ولم تتعمدها تلقاها الشرق منها فهب لمقاومتها وتيقظ لمطامعها ونزل معها فى ميدانها الذى استفزته له باختيارها وبغير اختيارها .

* * *

وقد جاء رد الفعل المنتظر بعد برهة من السبات والذهول من أثر الصدمة التى كانت تنتقل وتشتد كلما تنقلت بين أقطار الشرقين البعيد والقريب من اليابان فى أقصى الشرق الآسيوى إلى مراكش فى أقصى الشرق الإفريقى ، وقد أصبحت هذه « شرقا » فى حساب الاستعمار وإن كانت تناوح فى الموقع الجغرافى جارتها أوربة الغربية .

ونقصر الكلام هنا على الشرق العربى كما كان فى أواسط القرن التاسع عشر إلى ما بعد مولده بقليل ؛ ففى تلك الفترة كانت مصر قد ظفرت بحصة كبيرة

من الحكومة الذاتية ، وكانت لبنان قد خرجت بعد الفتن والأزمات بنصيبها المقرر من الامتيازات الداخلية ، وكادت جزيرة العرب تنعزل بالدعوة الوهابية وتوشك أن تمتد منها إلى قلب العراق ، وكانت العراق فى صراعها مع حكم المماليك تتقدم فى خطى سراع إلى الخلاص من ذلك الحكم المضطرب بين الكساد والوباء ، وعلمت الدولة العثمانية أنها تحتاج لاستبقائه وإعادة الأمن فيه إلى نظام من الحكومة الدستورية غير نظام الولايات المهملة أو الولايات المسخرة لسادتها على غير إرادتها ، فأرسلت إليها أكبر وزرائها فى عصره « أحمد مدحت باشا » الملقب بأبى الدستور ، فأقام فيها نظام الحكم على أساس الحرية والمصلحة العامة على خير ما يستطاع فى تلك الآونة ، وافتتح فيها عهد الحياة العصرية التى وصلت بينها وبين أمم الحضارة .

وكانت ولاية حلب — مع سائر الولايات السورية — قد اتصلت بمصر زهاء سبع سنوات ، ثم ثارت على حكم إبراهيم بن محمد على سنة ١٨٤٠ فأعيدت إلى الدولة العثمانية على وعد بالإصلاح وتنظيم الإدارة على أساس جديد ، وكان الشروع فى الإصلاح وتنظيم الإدارة حقيقة واقعة منذ قيام السلطان محمود الثانى (بين سنتى ١٨٠٨ و ١٨٣٩) لاضطرار الدولة أولا إلى إصلاح جيشها واضطرارها بعد ذلك إلى تسوية المشكلات القائمة بين رعاياها المختلفين فى الجنس والدين واللغة ، فان الهزائم المتوالية أقنعت أولياء الأمر فى القسطنطينية بالحاجة الملحة إلى تنظيم جيش جديد تستخدم فيه الأسلحة الحديثة وأساليب التعبئة المتبعة فى الدول الأوربية ، ثم تبين لهم أن تعديل أنظمة القضاء والتشريع وإدارة الدواوين ضرورة لامحيص عنها لسياسة رعاياهم ومدافعة الدول الأوربية التى كانت تتعلل بفساد الحكم فى الدولة التركية للتدخل فى شئونها بدعوى الإنسانية تارة ودعوى الامتيازات الأجنبية تارة أخرى ، فتحدث الناس بوعود الإصلاح وأعماله ومشروعاته وحقوق الرعية وواجبات الرعاة قبل مولد الكواكبى كأنهم يتحدثون بدين يلويه المدين بين السداد والمطال .

ولعلنا ندرك حقيقة الحال ونعلم أن وعود الإصلاح كانت ضرورة لازبة ولم تكن إنعاماً ولا إحساناً من أولياء الأمور إذا نظرنا إلى بقاع العالم العربى

فلم نجد فيه بقعة واحدة رضيت بما هى فيه ولم ينهض أهلها للمطالبة بنوع من الإصلاح على نحو من الأنحاء ، فتحرك السودان وتحركت الصحراء وتحركت قبائل المغرب فى ثورتها؛ بل فى ثوراتها التى تكررت ولا تزال تتكرر إلى اليوم . وصدق على العالم العربى بين أطرافه المترامية قول القائلين فى الغرب إنه مارد خرج من القمقم ولن يعود إليه .

وكان فى الحق مارداً هائلا يتململ فى الأسر ليخرج من قمقمه المظلم المحصور ، ولكنه لم يكن مارداً معصوب العينين كما صوره أولئك الراصدون للقمقم أو كما أرادوا أن يتصوروه ، إذ كان للمارد زمامه فى أيدى الهداة من القادة الملهمين ومن رواد الثقافة الأولين ، وكان لهذه الهداية بين المسلمين وغير المسلمين طابع الشرق الخالد منذ الأزل : طابع العقيدة والإيمان .

* * *

فى القارة الأوربية حكم التاريخ حكمه بعد النزاع القائم بين السلطة الدينية والسلطة السياسية ، فوهم العلماء فى مطلع الثقافة الحديثة أن هذه الثقافة حرب بين العلم والدين . فلما انتقلت ثقافة الغرب إلى الشرق تلقاها المسيحى فى المدارس من رجال دينه، وتلقاها المسلم مستجيباً لنداء «العودة إلى الدين» على كل لسان يُسمع منه الوعظ ويقبل منه الإرشاد ، فقد وقر فى الأخلاد أن المسلمين هجروا دينهم فحاق بهم بلاء الذل والضياع . واتفق الجامدون منهم على القديم والمتطلعون إلى الجديد على هذا النداء ، فلا خلاف بينهم إلا على الرجوع إلى الدين كيف يكون .

وربما قال الجامدون قبل المجددين إن الأوربيين عملوا بأدب الإسلام فأعدوا العدة ونظروا إلى حكمة الله فى خلقه فتقدموا وتأخر المسلمون .

وتباعدت الشقة بين المحافظين أنصار النص والحرف وبين المجددين أنصار المعنى والقياس فاختلفوا على الكثير، ولكنهم مع اختلافهم هذا لم يتفقوا على شيء كما اتفقوا على حرب الخرافة وعقائد الجهل والشعوذة الدخيلة على الدين ، فحاربها المحافظون الحرفيون لأنها بدع مستعارة من بقايا الوثنية ، وحاربها

المجددون لأنها سخافات وأباطيل ينقصها العلم الحديث . وتراجعت هذه السخافات والأباطيل إلى غيابة الجهل لا تجترىء على التقدم إلى صفوف القيـادة المسموعة بين أنصار القديم ولا بين أنصار الجديد .

كانت هذه الظاهرة النـادرة إحدى حسنات التوفيق فى صدر الدعوة إلى الإصلاح ، وتلك ولا ريب إحدى العوامل القوية التى جعلت دعوة الإصلاح مهمة روحية ثقافية ، وجعلت رجلا كالسيد جمال الدين الأفغانى داعياً مسموعاً حيثما حل فى قطر من أقطار الشرق بين المسلمين العرب والفرس والهنود ، وبين العرب المسلمين وغير المسلمين ، وناهيك بامام من الأفغان تصدر له صحيفة « مصر » ويحررها تلميذه « أديب إسحاق » وهو المسيحى الكاثوليكى من الأرمن العثمانيين .

تلك سمة العصر الذى قدمنا الكلام عنه بهذين السؤالين :

كيف نشأ الكواكبى فى هذا العصر ؟ كيف لم ينشأ الكواكبى فى هذا العصر ؟ وقلنا إنهما سؤالان لا يتردد المؤرخ بينهما أيهما أحق بالتوجيـه وأيهما أدعى إلى الاستغراب .

إن الكواكبى فى أسرته ومنبته وزمنه ــ لوفاق الشرط الذى تتطلبه رسالته المنتظرة فى هذا الشرق بين البلاد العربية ــ رجل مرشح للرئاسة الروحية ، مضطهد فى سربه وذماره ، ينشأ فى بلد عربى عريق يرتبط بعلاقات المشرق والمغرب وتلتقى لديه تيارات الحوادث العالمية ، ويفتح عينيه على العالم وهو يصبح أو يمسى على قضية حق أو ثورة حرية . من وصفه فقد سماه ، وكاد يصمد إليه ولا يتخطاه إلى سواه .

أسرة الكواكبي

ينتسب الكواكبي من أبويه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وقد روى صاحب « إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » نسب الأسرة نقلا عن كتاب « النفائح واللوائح من غرر المحاسن والمدائح » الذى ألفه السيد حسن بن أحمد بن أبي السعود الكواكبي فجاء فيه أن السيد أحمد هو :

« ابن أبي السعود بن أحمد بن محمد بن حسن بن أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن محمد بن أبي يحيى المعروف بالكواكبي قدس سره ، ابن شيخ المشايخ والعارفين صدر الدين موسى الأردبيلي قدس سره ، ابن الشيخ الرباني المسلك الصمداني صفي الدين إسحاق الأردبيلي ابن الشيخ الزاهد أمين الدين ابن الشيخ السالك جبريل بن الشيخ المقتدى صالح ابن الشيخ قطب الدين أبي بكر ابن الشيخ صلاح الدين رشيد ابن الشيخ المرشد الزاهد محمد الحافظ ابن الشيخ الصالح الناسك عوض الخواص ابن سلطان المشايخ فيروزشاه البخاري ابن مهدى ابن بدر الدين حسن بن أبي القاسم محمد بن ثابت بن حسين بن أحمد ابن الأمير داود بن علي ابن الإمام موسى الثاني ابن الإمام إبراهيم المرتضى ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين السبط الشهيد ابن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم أجمعين » .

قال صاحب « إعلام النبلاء » بعد اسم صدر الدين موسى الأردبيلي : « الذى رأيته فى عمود نسبهم المحفوظ فى بيت الموقت بعد محمد أبي يحيى بن صدر الدين إبراهيم الأردبيلي المنتقل إلى حلب ابن سلطان خوجه علاء الدين علي ابن صدر الدين موسى الصفوى — فيكون قد سقط هناك شخصان — ابن السلطان

صفى الدين أمين الدين جبريل ، وهناك قد جعلهما شخصين . وباقى النسب كما هنا ، والله أعلم » .

وروى فى هذا المصدر نسبه لوالدته المتصل ببنى زهرة فجاء فيه أن « والدة المرحوم أبى السعود الشريفة عفيفة بنت بهاء الدين بن إبراهيم بن بهاء الدين ابن إبراهيم بن محمد بن محمد بن محمد بن شمس الدين الحسن بن على بن أبى الحسن بن الحسين شمس الدين بن زهرة أبى المحاسن بن الحسن بن زهرة أبى المحاسن ابن على أبى المواهب بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن أحمد بن الحسين بن إسحاق المؤتمن بن الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الإمام السبط الشهيد الحسين » . . .

ويرى فى عمود النسب لأبيه اسم صفى الدين الأردبيلى ، ومن ذريته إسماعيل الصفوى الذى جلس على عرش فارس وأسس فيها الأسرة الصفوية ، ومنها « على سياه بوش » الذى رحل إلى بلاد الروم وتزوج سيدة من حلب ثم قفل إلى بلاده ، وخلف بها أجداد الأسرة الكواكبية .

ومن أعرق علماء حلب من أسرة الكواكبى الشيخ « محمد بن حسن بن أحمد الكواكبى » الذى تولى منصب الإفتاء فيها ، وكان مولده بها سنة ثمانى عشرة وألف هجرية (١٦٠٩ م) وتوفى بها سنة ست وتسعين وألف هجرية (١٦٨٥ م) وله مؤلفات فى علوم الفقه والأصول والكلام والمنطق ، منها : شرح الفوائد السنية ، ونظم الوقاية ، ونظم المنار ، وإرشاد الطالب ، وشرح كتاب المواقف ، وحاشية على تفسير البيضاوى ، ورسالة فى المنطق ، وتعليقات على تفسير سورة الأنعام .

وأول من اشتهر من الأسرة باسم الكواكبى — فيما يقال — محمد أبو يحيى بن صدر الدين . قال صاحب كتاب « نهر الذهب » فى كلامه عن جامع أبى يحيى الكواكبى :

« يظهر أنه جامع قديم وأنه اشتهر باسمه الحالى نسبة إلى محمد بن ابراهيم بن يحيى الكواكبى ؛ لأنه وسعه وأقام فيه أذكاره ، فلما مات دفن فيه ، وبنى عليه « سيباى بن عبد الله الجركسى » قبة من ماله . وهو جامع فسيح له قبلة متوسطة تقام فيه

الصلوات والجمعة ، وله منارة فوق بابه ، وفى غربيه قبة أبى يحيى المذكور ، مكتوب فى الجدار الكائن فوق رأس الضريح :

وليس عجيبا أن تيسر أمرنا	بحضرة هذا القطب حاوى المناقب
ولىٌّ تولاه الإلــه بلطفه	وولى فأولاه صنوف المواهب
وما مات حتى صار قطبا مقربا	ونال من الغفران أعلى المراتب
هدينا إلى هـذا المقـام بطيبه	كما يهتدى الحادى بنور الكواكب

وفى صحن المسجد فى جهته الغربية عدة قبور لبنى الكواكبى ، وفى شرقيه حوض يجرى إليه الماء من قناة حلب ، ولهذا المسجد وقف قديم هو الآن ثلاثة جوانيت فى سويقة على ، وله مخصصات من وقفى حسن أفندى ابن أحمد أفندى الكواكبى ووالده المذكور ، ويوجد على يسرة الداخل للجامع حجرة لتعليم الأطفال وفى جانبها صهريج سبيل يجرى إليه المـاء من قناة حلب عمرته هبة الله بنت حسن أفندى المذكور ، وهى أم حسن بك ابن مصطفى بك . وفى جانب المسجد من شرقيه مدرسة تعرف بمدرسة الكواكبى يصعد إليها بدريجات وهى عامرة نيره مشتملة على قبلة وحجرتين .. »(١)

ويقال إن السيد أبا يحيى عرف باسم الكواكبى لأنه كان يعمل فى الحدادة ويتقن صنع المسامير التى تسمى الكواكب لاستدارتها ولمعانها ، فنسب إليها . ثم سلك مسلك المتصوفة فنبه فيها شأنه وتوافد عليه التلاميذ والمريدون ومنهم أمراء ورؤساء ، كانوا يفدون إليه وهو فى نسكه أو فى ذكره ، فلا يجسرون على التحدث إليه حتى يأذن لهم ، لهيبته وورعه ، وسميت طريقة آل الكواكبى بالطريقة الأردبيلية نسبة إلى أردبيل من أذربيجان ، وهى البلدة التى ينتمى إليها صدر الدين وصفى الدين المتقدمان .

ومن أعلام الأسرة الذين ترجم لهم فى كتاب « إعلام النبلاء » الشيخ « حسن أفندى ابن أحمد أفندى الكواكبى المتوفى سنة ١٢٢٩ هجرية » ترجمه العلامة

---

(١) نهر الذهب فى تاريخ حلب لمؤلفه الشهير بالغزى .

عبد الرزاق البيطار الدمشقي فى تاريخه « حلية البشر » فقال فى وصفه : « هو كعبة الأدباء ونخبة العلماء من اشتهر بالفضائل وشهد له السادة الأفاضل.. تولى منصب الإفتاء فى مدينة حلب ، وكان حسن الأخلاق كريم الطباع ، وكان العلامة المرادى مفتى دمشق — لما كان فى حلب — يتردد عليه كثيراً وامتدحه بعدة قصائد .. ، وترجمه الشيخ عبدالله العطائى فى رسالته — الهمة القدسية — المدرجة بتمامها فى ترجمته .. ومن آثاره كتاب سماه — النفائح واللوائح فى غرر المحاسن والمدائح — جمع فيه نظم والده وما مدح به من شعراء عصره وما مدح به أسلافه ، وعقد لكل واحد من هؤلاء الشعراء ترجمة . . »

ومن هؤلاء الأعلام الشيخ أحمد الكواكبي الذى ولد سنة خمس وأربعين ومائتين وألف وتوفى سنة ثلثمائة وألف ، وجاء فى ترجمته أنه « تلقى العلوم النقلية والعقلية على أشياخ عصره فى الشهباء ... وأخذ الطريقة الشاذلية عن الشيخ بكرى البلباني وكان شديد الصحبة للشيخ أبي بكر الهلالى يمضى معظم أوقات فراغه معه فى الزاوية الهلالية ، وأقرأ فى المدرسة الكواكبية والمدرسة الشرقية وفى الجامع الأموى منذ وجهت إليه وجهة التدريس فيه سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، واشتهر بعلم الفرائض وتحرير الصكوك ، واشتغل بأمانة الفتوى ، وعين عضواً فى مجلسى إدارة الولاية . وكان ربعة أسمر اللون نحيف الجسم أسود العينين ، وخطه الشيب فى أواخر عمره ، وكان رقيق الحاشية ظريف المحاضرة لا يمل منه جليسه حسن الخلق جداً . وربما أوقفه ذو سؤال زمناً غير يسير وهو يستمع له ولا ينصرف حتى يكون السائل هو المنصرف ، وكان وقوراً مهيباً قنوعاً متصلباً فى دينه وقافاً عند الحق ، وكان يعرف اللغة التركية إذ كان يندر من يعرفها بحلب خصوصاً من العلماء ، وحدث مرة أن انحلت نيابة القضاء فى حلب وتأخر قدوم النائب فأراد الوالى إذ ذاك ألا تتراكم الأشغال فى المحكمة الشرعية . فكلف رئيس الكتاب أن يتولى القضاء وكالة فقال له : لا يجوز توكيل الوالى ولا ينفذ قضاء من يوكله ، فقال له : أنا وكيل الخليفة فلى أن أوكل . فأبى عليه القبول ، فتكدر منه وأخرجه من عنده ، ثم إنه أراد تنفيذ مقصده فكلف المترجم إلى الوكالة ، فأجابه إلى ذلك فسر جداً وكتب له فى الحال منشوراً بتوكيله إياه فى القضاء ، فذهب إلى المحكمة الشرعية ، وصار الناس يتطلعون إلى صنيعه : كيف يوفق بين أمر الوالى والحكم الشرعى . فكان يسمع للخصمين

ويضبط مقالها ، ثم يشير عليهما بالصلح ويريهما أحسن وجه للاتفاق ولا يزال يعظهما بالموعظة الحسنة حتى يتصالحا ، فيكتب بينهما صكاً . وقد حصل المطلوب من القضاء . وإذا أبى عليه خصمان عن المصالحة قال لهما : أتحكمانني بينكما ؟ فيحكمانه . فيكتب صكاً بتحكيمهما ثم يحكم بينهما ، ويؤخر تسليم صك الحكم إلى حضور النائب . ثم لما حضر النائب أمضى كل ماتم من قبل المترجم وختم صكوكه . وقد اكتسب شهرة عظيمة بهذا الصنيع ، فكان من بعد ذلك وقفاً على الإصلاح بين الناس ، وربما حضر مجلساً للاصلاح بين خصمين ، فوجد الذى دعاه غير محق . فكان لا يألو جهداً فى نصحه وإرجاعه إلى طريق الحق ، وإنما كان موفقاً فى ذلك لأنه إنما كان يقصد وجه الله تعالى ، وكان متولياً على جامع جده أبى يحيى وخطيباً وإماماً فيه(١) » . ؟

والشيخ أحمد الكواكبى هذا هو والد المترجم ومعلمه ومربيه ومورثه جملة صفاته وسجاياه ، كما يرى من تفصيل سيرته فى مواضعها .

وقد نشأ المترجم فى هذا الجيل من أجيال الأسرة وهى على عهدها بمنازل الشرف والعلم : أبوه أهل للقضاء فى الخصومات بفضله وسمته ، وأهل للتدريس فى أكبر المعاهد بعلمه وصلاحه . وأخوه الأصغر « مسعود أفندى » يشترك فى معاهد العلم عضواً بالمجمع العلمى فى دمشق ، ويشترك فى معاهد الحكم عضواً بمحكمة التمييز ، وفى مجالس السياسة عضواً بمجلس المبعوثين ، ويقول عنه رئيس المجمع العلمى الأستاذ محمد كرد على فى الجزء الثانى من مذكراته بعد كلامه عن أخيه عبد الرحمن صاحب الترجمة : « وكان هذا يقول لى : إن شقيقه مسعوداً أعلم منه ، وقد كتب لى الحظ الأوفى أن زاملته سنين فى المجمع العلمى العربى ، ورأيته فيها ورصفائى مثال العلماء العاملين الذين ذكرت كتب الرجال تراجمهم العظيمة ، وكانوا ممن اعتز بهم العلم وارتقى الفكر الإسلامى ، حللت روح هذين الحبيبين الشقيقين والحبرين الكاملين فما سقطت فيهما على عيب من عيوب الآدميين جل الصانع ، وسجلت أنهما تقدما جيلهما فى كل معانى الفضل والنبل ، وما أسفا إلى أن يعيشا كأكثر أبناء الفقهاء عيش التوكل والخنوع يأكلون

---

(١) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، تأليف محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبى .

ويشربون ويتناسلون ويجمعون من حطام الدنيا ما وصل إلى أيديهم . فالدم الطاهر ينم عن صاحبه كيفما تقلبت به الأحوال ، ولا يحتاج إلى من يدل عليه .. »

ولسنا نحتاج إلى أكثر مما تقدم فيما رواه الرواة والمعاصرون عن أسرة الكواكبي للتعريف بأوائل نسبه ومنابت أخلاقه وشمائله . فني صفحات الكتب وأقوال المتحدثين أخبار متناثرة من قبيل ما أجملناه تعيده أحيانا فى مختلف العبارات أو تزيد عليه ما ليس يزيد فى مغزاه . ولكننا نجتزىء باليسير منها لأنه أجزاء متناسقة يتمم بعضها بعضا ، وينتظم منها تاريخ متصل الحلقات منذ عرف اسم الأسرة فى موطنها إلى مولده وأيام حياته ، وكلها — سواء منها الخبر المروى والخبر الذى تنبئنا عنه معالم المدينة وآثارها — ينتهى إلى نتيجة واحدة تكفى للتعريف بحاضره وماضيه الذى كان له الأثر الواضح فى حياته وعمله ، فمن هذه المعالم والأخبار نعلم أن « عبد الرحمن » قد وعى دنياه وهو يتلقى من ذكريات قومه قدوة النبل والمعرفة ، وتمتد به الذكرى الغابرة إلى عهود الأسلاف الذين نهضوا بزعامة الدين وزعامة الدولة ، وتحفزوا للعرش من صوامع العبادة ومساجد الدرس والهداية . وقد يتأنى المؤرخ حين يبحث عن الأسانيد القاطعة فيما يتحراه عامة المؤرخين ورواة الأخبار عن القديم ، ولكنه لا حاجة به إلى الأناة فيما وعته ذاكرة الأحياء من أبناء الأسرة وأثبتوا به إيمانهم بما كان لهم من سابقة وما ينبغى لهم من حياة حاضرة . فلا خلاف على هذه الذكريات بين أبناء الأسرة وأبناء المدينة التى تأصل فيها الأبناء بعد الآباء والأجداد على مدى أجيالها المذكورة ، ولا خلاف بين الرواة المعاصرين فى عراقة الأسرة الكواكبية فى مدينة حلب وإقليمها من حولها ، وانما يختلفون فيمن تسمى باسمها لأول مرة من أجداد عبد الرحمن لأبيه أو لأمه ، ويقال إن أبا يحيى — أحد أجداده — كان يسمى « البيرى » نسبة إلى « البيرة » على القرب من حلب ، ويقول صديقه ومؤرخه الأستاذ كامل الغزى فى مجلة الحديث الحلبية : « إنه عرف بالكواكبي لاتصال أحد أسلافه بآل الكواكبي من جهة النساء المعروفات بعراقة النسب » .. ولا يذكر — على أية حال — ذو نسب كواكبي بالمدينة غير آل عبد الرحمن فى حياته وحياة أبيه وجده .

وقد حدث فى حياة عبد الرحمن حادث ذو بال فى تاريخ الأسرة وتاريخه بل تاريخ دعوته وتفكيره ، فانتقلت نقابة الأشراف من بيت الكواكبي إلى بيت « الصياد » شيخ الطريقة الرفاعية وشيخ مشايخ الطرق بعد ذلك فى أنحاء الدولة التركية . ولكنها لم تنقل للشك فى نسب الأسرة الكواكبية أو لثبوت نسب الأسرة الأخرى أسرة محمد بن حسن وادى المشهور بأبى الهدى الصيادى .. وانما انتقلت لرضى الولاة عن زعيم هذه الأسرة ونفورهم من الأسرة الكواكبية ، وهذا هو المثل القريب الذى لمس فيه عبد الرحمن عيوب الحكم فى الدولة وأدرك به مواطن الحاجة إلى الإصلاح ، قبل أن يدركه بالبحث والاطلاع .

وأحسب أننا نحتاج قبل اختتام هذا الفصل إلى كلمة موجزة عن الأسرة الصفوية التى يجمعها عمود النسب بالأسرة الكواكبية ، كما تجمعها الطريقة « الأردبيلية » منذ أيام مؤسسها صفى الدين المشهور . فان الاتصال بين النسبين قد يفسر لنا الغابر بالحاضر ، ويفسر لنا ميراث الشعور منذ القدم بين الأسرة والدولة العثمانية ، أو دولة السلطان سليم على التخصيص .

فمن الثابت أن الشاه إسماعيل الصفوى قد نشأ كما يقول مؤرخو الإفرنج من « أسرة دراويش » ينتسبون إلى بلدة أردبيل بأذربيجان ويرتفعون بعمود النسب إلى الإمام على والسيدة الزهراء .

ومن الثابت أن الأسرة الصفوية من عهد مؤسسها كانت على دراية بتنظيم الجماعات السرية وعلى أهبة لتجميع الجموع بالمحالفة والعصبية .

ومن الثابت أن النساك من زعماء الطريقة الأردبيلية كانوا يزورون دمشق وبيت المقدس ويترددون على المدن فى الطريق بين شمال فارس وبلاد الروم .

ويقول المؤرخ اللبنانى المسيحى — شاهين مكاريوس — فى كتابه الذى وضعه عن تاريخ إيران باذن الشاه ناصر الدين : « إنها عائلة علماء أعلام وأئمة كرام وأصحاب تقوى يوقرهم الأنام » .

ثم يروى قصة قيام الدولة فيهم فيقول بعد الإشارة إلى الشيخ صفى الدين : « وكان لهذا الشيخ الفاضل أعوان يصدعون بأمره ، وهو لا يأمر بغير الطيب

والإحسان ، وخلفه ابنه صدر الدين وعقبه من الأولياء مشاهير مثل خواجه علي وجنيد وحيدر ، ممن اشتهروا بالفضل والعلم والتقوى ، وكان صدر الدين فى أيام تيمور ، وقد أخذ له مقراً فى مدينة أردبيل من أعمال أذربيجان مثل أبيه ، فزاره يوماً هذا البطل العظيم وسأله أن ّ مر بما تريد أقضه فى الحال . قال : أريد منك أن تطلق سبيل الأسرى الذين أتيت بهم من بلاد الأتراك . ففعل تيمور باشارته ، وحفظ الأتراك هذا الجميل لصدر الدين وعائلته وكانوا بعدئذ هم السبب فى توليتها الملك كما سيجىء ، وليس فى التاريخ ذكر أمر يدل على الإقرار بالجميل بعد مرور الأجيال مثل هذا الأمر . وأشهر ما يذكر عن خواجه على أنه حج إلى القدس الشريف ومات فيه وخلفه حفيده جنيد ، فاجتمع لديه خلق كثير حتى خاف الأتراك شره ، وحارب أحد رؤسائهم فاضطره إلى الفرار إلى ديار بكر حيث قابله حاكمها الأمير حسن بالإكرام وزوجه أخته ، وقصد جنيد بعد ذلك بلاد شيروان فحاربه حاكمها وقتله ، فخلفه السلطان حيدر ، وكان أمير ـ أوزون ـ حسن حليفه فتقوى بنصرته على الأعداء . وصار بالتدريج حاكماً على كل بلاد إيران فى مدة السلطان أبى سعيد الذى مر ذكره . ومات فدفن فى أردبيل ، فخلفه ابنه السلطان على ولكن القلاقل كثرت فى أيامه وظلت عائلة صفى الدين فى خطر دائم ، يوماً تصعد إلى الأوج ويوماً تنحط إلى الحضيض ، حتى قام السلطان إسماعيل ابن السلطان على ، وملك البلاد . وهو فى اعتبار المؤرخين أول ملوك الدولة الصفوية ، ولا يعرف عن شاه إسماعيل فى أيام صغره غير القليل ، إلا أنه استلم قيادة الأعوان فى الرابعة عشرة من عمره فحارب عدو عائلته حاكم شيروان وقتله ، ثم هجم عليه الأتراك والتركمان من ناحية الأناضول ففرق شملهم وانتصر على كل أعدائه ، فنودى به سلطاناً على مملكة إيران وما يتبعها وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وكان إسماعيل صوفياً مثل أفراد عائلته وليس له أعداء وأعوانه كثار . فرأى بعد الإمعان أن يدخل مذهب الشيعة الاثنى عشر الجعفرية إلى إيران ويجعلها مذهب السلطنة ، ففعل ذلك وفاز بمراده ولم يلق معارضة تذكر ؛ لأن الإيرانيين عدوا هذا الانفصال استقلالا لهم وفضلوا مذهب القائلين بتكريم الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ومن ذلك اليوم صارت بلاد إيران مقر الشيعة بين المسلمين ، وعصت خراسان وبلخ وغيرها من الولايات أمر السلطان إسماعيل فى بدء حكمه على عادتها فحاربها

كلها وانتصر عليها وامتد نفوذ هذا السلطان امتداداً عظيما حتى رزق عدوا كبيراً لم يقدر عليه هو السلطان سليم العثمانى الشهير ، قصد بلاد إيران بخيله ورجله البالغ عددها مائة وخمسين ألفا ومائتى مدفع ، وذلك بغتة دون مخابرات دولية لدى الحكومات ، وقام إسماعيل لمحاربته بكل ما لديه من القوة وهو يومئذ بهمدان يطلب الصيد والقنص ودافع عن بلاده فى جلدران بخمسة عشر ألف نفس بأذر بيجان ، فتقهقر أمامه وكسر شر كسرة مع أنه أظهر فى الحرب بسالة غريبة ، وكان الأتراك يحاربون بالمدافع والإيرانيون بالسلاح القديم . غير أن انتصار الأتراك لم يؤثر فى إيران لأنهم اضطروا إلى الرجوع فى الشتاء لشدة البرد وقلة الزاد . ولكن إسماعيل ظل حزيناً من بعد تلك الكسرة إلى آخر أيامه ، ويروى أنه لم يضحك من بعد ذلك اليوم ولم يترك لبس السواد أيضاً . ولما مات السلطان سليم تقدم إسماعيل على بلاد الأتراك للأخذ بالثأر فأخضع بلاد الجركس وهى يومئذ تابعة للأتراك ، وعاد عنها فعرج على أردبيل ليزور قبور أجداده فقضى نحبه هناك ودفن فيها مأسوفاً عليه . . »

* * *

ترى هل نرى فى تاريخ هذه الشعبة من أردبيل ما يأبى أن تلحق به تتمة تلائمه من تاريخ الشعبة الكواكبية ؟ إن تاريخ الأسلاف ليسبق فى الزمن كالمقدمة التى تنتظر البقية من أعمال الخلفاء والأبناء ، وما أحرى عبد الرحمن أن يكون البقية المنظورة لمقدمة صدر الدين ! وما أحرى الأسرتين أن يتسلل فيهما نبع واحد من النجدة والورع والهمة والصلابة والسماحة تشابه فيمن عرفناه منهما حتى الآن على تنوع المواضع والميادين !

شيء واحد يستوقف المؤرخ من اختلاف الشعبة الصفوية والشعبة الكواكبية ، ولكنه اختلاف متوقع ينفى كل ما فيه من الغرابة بانتظار وقوعه على الوجه الذى صار إليه .

فالشعبة الصفوية أخذت بمذهب الشيعة الإمامية حين قام منها الأئمة على عرش إيران ، والشعبة الكواكبية تدين بمذهب أبى حنيفة من أئمة السنة لأنه

المذهب الذى غلب على المدينة حيث درجوا وتعلموا وأنجبوا الأبناء المتعلمين والأساتذة المعلمين ، وربما كان من أتباع صدر الدين أحناف كثيرون كما يعلم من كثرة مريديه من الترك المنتقلين إلى إيران فى أسر السلطان تيمور .

وقد كان اتباع الكواكبي للمذهب الحنفى لا يمنعه أن يدعو إلى وحدة المذاهب وإقامة الإمامة على غير قواعد الخلافة فى الدولة العثمانية . فربما كان هذا التصرف بين الشعبتين على المنهج المنتظر من كليهما قرابة باطنية تمحو ما يتراءى للنظر من ظواهر الاختلاف .

النّشأة

الطفل أبو الرجل .

صدق من قالها بما عناه من لفظها ومعناها ، فان الرجل الكبير يتولد من الطفل الصغير فهو وليده وسليله على هذا التعبير .

وقد كان عبدالرحمن الصغير أباً مبكراً للرحالة المجاهد المفكر الحكيم صاحب « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » ورائد النهضة العربية فى طليعة الرواد .

من أقسى مايصاب به الطفل فى نشأته أن يفقد الأم ويغترب عن الأب وعن الجيرة التى فتح عليها عينيه من دنياه .

وقد أصيب الطفل عبد الرحمن بهذه المحن جميعاً ، فصلب لها عوده اللدن وهو دون العاشرة ، ونمت على معدن الجهاد فى طبيعته قبل أوان الجهاد فى عنفوان شبابه ، فمن هذا الطفل الدارج من المهد نشأ ذلك الكهل الذى أقدم على مخاطر الهجرة والرحلة الطويلة على غير أمل فى العودة إلى الوطن وعلى غير أمان من الغيلة والضنك والمشقة ، وهو رب أسرة وأبو أبناء وفرع أرومة تأصلت فى منبتها — الذى قطع نفسه عنه — منذ مئات السنين .

تقول الأوراق الرسمية إن صاحب الترجمة ولد حوالى سنة ١٨٤٨ (١٢٦٥ هجرية) ويقول ابنه الدكتور أسعد إنه ولد بعد ذلك بسنوات ، وطلب تصحيح تاريخ المولد لدخول الانتخابات ، وإنما كان مولده الثابت من سجلات الأسرة فى سنة ١٨٥٤ (١٢٧١ هجرية) ، وتوفيت والدته سنة (١٢٧٦ هجرية)

وهو فى نحو السادسة من عمره ، أو هو قد ناهز العاشرة إذا أخذنا بالرواية الرسمية .

والمرجح أنه كان أصغر من سنه فى الأوراق الرسمية عند وفاة والدته ، فان أباه قد أودعه حضانة خالته السيدة صفية بأنطاكية فأقام بها إلى سنة ١٢٨٢ هجرية ثم عاد إلى حلب لدخول المدرسة الكواكبية ، ولو كان قد بلغ العاشرة عند وفاة أمه لاستغنى عن الحضانة فى هذه السن وصلح لدخول المدرسة الكواكبية بغير تأجيل . ولو صح تاريخ الأوراق الرسمية لكان فى نحو السابعة عشرة حين عاد من أنطاكية لدخول المدرسة ، وهى سن متأخرة لمن يبتدىء الدراسة فى مثل أسرته .

وقد تعلم الكواكبى فى مكتب أنطاكية ومدرسة حلب كل ما يتلقاه التلميذ فيهما من العلوم المدرسية ، وتعلم اللغتين التركية والفارسية ومبادىء الرياضيات على الأساتذة الخصوصيين من أصدقاء أبيه ، وتلقى من أبيه صفوة العلوم الدينية والأدبية التى كان يتقنها ، وهو كما تقدم من معلمى الجامع الأموى وأصحاب المناصب الشرعية .

قال صاحب المنار : « إن الفقيد درس قوانين الدولة درساً دقيقاً وكان محيطا بها يكاد يكون حافظا لها ، وله انتقاد عليها يدل على دقة نظره فى علم الحقوق والشرائع ، ولهذا عينته الحكومة فى لجنة امتحان المحامين ، ولا أعلم أنه برز فى فن أو علم مخصوص فاق فيه الأقران ، ولكنه تلقى ما تلقاه من كل فن بفهم وعقل بحيث إذا أراد الاشتغال عملا أو تأليفاً أو تعليما يتسنى له أن ينفع نفعا لا ينتظر من الذين صرفوا فيه أعمارهم . . . على أن الفقيد لم يتعلم شيئاً من علوم النفس والأخلاق والسياسة وطبائع الملل والفلسفة فى مدرسة ، وإنما عمدته فى هذه العلوم ما طالعه منها من المؤلفات والجرائد التركية والعربية » .

ولا يخفى أن طالب العلوم السلفية لا يحتاج فى عصر الكواكبى أو فى العصر الحاضر إلى غير اللغة العربية للتوسع فيها غاية ما ينشده من توسع المتخصصين أو المستطلعين . أما المعارف العصرية فقد يستهين الناشىء العصرى بما كان يتيسر منها للقارى الذى يجهل اللغات الأوربية قبل مائة سنة ، ولكنه فى الحقيقة

محصول وافر لايستهان به فى زمانه، إذ كان فى وسع العارف بالعربية أو التركية أن يطالع مئات من الكتب المترجمة عن اللغات الأوربية فى العلوم والآداب ، وأن يطالع معها المجلات والصحف التى تكتب فى هذه العلوم والآداب أوتنقلها عن ثقاتها وأعلامها ، وقد تحدث الزهاوى عن نفسه فقال إنه لم يتزود من المعرفة العصرية بزاد غير مطالعاته فى المجلات العربية والتركية وبعض الكتب المترجمة التى وصلت إلى يديه فى بغداد، وبهذا الزاد — ولا زيادة عليه — أصبح فى مقدمة الباحثين المعدودين إلى أوائل القرن العشرين، فضلا عن مكانته الشعرية وعمله فى مجالس النواب .

ولا نخال أن الكواكبى فاته مرجع هام يعنيه أن يطلع عليه فى موضوعات بحثه وتفكيره ، بل لا نخال أنه ضيع فرصة يستفيد منها علما أو خبرا نافعا من زوار حلب الذين يجتمعون بمثله فى مركزه ووجاهته بين قومه ، وكانت حلب لا تزال فى عهد نشأته مثابة الزائرين والمقيمين من فضلاء الشرق والغرب ، وبينهم وكلاء الشركات التى كانت تتأسس فى المدينة على طريق التجارة الهندية الشرقية قبل افتتاح قناة السويس ، وبينهم فئة من الإيطاليين فى إبان ثورتهم القومية ، وفئة من الفرنسيين فى إبان ثورتهم الدستورية ، وكثير منهم مثقفون ينتمون إلى حزب من الأحزاب الثورية فى بلادهم وينقلون معهم آراء فلاسفتهم وزعمائهم وأبناء طوائفهم وجماعاتهم ، ومن هؤلاء ولا شك عرف الكواكبى ما عرف عن « ألفيرى » صاحب كتاب الاستبداد الذى أشار إليه فى كتابه ، ولا يبعد أن يكون قد انتظم معه فى محفل من محافل « الكربونارى » التى ألفها ثوار إيطاليا لمنافسة الماسون الإنجليز أو الفرنسيين وجعلوا يرحبون فيها بفضلاء الأمم الأخرى لنشر مبادئهم وتأييد دعوتهم إلى الحرية ، وهى قريبة يومئذ من دعوة الثائر العربى إلى الوحدة القومية والاستقلال عن السيادة التركية .

والظاهر من سيرة الكواكبى ومن كتابته معاً أنه أصاب من الثقافة القديمة والحديثة مايرشحه لأعماله فى المدينة ولرسالته فى العالم العربى والعالم الإسلامى على عمومه، فلم يوكل إليه عمل من أعمال الحكومة أو المطالب الاجتماعية إلا أثبت فيها كفاية الإدارة الحسنة والنشاط المنجز والتصرف المبتكر الذى يخرج به على

الأثر من جمود الوتيرة المشهور فى عرف الغربيين بالروتين، ويمضى به إلى نتيجته المقصودة التى عطلها التقليد وطول الإهمال .

عمل وهو يناهز الثانية والعشرين فى صحيفة « فرات » العربية التركية التى أنشأها المؤرخ التركى الكبير أحمد جودت باشاقبل عمل الكواكبى فيها بنحو عشر سنوات ، ثم أنشأ فى حلب أول صحيفة عربية باسم « الشهباء » مع زميله هاشم العطار ، ثم أنشأ صحيفة « الاعتدال » بعد تعطيل الشهباء لصراحتها فى نقد الإدارة وتلميحها إلى وساوس السلطان عبد الحميد ، فأصابها ما أصاب الشهباء بعد قليل .

وييئس الكواكبى من أداء رسالة الإصلاح بالكتابة المحجور عليها فى الصحافة المهددة بالتعطيل . فقبل العمل فى وظائف الحكومة وتولى فى هذه الوظائف ضروبا منوعة من أعمال الإدراة والقضاء والتعليم ، ومنها وظائف لها اتصال بالتجارة كادراة حصر الدخان ولجنة البيع والفراغ التى تستبدل أرض الحكومة ، ورئاسة غرفة التجارة ، وغيرها من الوظائف التى ندع إحصاءها ونكتفى فى هذا المقام بدلالتها جميعاً على كفاية الرجل لكل عمل تولاه ، وعلى تلك القدرة الملهمة التى أعانته على إحياء كل وظيفة عهدت إليه من موات الوتيرة أو « الروتين » ونجاحه فى تنظيفها وتطهيرها بعد نفض الغبار عنها ، واستصلاحها للإنتاج والتعمير .

فمن مبتكراته فى المجلس البلدى أنه جعل للسابلة طرقا غير طريق الإبل والدواب ، وأقام فى ضواحى المدينة سلاسل من الحديد للفصل بين معالم الطرق وتيسير السير للمشاة .

ومنها أنه زاد أجور العمال سداً لذرائع الرشوة والاختلاس ، وأنه رتب أوقات العمل وموضوعاته وخصص الأماكن لكل منها منعا للزحام والانتظار ، وأنه تتبع المهربين للدخان وأجرى عليهم الرواتب والوظائف التى تغنيهم عن التهريب ، وأنه ضبط أعمال الغرفة التجارية بالإحصاءات ونظمها على مثال الغرف التجارية فى عواصم الحضارة .

ومن مشروعاته إعداد العدة لإنارة المدينة وضواحيها بالكهرباء، وبناء مرفأ للسويدية وجلب الماء إلى حلب من نهر الساجور ، وتجفيف المستنقعات التى كانت فيما مضى منبعاً للأوبئة والحميات الدورية .

وقد أقام فى حلب معظم أيامه لم يفارقها قبل سفره منها إلى القاهرة غير مرات قليلة فى رحلات قصيرة ، إحداها أبعد فيها الرحلة إلى الآستانة حيث علم أبو الهدى بمقدمه فنقله إلى داره وحاول اجتذابه إلى حظيرته واستبقاءه تحت نظره ، فماطله الكواكبى بالوعد حتى تمكن من العودة إلى بلده بغير اختياره .

وفى خلال هذه الأعمال والوظائف جرت عليه نزاهته — وصراحته — عداوة أعداء العمل النزيه والقول الصريح ، فابتلى فى ماله ورزقه ، وتمحل الولاة المعاذير الواهية لمصادرة أرضه وإتلاف مرافقه ، وأقاموه بمرصد للتهم والوشايات كلما نشبت فتنة أو وقعت جريمة لصقت به الفرية العاجلة وصنعت الجاسوسية صنيعها فى تلفيق الأسانيد وتلقين الشهود وتدبير المحاكمات، وينقضى الوقت فى شغل شاغل من هذه التهم ومن جهوده وجهود أنصاره فى دفع شرها ورد كيدها ، ومنها مايبلغ به الخطر مبلغ الاتهام بالخيانة وعقوبة الإعدام . . .

يلقى حجر على القنصل الإيطالى فيتهم الكواكبى لأن القنصل أصيب فى جوار داره ، ويطلق الرصاص على الوالى فيتهم الكواكبى لأن الكواكبى اشتكاه وألحى عليه ، ويشتجر جماعة من أبناء الجاليات فيتهم الكواكبى لأنه حسن العلاقة محبوب بين أبناء هذه الجاليات .

ومن نبل هذا الرجل الكريم أن الوالى الذى اتهمه بتدبير الجريمة لاغتياله — جميل باشا — وقع فى خصومة عنيفة بينه وبين القنصل الإنجليزى فى المدينة ، فلجأ القنصل إلى نفوذ دولته فى العاصمة، وبادرت العاصمة إلى التحقيق على غير عادتها ، فقدم مندوب الوزارة المحقق إلى حلب وهو يعلم بنزاهة الكواكبى وصدقه ويعلم أنه مطلع على الحقيقة من شهادته وتوجيهاته ، فأبت مروءة الرجل أن يؤيد وكيلا لدولة أجنبية تغنم التأييد فى البلدة من وراء فوزه فى هذه الخصومة وانتصاره على أكبر ولاتها ، وشرح الموقف لمندوب التحقيق من هذه الوجهة، فسلم الوالى من عاقبة هذه الأزمة ، ولم يسلم الكواكبى من أذاه .

وأخطر ما اتهموه به أنه يتواطأ مع دولة أجنبية لتسليم البلاد إليها ، وهى جريمة عقوبتها الموت إذا ثبتت ، وتثبت بالشبهة القوية عند ساسة العصر إذا تعذرت الأسانيد القاطعة ، وأوشكت قرائن التزييف والتهديد أن تطبق على المتهم البرىء لولا أنه نجح فى نقل المحاكمة من قضاء حلب إلى قضاء بيروت ، فكان ابتعاد المحاكمة عن مقر التزييف والتهديد سبيلا إلى جلاء الشبهة وثبوت البراءة ، بعد أن ضاع الرجاء فيها أو كاد .

إن سيرة هذا البرىء المظلوم مادة دراسة للمظالم والأباطيل ، وإن أعداءه فى بلده أعوان همته وعزمه ، فلولاهم لجاز أن يسكن إلى مقام يستطاع ويحتمل ، ولكنهم أحسنوا غير عامدين ولا مشكورين فجاوزوا به حد الاحتمال .

ثقافة الكواكبي

كان الكواكبي « ابن عصره »

وجهد الإنسان من الثقافة أن يعيش فى عصره لا يتخلف عن شأوه فى علمه ولا فى عمله ، فليس للثقافة من حسنة ألزم لها من هذه الحسنة فى مجال المعيشة ولا فى مجال الدعوة إلى التجديد والإصلاح .

فالرجعى الجامد يعيش فى الأيام الماضية .

والطوبى الحالم يعيش فى الأيام المقبلة .

ولكن الرجل المثقف يؤدى للثقافة كل حقها إذا استفاد من معارف زمنه ولم يتقيد ببقايا الزمن السابق وعقابيله ، فعمل كما ينبغى أن يعمل كل من تحرر من قيود التقليد التى يرتبط بها المقلد وهو لا يفقه معناها .

والذين أصابوا من ثقافة القرن التاسع عشر كما أصاب الكواكبي كثيرون يعدون بالمئات ، ولكن الذين لهم من ثقافتهم فضل كفضله آحاد يعدون على أصابع اليدين .

إن فضل المثقفين فى عصر الكواكبي أنهم تعلموا كما فرضت عليهم البيئة أن يتعلموا ، وسيقوا إلى العلم مع الزمن كله ، غير مخيرين .

أما فضل الكواكبي فى ثقافته فهو أكبر من فضل واحد :

إنه فضل المثقف الذى تلقى ثقافته من ثمرة اجتهاده ومشيئته .

وإنه فضل المثقف الذى بلغ بوسيلته ما لم يبلغه أنداده بأضعاف تلك الوسيلة.

وإنه فضل المثقف الذى انتفع بثقافته ونفع بها قومه ، وجعلها عملا منتجاً ، ولم يتركها كما تلقاها أفكاراً وكلمات .

تلقى الكواكبى فى المكاتب والمدارس ما يتلقاه الأطفال الصغار ، فكل ما يتعلمه الفتى الناشىء أو الرجل الناضج هو كل مما تلقاه فى بيته واستفاده من مطالعاته .

وتعلم من اللغات ــ غير العربية ــ لغتين شرقيتين هما التركية والفارسية ، وكلتاهما تأخذ الثقافة العصرية منقولة من اللغات الأوربية ، متفرقة بين أشتات من الكتب والصحائف ، فبلغ بهذه الوسيلة فى مطلبه الذى عناه ، شأواً لم يسبقه فيه رواد الثقافة من مناهلها فى لغاتها ، وبين أيدى الأساتذة والمعلمين من أهلها .

وعرف ماعرفه بهذه الوسيلة فعمل به كل مافى الوسع أن يعمل فى زمنه ، وأبقى أساسه من بعده صالحاً للبناء عليه .

وذلك فضل النبوغ وفضل الزعامة ، لا يستوعبه أن يقال إنه عمل رجل من المثقفين ، حتى يقال بل رجل من المثقفين النابغين العاملين .

ولا يطلب من المثقف العامل أن يحيط بمعارف عصره ويتقصى كل جديد من بدائع جيله ، فليس ذلك بميسور ولا هو بلازم للمثقف العامل ، وإنما يغنيه أن يعرف ما يعنيه فى عمله ، وأن يعمله على النحو الذى جددته معارف الزمن ولم يكن ميسوراً لمن يتركون القديم على قدمه .

وكان الكواكبى يعمل فى إصلاح المجتمع الإسلامى وإصلاح الحكومة المستبدة ، فلم يدع باباً من أبواب المعرفة التى تعينه على قصده لم يأخذ منه ما يكفيه ويغنيه ، ولم يزهد فى أصل من أصول هذه المعرفة إلا ما كان من قبيل الفضول فى تحقيق غاياته القريبة وجهوده المرجوة .

فليس من زاد هذه الدعوة أن يملأ ذهنه أو يملأ صحائفه بالمطولات أو الموسوعات فى شروح التواريخ وتفاصيل المذاهب الاجتماعية ودساتير الحكومات والدول بين قديم منها وحديث .

وليس من زادها أن يسبح فى عيلم من فتاوى الفقهاء وفروض المفسرين وعشاق التأويل والتخريج .

بل يكفيه من الزاد — ويربى على الكفاية — أن يعلم من أحكام دينه ما يميز به الصحيح وغير الصحيح ويهتدى به إلى القويم من الرأى والاعتقاد وغير القويم . ويكفيه أن يعلم من أحوال عصره علاقات الدول والأوطان ، ومجمل الوقائع الثابتة من دعوات الحرية والإصلاح ، وذلك هو الزاد الذى يعلم المطلعون على كتابيه أنه كان موفوراً لديه .

فمن صفحات « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » نعلم أنه كان على اطلاع حسن فى مسائل الدين ، وكان على دراية محققة بتواريخ الأمم الإسلامية ، وكان من الملمين أولا فأولا بالفتوح العلمية فى العصر الحديث يفهم منها ما لم يكن يفهمه غير القليلين فى أوربة نفسها يومئذ من آراء الرواد السابقين فيها . فكان ملما بمذهب النشوء والارتقاء ، ملما بآراء العلماء فى أطوار المادة وحركات الأفلاك وتكوين الكرة الأرضية والمنظومة الشمسية ، وكان فى شئون الاجتماع والسياسة يلم بأخبار الثورة الفرنسية وأخبار الزعماء والعاملين على استقلال الشعوب وتوحيد الأقوام ، ويتتبع قواعد الحكم ومواضع التفرقة بينها ، وينظر فى الأخلاق والعادات التى تقترن بالفوارق بين أمة منها وأمة وبين حكومة منها وحكومة ، ويخص الشئون العملية بعنايته الأولى غير معرض عن جوانبها الأدبية ، فلا يخفى عليه اسم الشاعر الذى أبدع الأناشيد أو الخطيب الذى أثار النخوة ، ولكنه يقنع من ذلك بالحظ الذى سلك عنده « شيلر » فى سلك حسان والكميت ، فلا نظنه كلف نفسه الاطلاع على أناشيد المنشدين وخطب الخطباء ، بل لا نظنه كان يعثر بها فى لغة من اللغات التى يحسنها لو أنه سأل عنها ، ولكنه لم يعلم بالأسماء إلا لعلمه بالدعوات التى أبرزتها فى صفحات رواتها ومؤرخيها .

* * *

ولا اختلاف فى مذهب الثقافة الدينية ، على اعتقاد الكواكبى ، بين التجديد والمحافظة على تراث السلف الصالح فى صدر الإسلام . لأن نهضة المسلمين إنما

تقوم على تطهير الديانة الإسلامية من نفايات الخرافة ، وحواشى البدع التى لصقت بها فى عصور الجمود والتقليد ، فالمحافظة فى اعتقاده مرادفة للتجديد على أقوم سبله ، واعتبار الكواكبى من صميم المحافظين فى الدين لا يخرجه من زمرة المجددين المتشددين فى طلب الإصلاح ، بل هو على قدر غلوه فى المحافظة على تراث السلف يغلو فى دعوة الأجيال المقبلة إلى التحرر والتجديد .

وقد كان يشتد فى المحافظة أحيانا فيتحرج من تغيير العادات فى غير حرج ، كما نرى فى انتقاده الذى أنحى به على السلطان محمود لأنه « اقتبس عن الإفرنج كسوتهم وألزم رجال دولته وحاشيته بلبسها حتى عمت أو كادت ، ولم يشأ الأتراك أن يغيروا منها الأكمام رعاية للدين لأنها مانعة من الوضوء أو معسرة له » .

وإن هذا الانتقاد لإفراط فى المحافظة يلحقه بزمرة المحافظين الغلاة فى حرصهم على سمت السلف وزيه الذى لا مساس له بجوهر العقيدة ، وقد رأينا من معاصريه أنه ربما نزع إليه إفراطاً منه فى السخط على سلاطين الدولة وأساليبهم فى التقريب بين الشرق والغرب والقديم والحديث ، ولكنه — كما نرى من محافظته على زيه فى وطنه وبعد الهجرة منه إلى الهند والديار المصرية — لم يكن يعمل غير ما يقول ، ولم يكن ينقد بكلامه ما يترخص فيه بمسلكه . فانه بقى على سنة أسلافه قبل عهد السلطان محمود ، فلم يبدل زيه إلا ليلبس العباءة والعقال .

وربما جنح فى أواخر أيامه إلى آراء بعض المتصوفة فى تفسير الكائنات الغيبية بالمعانى النفسية والرموز الروحية ، وأبعد ما ذهب إليه من ذلك قوله فى فصل التربية من طبائع الاستبداد : « إن يشأ الكمال يبلغ فيه إلى ما فوق مرتبة الملائكة إن كان هناك ملائكة غير خواطر الخير ، وإن شاء تلبس بالرذائل حتى يكون أحط من الشياطين ، إن كان هناك شياطين غير وساوس النفس بالشر .. »

ورد هذا فى الطبعة التى ظهرت بعد وفاته ولم يرد فى طبعة من الطبعات التى أصدرها فى حياته ، ولعله مر بهذا الخاطر بعد اطلاعه على التفسيرات الحديثة على أطراف من كلام الصوفية المتأخرين ، ولا نخاله قد غفل فى مطالعاته الدينية عن تفسير كتفسير السيد محمد الآلوسى المتوفى سنة ١٢٧٠ هجرية ، فانه يشير

إلى أمثال هذه الخواطر كما فعل بعد تفسير الآية عن زلل آدم وحواء إذ أكلا من الشجرة فقال : « وبينما هما يتفرجان فى الجنة إذ راعهما طاووس تجلى لهما على سور الجنة فدنت حواء منه ، وتبعها آدم فوسوس لهما من وراء الجدار .. ومشهور حكاية الحية .. يشير أولها عند ساداتنا الصوفية إلى توسله من قبل الشهوة خارج الجنة ، وثانيهما إلى توسله بالغضب . وتسور جدار الجنة عندهم إشارة إلى أن الغضب أقرب إلى الأفق الروحانى والحيز القلبى من الشهوة . وقيل إن توسله إلى ماتوسل إليه إذ ذاك مثل توسله اليوم إلى إزلال من شاء الله تعالى وإضلاله ، ولا نعرف من ذلك إلا الهواجس والخواطر التى تفضى إلى ما تفضى، ولا جزم عند كثير فى دخول الشيطان فى القلب بل لا يعقلونه ، ولهذا قالوا : إن خبر (إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم) محمول على الكناية عن مزيد سلطانه عليهم وانقيادهم له ، وكأنى بك تختار هذا القول ، وقال أبو منصور : ليس لنا البحث عن كيفية ذلك ولا نقطع القول بلا دليل ... » .

وقد تقدم من كان يقول ــ كالجبائى وأبى بكر الرازى ــ إن أثر الشيطان فى دم الإنسان كأثر النفس فيه ، فليس للشيطان وجود جسدى فى داخل البنية الإنسانية ، وليس له من سلطان عليه غير مايتغلب به على هواه .

فان الكواكبى قد لاحت له هذه اللمحة العابرة فما عدا بها تلك الخواطر الصوفية ولا تلك الخواطر الطيبة التى أوردها مورد الاحتمال ، ولم يقطع بالقول ــ على حد عبارة السيد الآلوسى ــ بغير دليل .

* * *

ولا تزال سمة الثقافة العصرية أغلب السمات على هذا الفعل المستنير ، تجذبه المحافظة على سنة السلف أحيانا ، بل تجذبه كثيراً ، ولكنها لا تجذبه إلى جانبها إلا من جانب التجديد ، لأن التجديد عنده هو محو الفضول عن العقيدة الإسلامية والعودة بها إلى بساطة الحرية والاستقامة والاجتهاد فى الفهم المنزه عن قيود التقليد .

أسلوب الكواكبى

كانت أساليب الكتابة فى أواخر القرن الثامن عشر لا تتعدى أساليب الرسائل و « الخطابات » أو « الإفادات » بين عامة وخاصة .

وكانت الرسائل العامة — وهى رسائل الدواوين — مفرغة فى قوالبها التقليدية تتكرر على صورة واحدة فى مناسباتها فلا يستبيح الكاتب أن يتصرف فى ألفاظها ولا فى ترتيب عباراتها وصيغة استهلالها وختامها ، أو « ديباجتها وتقفيلتها » باصطلاحهم الذى حافظوا عليه نحو قرن كامل بعد هذه الفترة .

وجرى الاصطلاح على المفردات المتفرقة كما جرى على الجمل والعبارات فى تلك الرسائل الرسمية ، فأصبحت لغة الدواوين « لغة خاصة » بين الفصيحة والدارجة تتخللها الكلمات التركية أو الكلمات العربية بأوزانها التركية ، وتندر فيها ملاحظة قواعد الإعراب فضلا عن قواعد الصرف على أصولها العربية .

ولم تكن هناك « كتابة » بمعناها المفهوم فى أغراض الأدب والثقافة ، فلم يكن فى القرن الثامن عشر من يكتب ليعبر عن فكرة أدبية أو عن حالة نفسية ، أو ليصور للقارىء معنى مبتكراً من عنده أو معنى مفهوماً من معانى العلم والمعرفة ، وإنما الكاتب يومئذ من كان يستظهر أنماطاً من الصيغ يتداولها جميع الكتاب على صورة واحدة فى مناسباتها ، ولا يستطيعون إعادتها بمعناها على صورة أخرى غير التى حفظوها وتداولوها .

أما كتابة « التعبير » فقد تعطلت فى عصور الجمود والتقليد ولم يشعر أحد بالحاجة إليها للتأليف والتصنيف أو للافضاء بما عنده من الخواطر والآراء .

إذ لم يكن ثمة من يؤلف ويصنف : ولم تكن ثمة خواطر وآراء يتبادلها الكتاب والقراء ، بل لم يكن ثمة من يقرأ القديم ويرغب فى نسخه وحفظه ، وفى تعلمه وتعليمه ، لقلة العناية بالعلم فى غير أغراضه المتواترة التى يكتفون فيها بالحفظ والنقل والمحاكاة .

وظلت الكتابة للتعبير معطلة إلى أوائل القرن التاسع عشر الذى تنبهت فيه البلاد العربية لموقفها من أمم الحضارة ، فاحتاجت إلى التعلم منها كما احتاجت إلى إحياء علومها وآدابها التى بقيت لها بقية من الفخر بها والحنين إليها . فانبعثت الكتابة العربية الحديثة مع حركة الترجمة وحركة الطباعة . وولدت « أساليب الكتابة » فى مولدها الجديد يوم احتاج المترجم إلى فهم شىء مفصل مشروح بين يديه يؤديه من عنده بعبارة عربية تطابقه فى معناه ، ويوم شعر بالضرورة التى تلجئه إلى مراجعة كتب السلف ليتعلم منها أساليب الأداء ويستوعب منها محصوله من المفردات والتراكيب .

وبدأت الكتابة العربية — مع ابتداء حركة الترجمة والطباعة — ضعيفة متعثرة تشبه كتابة الدواوين وتلتفت إليها ، ثم نشطت من عقالها قليلا قليلا حتى استقامت على قدميها فى شىء من الاستقلال والثقة ، فانقضى جيل من المترجمين والكتاب أو جيلان قبل أن تظهر فى عالم الكتابة العربية أقلام يتميز بينها قلم من قلم ، وأسلوب من أسلوب ، ويتحدث القراء عن أسلوب هذا الكاتب وأسلوب ذاك .

وتنوعت الأساليب على حسب القراءات والمطالعات ، فالذين أكثروا من قراءة كتب الأدب أو قراءة كتب التفسير والأحاديث النبوية ظهرت فى أسلوبهم جزالة اللفظ وسلامة التركيب وقلت فيه أخطاء النحو والصرف ومآخذ اللغة على الإجمال ، والذين أكثروا من قراءة كتب التاريخ والدراسات الاجتماعية ومراجع الحقوق والأحكام ظهرت فى أسلوبهم سلاسة التعبير وسهولة الأداء ودقة المعنى على منهج أصحاب العلوم أو أصحاب الأحكام ، ولكنهم لم يسلموا من بعض الخطأ فى قواعد الإعراب والتصريف على ديدن أمثالهم ونظرائهم بين الكتاب الأقدمين .

وربما اتضح الفارق بين الأسلوبين بتسمية الأعلام من كتاب كل مدرسة متبعة فى ثقافتنا العربية ، فهما مدرستان : أدبية ينضوى إليها أمثال ابن المقفع والبديع والجرجانى وابن عبد ربه وابن زيدون ، وعلميه ينضوى إليها أمثال الغزالى وابن خلدون وابن جبير وابن بطوطة وسائر كتاب التواريخ والرحلات ومباحث الأخلاق والاجتماع .

* * *

والكواكبى قد بدأ حياته الصحفية بعد منتصف القرن التاسع عشر ، وأخذ يشدو فى فن الكتابة خلال تلك الفترة المتوسطة بين ابتداء حركة الترجمة والطباعة وانتشار المطبوعات من كتب السلف ، وما استتبعه من شيوع الفصاحة والاستقلال بالتعبير .

ولا أدل من أصالة طبعه من أسلوب كتابته ، فان أسلوبه ينم على مطالعاته ، ومطالعاته تنم على الوجهة التى اتجه إليها بفطرته واستعد لها بتربيته ، وهى وجهة العمل على محاربة الاستبداد وتدعيم مبادىء الحرية .

وكان الكواكبى كثير المطالعة فيما ينفعه فى هذا المطلب ويستحث خطاه إلى هذه الوجهة ، قليل المطالعة فيما عداه من كتب العلم الذى يسميه علم اللغة أو العلم الموكل بشئون المعاد بمعزل عن شئون الحياة ، وإلى هذا يشير فى كتابه « طبائع الاستبداد » حيث يقول : « إن المستبد لا يخشى علوم اللغة — تلك العلوم التى بعضها يقوم اللسان وأكثرها هراء وهذيان . نعم لا يخاف علم اللغة إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الألوية أو سحر بيان يحل عقد الجيوش » .

ثم يقول : « كذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد المختصة بما بين الإنسان وربه ؛ لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة ، وإنما يتلهى بها المتهوسون » . .

إلى أن يقول : « ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع والسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الأدبية ، ونحو ذلك من العلوم التى تكبر النفوس وتوسع العقول وتعرف الإنسان ما هى حقوقه .. »

ومن المؤلفين الذين ذكرهم فى مقدمة طبائع الاستبداد أولئك الذين ألفوا فى علم السياسة ممزوجا بالأخلاق كالرازى والطوسى والغزالى والعلائى ، وهى طريقة الفرس ، وممزوجاً بالأدب كالمعرى والمتنبى ، وهى طريقة العرب ، وممزوجاً بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة ، وهى طريقة المغاربة . »

* * *

ولا يرى من مطالعاته فى الشعر أنه كان يخف إلى قراءة شيء من المنظوم على غير ذلك المثال الذى كان يستشهد به فى بعض فصول « أم القرى » أو « طبائع الاستبداد » كقول المتنبى :

وإنما الناس بالملوك وما   تفلح عرب ملوكها عجم

أو قوله الذى استشهد به على صفة المستبد :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه   وصدق ما يعتاده من توهم

أو قوله فى وصف الجهلاء المسخرين :

بأرض ما اشتهيت رأيت فيها   فليس يفوتها إلا كرام

أو قول أبى العلاء :

إذا لم تقم بالعدل فينا حكومة   فنحن على تغييرها قدراء

ولم يذكر من شعر الجاهلية غير كلام لعمرو بن نفيل ينعى فيه على الجاهليين عبادتهم للأرباب الكذبة وإيمانهم بالخرافة :

أرباً واحداً أم ألف رب   أدين إذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعاً   كذلك يفعل الرجل الخبير

فهو قارىء تقوده فطرته إلى مطالعاته ، وكاتب تسرى إلى قلمه أساليب الموضوعات التى يطالعها ولا تصلح لأسلوب غيرها ، وبخاصة حين يجرى بها القلم فى الصحف السيارة حيث كتب الكواكبى مقالاته الأولى ومقالاته الأخيرة

التى اجتمع منها كتاب طبائع الاستبداد ، وما كتبه أثناء ذلك فى غير الصحف ــ كأم القرى ــ فانما هو فصول متتابعة تصلح للنشر فى الصحف الدورية على النحو الذى ظهرت به فى الكتاب .

وكان الكواكبى رحالة مطبوعا على السياحة فى الآفاق ولم يكن قصاراه أنه رحالة على صفحات الأوراق ، وقد طالع كتب المؤرخين والرحالين قبل أن يخرج من بلده للطواف فى الأرض والكتابة للتاريخ، وباشر الرحلة فى صفحات الكتب قبل أن يباشرها على متون الإبل والسفن فى الصحارى والبحار ، فمن قرأ ابن خلدون وابن جبير وابن بطوطة ثم قرأ مقالات الكواكبى خيل إليه أنهم قد بعثوا من مراقدهم فى رحلة من رحلات العصور يكتبون ويسجلون ما شهدوه وكابدوه لأبناء العصر الحديث .

وقد اتسم أسلوبه بسمة الأسلوب الذى تكتب به التواريخ والرحلات ، وسلست عبارته فى نسق مرسل واضح يقرر الواقع ويتبع المشاهدة ويتبسط فى وصف ما يراه بالفكر كما يتبسط فى وصف ما يراه بالعيان .

ولا يخفى أن هؤلاء الكتاب ــ كما قدمنا ــ قد تخصصوا لتسجيل المشاهدات الاجتماعية والتاريخية ولم يتخصصوا لمباحث اللغة والبيان ، فليس من الغريب أن تتسرب إلى أقلامهم أخطاء الألسنة فى زمانهم ، وأن يتردد فى عباراتهم بعض السهو الذى يتحرز منه اللغويون وكتاب الأدب ، فى مدرسة ابن المقفع والبديع والجاحظ وعبد الحميد . وشأن الكواكبى فى ذلك قريب من شأن ابن خلدون وابن جبير ، بل من شأن الغزالى وابن مسكويه وسائر أصحاب الأقلام التى لم تتفرغ للأدب واللغة وشغلتها دقة التعبير عن دقة الإعراب .

تقرأ له ــ مثلا ــ فى تعريف الاستبداد : « إن الناظر فى أحوال الأمم يرى أن الأمراء يعيشون متلاصقون متراكمون . . . أما العشائر والأمم الحرة . . . فيعيشون متفرقون » .

أو تقرأ مثل قوله : « الأزواج الحمقاء » . . « ولا يخرج قط » . . « وقوانين

لكافة الشئون » . . « وحياة النائم المزعوج بالأحلام (١)» . . « وعلى هذا النسق بوضع كتابا للمنهيات » . . « وإن هؤلاء الأئمة الأقدمين لايقدروا أن يطلعوا على مالا يقدر المتأخرون أن يطلعوا عليه » . . « ولا تتحقق فى الإنسان إلا فى فن واحد فقط يتولع فيـه فيتقنة »[٢] . . . إلى أشباه هذه المآخذ التى كانت تشيع فى صحافة عصره ولم يكد يسلم منها كتاب الأدب والبيان ، وقد يعتبر الكواكبى من أقل زملائه ونظرائه تعرضاً لهذه المآخذ والهنات .

* * *

ولا ننسى أن « الكواكبى » كان يتحرى فيما يكتب ويعمل شيئا واحداً لايتحول عنه بفكره ولا بقوله ، وهو محاربة الاستبداد .

ولا ننسى أن معيار القول النافع عنده أن يخشاه المستبد ولا يطمئن إليـه ، والمستبد لا يخشى علوم اللغة التى أكثرها هزل وهذيان ولكنه يخشى من الكلام حماسة الخطابة ، لأنها تعقد الألوية وتحل عقدة الجيوش كما قال .

ولهذا كان هذا الأسلوب الخطابى من الأساليب المحببة إلى الكواكبى فى كتابته ، وكان يخيل إليه أحيـاناً أنه يلقى بالقلم جانباً ليتكلم إلى القراء كلام الخطيب على المنبر لمن يصغون إليه بالأسماع ، أو يصغون إليه بالقلوب بدل الأسماع .

وكأننا نراه يهم بذلك وهو يختم كلامه على الاستبداد والترقى بهـذه الكلمات :

« على ذكر اللوم الإرشادى لاح لى أن أصور الرق والانحطاط فى النفس وكيف ينبغى للإنسان العاقل أن يعانى إيقاظ قومه وكيف يرشدهم إلى أنهم خلقوا لغير ماهم عليه من الصبر على الذل والسفالة ، فيذكرهم ويحرك قلوبهم ويناجيهم وينذرهم ، بنحو الخطابات الآتية » .

---

(١) طبائع الاستبداد .
(٢) أم القرى .

ثم يقول :

« ياقوم ! ينازعني والله الشعور هل موقفي هذا فى جمع حى فأحييه بالسلام ، أم أنا أخاطب أهل القبور فأحييهم بالرحمة .

« ياهؤلاء ! لستم بأحيـاء عاملين ولا أموات مستريحين . بل أنتم بين بين فى برزخ يسمى السبت ، ويصح تشبيهه بالنوم .

« يارباه . إنى أرى أشباح أناس يشبهون ذوى الحيـاة وهم فى الحقيقة موتى لايشعرون ، بل هم موتى لأنهم لا يشعرون .

« ياقوم ! هداكم الله . إلى متى هذا الشقاء المديد ، والنـاس فى نعيم مقيم ، وعز كريم . أفلا تنظرون ؟ » .

وفى مثل هذا المقام يلتفت بعد ذلك بصفحات ليخاطب الشرق والغرب بهذا الخطاب ، إذ ينادى الشرق أولا ؛ قائلا :

« رعاك الله ياشرق ! ماذا أصابك فأخل نظامك ؛ والدهر ذاك الدهر ، ما غير وضعك ولا بدل شرعه فيك » .

« رعاك الله ياشرق ! ماذا عراك وسكن منك الحراك . ألم تزل أرضك واسعة خصبة ومعادنك وافية غنية ، وحيوانك رابياً متناسلا ، وعمرانك قائماً متواصلا ، وبنوك — على ماربيتهم — أقرب للخير من الشر . . . أليس عندهم الحلم المسمى عند غيرهم ضعفاً فى القلب ، وعندهم الحيـاء المسمى بالجبانة ، وعندهم الكرم المسمى بالإتلاف ، وعندهم القنـاعة المسماة بالعجز ، وعندهم العفة المسماة بالبلاهة ، وعندهم المجاملة المسماة بالذل ؟ . . نعم ماهم بالسالمين من الظلم ولـكن فيما بينهم ، ولا من الخـداع ولـكن لا يفتخرون به ، ولا من الإضرار ولكن مع الخوف من الله » .

ثم يلتفت من خطاب الشرق إلى الغرب ليخاطبه على هـذا النحو قائلا :

« رعاك الله ياغرب وحياك وبياك . قد عرفت لأخيك سابق فضله عليك ، فوفيت وكفيت ، وأحسنت الوصاية وهديت ، وقد اشتد ساعد بعض أولاد

أخيك ، فهلا ينتدب بعض شيوخ أحرارك لإعانة أنجاب أخيك على هدم ذاك السور ، سور الشؤم والسرور ، ليخرجوا باخوانهم إلى أرض الحياة ، أرض الأنبياء الهداة .

« ياغرب ! لايحفظ الدين غير الشرق إن دامت حياته بحريته ، وفقد الدين يهددك بالخراب القريب . . »

ولم يكن أسلوب المنبر ليسعده فى جميع الأحوال لأنه أسلوب لم يخلق له ولم يطبع عليه ، ولكنه كان يكتب أحيانا ويحس أنه يثور ثورة الخطيب فيعمد تارة إلى أسلوب التوكيد والتثبيت ، ويعمد تارة أخرى إلى أسلوب التصوير وتحريض الخيال ، ولا يخطئه التوفيق أحياناً فى هذا الأسلوب .

ومن ذلك قوله : « المستبد عدو الحق ، عدو الحرية . . . والحق أبو البشر والحرية أمهم ، والعوام صبية أيتام ، نيام » .

أو قوله : « لو كان المستبد طيراً لكان خفاشاً يصطاد هوام العوام فى ظلام الجهل،ولو كان وحشاً لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضرفى ظلام الليل..»

أو قوله : « الاستبداد لو كان رجلا يحتسب وينتسب لقال : أنا الشر ، وأبى الظلم ، وأمى الإساءة ، وأخى الغدر ، وأختى المسكنة ، وعمى الضر ، وخالى الذل ، وابنى الفقر ، وبنتى البطالة ، وعشيرتى الجهالة ، ووطنى الخراب . أما دينى وشرفى وحياتى فالمال المال المال .. »

أو كقوله : « إنه المعترك الذى .. قل فى البشر من لا يجول فيه على فيل من الفكر ، أو على جمل من الجهل ، أو على فرس من الفراسة ، أو على حمار من الحمق ، حتى جاء الزمن الأخير فجال فيه إنسان الغرب جولة المغوار الممتطى فى التدقيق مراكب البخار » .

ومن توكيداته الخطابية ما يجرى فيه على مثل قوله : « الاستبداد أشد وطأة من الوباء . أعظم تخريباً من السيل . أذل للنفوس من السؤال . داء إذا نزل بالنفوس سمعت أرواحهم هاتف السماء ينادى القضاء القضاء ، والأرض تناجى ربها بكشف البلاء» .

ومنها ما يجرى فيه على التوكيد بالتكرار كقوله عن التعاون : « به قيام كل شيء ماعدا الله وحده . به قيام الأجرام السماوية . به قوام كل حياة . به قيام المواليد . به قيام الأجناس والأنواع . به قيام الأمم والقبائل . به قيام العائلات . به تعاون الأعضاء . نعم ؛ الاشتراك فيه سر تضاعف القوة بنسبة ناموس التربيع . فيه سر الاستمرار على الأعمال التى لا تفى بها أعمار الأفراد » .

ومنه ما يجرى فيه على التوكيد بمثل هذا التكرار : « يجدّدون النظر فى الدين نظر من لا يحفل بغير الحق الصريح . نظر من لا يضيع النتائج بتشويش المقدمات . نظر من يقصد إظهار الحقيقة لا إظهار الفصاحة . نظر من يريد وجه ربه لا استمالة الناس إليه » .

ونتأنى عند قوله إن المصلح ينبغى أن ينظر فى الأمور « نظر من يقصد إظهار الحقيقة لا إظهار الفصاحة ، ونظر من يريد وجه ربه لا استمالة الناس إليه » .. فانه قد أودع هذه الكلمة روح هذا الأسلوب الفصيح بمقصده البين وصمود صاحبه على هذا المقصد طوال حياته . بل أودعه فى الحق روح كل أسلوب يؤدى للقارىء من وراء الجمل والمفردات فوق ما تؤديه ألفاظه ومعانيه ، فان إخوان الكواكبى الذين عاشروه وألفوا الاستماع إليه وقراءته معاً يقولون إنهم كانوا يؤمنون بشىء واحد من حديث لسانه كما يؤمنون به من حديث قلمه كانوا يؤمنون قبل كل شىء بايمان المتكلم بفكرته وشعوره ببداهة دعوته وصدق رغبته فى إقناع غيره بما هو مقتنع بضرورته لعامة قومه ، وأسلوبه فى الحديث وأسلوبه فى الكتابة متقاربان متعادلان لا يقع بينهما من الاختلاف إلا أن يكون اختلاف القائل المترسل بين الناس والقائل المحتفل على هينة بينه وبين نفسه ، وعلى هذا الوجه يصح أن يعتبر أسلوب الكواكبى نمطاً من أنماط الحديث الخطابى او الخطابة المكتوبة ، على الطريقة التى تتسنى للمتحدث المطبوع وإن لم يكن فى المحافل من الخطباء المطبوعين .

ولا شك أن الكواكبى قد تناول كل وسيلة من وسائل التعبير لإبلاغ دعوته « إظهاراً للحقيقة لا إظهاراً للفصاحة » . فانه قد عالج نظم الشعر وأثبت فى أم

القرى بعض منظوماته فى شبابه ، فافتتح الكتاب باحدى القصائد يقول منها :

دراك فان الدين قد زال عزه ... وكان عزيزاً قبل ذا غيرهين
فكان له أهل يوفون حقه ... بهدى وتلقين وحسن تلقن
هلموا إلى بذل التعاون إنه ... باهماله إثم على كل مؤمن
هلموا إلى « أم القرى » وتعاونوا ... ولا تقنطوا من روح رب مهيمن
فان الذى شادته الاسياف قبلكم ... هو اليوم لايحتاج إلا لألسن

واختتم الكتاب بقصيدة أخرى يقول منها :

غيرتمو يا حيارى ما بأنفسكم ... فغير الله عنكم سابغ النعم
الله لا يهلك القرى إذا كفرت ... وأهلها مصلحون فى شئونهم
يا قومنا صححوا توحيد بارئكم ... بدون إشراك أحياء ولا رمم
ونقحوا الشرع من حشو ومخترع ... رُجعى إلى دين أسلاف ذوى همم
هذى وسيلتكم لا غيرها أبداً ... فاسعوا لنهضتكم يا خيرة الأمم
سياسة الدين أولى ما تساس به ... شتى الخلائق من عرب ومن عجم
فيها الحياة وفيها حفظ رايتكم ... خضراء سوداء حول الركن والحرم

ولم نقرأ له نظما غير هاتين القصيدتين ، وهما – كما يرى القارىء – من الشعر الذى يوصف بأنه شعر العلماء ، لعله حاوله زمناً ولم يجد فيه بغيته من نشر الدعوة وتنبيه النفوس والأذهان ، فعدل عنه وارتضى لدعوته أوفق الأساليب لها وهو أسلوب المواجهة الخطابية على منبر الصحافة كما صنع فى كتابه طبائع الاستبداد؛ ومثله أسلوب الفصول التى يكتبها كأنها خطب ألقاها المتكلمون وتعاقبوا على إلقائها والحوار فيها كما يتعاقب المتفاوضون فى مؤتمر المحاضرة .

إن الكواكبى لقدير على أن يجد نفسه حيث يريدها – كما يقول الغربيون فى تعبيراتهم – فلم يبحث طويلا حتى وجده ، ولم يبحث طويلا بعد أن وجد دعوته حتى وجد أسلوبه ، وهو أسلوب الكاتب الذى يواجه القراء كما يواجه المستمعين .

المؤلف

توفر الكواكبي على قضيتين اثنتين لم يشتغل زمناً طويلا بقضية غيرهما ، وهما قضية البحث فى أسباب تأخر الأمم – ولاسيما أمم العالم الإسلامى ، وقضية البحث فى عوامل الاستبداد فى حكم الدول ، ولاسيما الدولة العثمانية .

وأودع زبدة آرائه عن قضية العالم الإسلامى فى كتابه « جمعية أم القرى » .

وأودع زبدة آرائه عن الحكم والاستبداد فى كتابه « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » .

فهو قد استوفى رسالة التأليف فى كلتا القضيتين اللتين تجرد لهما طوال حياته فلا بقية من هذه الرسالة إلا أن تكون بقية الشرح والتفصيل . . . أما لباب الرسالة وغايتها فقد استوفاها الكتابان .

ونعلم من أقوال مترجميه العارفين به أنه وضع كتاباً سماه « صحائف قريش » وكتاباً آخر سماه « العظمة لله » وترك ديواناً من الشعر لم تبق منه غير كناشة من القصائد فى الحكمة والنسيب وأغراض المدح والرثاء والهجاء تزيد أبياتها على ثلاثة آلاف .

أما « صحائف قريش » فهو تذييل لكتابه الأول (أم القرى) تضمن على مايظهر نخبة من فصول الصحيفة الدورية التى أشار فى الكتاب إلى اتفاق الجمعية على إصدارها ، وقد أوصى المؤلف قراءه أن ينتظروها ويحفظوها : « فمن يظفر بنسخة من هذا السجل فليحرص على إشاعته بين الموحدين ، وليحفظ نسخة منه ليضيف إليه ماسيتلوه من نشريات الجمعية باسم صحائف قريش التى سيكون لها شأن إن شاء الله فى النهضة الإسلامية العلمية والأخلاقية » .

ولم يطلع أحد من زملائه فى القاهرة على هذه « النشريات » ولا ورد

من أخباره فيها أنه طبع صحيفة منها حيث كان يطبع كتبه ورسائله ، ولكن ابنه الدكتور محمد أسعد يقول فى مجلة الحديث إن الكتاب كان معداً للطبع « ولكن حال دون ذلك سياحته الطويلة المذكورة فى غير هذا المكان ، ثم وقوع الوفاة الفجائية ، فصودر مع الأوراق المصادرة وأرسل هدية إلى السلطان فلم أعثر له على أثر » .

أما كتاب « العظمة لله » فهو كتاب سياسى « كسائر ما خطته يمينه » على قول الأستاذ محمد كرد على فى الجزء الثانى من مذكراته ، وهو يقول قبل ذلك فى هذه المذكرات : « الغالب أن السلطان اغتبط بموت الكواكبى وأراد القضاء على أفكاره المضرة فأرسل مدير معارف بيروت — عبد القادر القبانى — يأخذ أوراقه ويرضى أسرته بمبلغ من المال ، فما حمل إلا عدداً معيناً من كتب الكواكبى المطبوعة ، أما المخطوطة فأخذها أحد البالغين الراشدين من أولاده ، وفيها كانت أوراقه السرية وبعض كتبه التى بدأ وضعها ، ومنها ماقرأ لى مقدمته واسمه العظمة لله .. »

والذى نرجحه ونستدل من عنوان الكتاب عليه أنه إضافة إلى طبائع الاستبداد ينكر فيها على المستبدين تطاولهم إلى مشاركة الله فى عظمته وينكر فيها على الخانعين من رعاياهم خضوعهم لتلك الناظمة ، ولا نخاله قد ذهب فيها شوطاً بعيداً وراء المقدمة التى أطلع عليها صديقه كرد على ، لأنه لم يطلعه على شىء بعدها مع ملازمته إياه إلى يوم وفاته .

أما الديوان فمن أمثلته ما أشرنا إليه فى الكلام على أسلوبه وهو يعيد فيه — نظماً — بعض ما كتبه نثراً فى « أم القرى » ، وطريقته فيه طريقة العلماء فى منظوماتهم التى يخاطبون بها نظراءهم مخاطبة العارف للعارف ولا تراد لخطاب قراء الشعر عامة ، لأنها « مفهومات » لا تبلغ قراءها من جانب التخييل واستجاشة الشعور .

ويخطر لنا أنه فى مديحه وهجائه أراد أن يستعين بالنظم على استمالة أمراء الجزيرة العربية الذين زارهم فى رحلته إلى المشرق ، وأنه وقف هجاءه على الذين استحقوا نقده فى كتابيه ثم استحقوا فى صفتهم الشخصية نقداً غير نقد المبادىء والآراء .

وإن ضياع هذه الأوراق – بمنثورها ومنظومها – لخسارة تاريخية يأسف لها قراؤه ومترجموه ، ولكن الخسارة فيها قدر أهون من قدر كما يقال فى مقام السلوى لكل مصيبة لاحيلة لها . فانها من الخسائر التى تعوض على كراهتها ، وعوضها أن يسلم الكتابان اللذان أودعهما صفوة التجارب والدراسات من بواكير شبابه إلى ما قبل وفاته ، وبادر إلى نشرهما بعد تردد منه فى نسبتهما إليه ، وما كانا ليسلما من مصير كمصير تلك الأوراق المفقودة لو لم يبادر إلى طبعهما قبل أن ينقضى عليه عام فى القاهرة ، وقبل أن تشغله عنهما رحلاته التى لايملك فيها موعد ذهاب ولا موعد إياب .

الجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية

قبل أن ننتقل من الكلام على المؤلف إلى الكلام على مؤلفاته نبدأ القول ببيان الموقف الذى أوحى إليه اختيار موضوعه فى تلك المؤلفات ، بل أوحى إليه اختيار رسالة فى الحياة ، وهو موقفه بين قضية الاستقلال وقضية الجامعة الإسلامية ، وكيف اتفق له الإيمان بالإصلاح الدينى ، والإصلاح الوطنى فى وقت واحد .

لقد فتح عينيه على المسائل العامة فى إبان المشكلة الشرقية بين حوادث جبل لبنان وحوادث أرمينية ، وأوفى على الكهولة فى إبان حركة الجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية التى أبتعثها السلطان عبد الحميد الثانى .

وكلتا الحركتين — الجامعة والخلافة — كثيرة الشعب مترامية الأطراف ، يبلغ من تشعبهما ان يرى فيها الرأيان المتناقضان وكلاهما من وحى الإخلاص والغيرة على الوطن وعلى الدين .

فكان من دعاة الإصلاح من يرى أن الجامعة الإسلامية بزعامة الدولة الإسلامية الكبرى هى القوة التى بقيت لأمم الإسلام فى عصر الاضمحلال ، وقد أعوزتها قوة المال والعتاد وقوة العلم والصناعة وقوة السياسة والسيطرة الدولية ، فلا أقل من قوة التضامن والاتحاد .

وكان فى تلك الوجوه المتشعبة أن الجامعة الإسلامية بزعامة الدولة العثمانية تحمل هذه الدولة تبعات المشاكل والأزمات التى تتعرض لها شعوب الإسلام فى الشرق والغرب ، ويخشى عليها فى ضعفها واضطراب أحوالها أن تنوء بها فلا هى تنفع شعوب الإسلام بمجهودها ولا هى تنجو بنفسها من عواقب ذلك المجهود .

ومن وجوه هذه القضية المتشعبة أن الإطناب فى لقب الخلافة يضفى على صاحب ذلك اللقب قداسة تحميه من نقد الناقدين ومآخذ طلاب الإصلاح ،

وتؤخر أعمال الإصلاح التي يرجى منها الخير للدولة العثمانية ، وقد تؤخرها على سبيل القدوة فى سائر بلاد المسلمين .

ومن وجوهها المتشعبة أنها تحرج الشعوب التي تطالب بحقوقها فى ظل الحكم التركى ، فلا تدرى كيف تقدم أو تحجم بين رعاية حقوقها وبين العمل بما تقتضيه علاقتها بالخلافة وبالجامعة الإسلامية .

وليس من وجوهها الضعيفة أن إعلان الجامعة الإسلامية فى العالم يعزز نشاط الحزب المتعصب وأحزاب التبشير بين الغربيين ويقوى حجتهم فى مناهضة الأحزاب السياسية التي ترمى إلى فصل السياسة عن الدين ، بل يقوى حجة المستعمرين الذين يتلمسون الذرائع لغزو البلاد الشرقية ويتلقفون هذه الذريعة لترويج مطامعهم كلما أعوزتهم ذرائع السياسة .

هذه طائفة من تلك الوجوه المتشعبة التي يتجه لها أنصار الجامعة وخصومها ، ومصدر هذا التشعب أنها مسألة واحدة تجمع فى طيها ثلاث مسائل كبرى ، كل منها مزدحم مكظوظ بالخفايا والنقائض والعراقيل .

فهى فى الواقع مسألة الدولة العثمانية ومسألة الخلافة ومسألة الجامعة ، وكل منها مسائل شتى تتفرق فى كل وجهة ، ولا يجمع بينها غير العنوان .

فمسألة الدولة العثمانية هى مسألة البلقان الذى سمى بحق « مخزن البارود » وهى المسألة الأرمنية والمسألة الطورانية ، ومسألة الشعوب التي يحكمها الترك ولا تتكلم التركية ولا تنتمى إلى سلالتهم بين عناصر الأجناس .

ومسألة الخلافة هى مسألة الإمامة عند الشيعة وأهل السنة ، ومسألة الولاية الشرعية بحق الإرث والعصبية أو بحق الشوكة والسلطان القائم ، حيث قام من بلاد المسلمين .

ومسألة الجامعة تفتح أبواب الجامعة السياسية والجامعة الروحية وما إليها من جامعات التعاهد والاتفاق على شئون الثقافة والمعاملات .

ولا ينفتح القمقم المغلق حتى يخرج منه « الرصد » الهائل منتشرا من محبسه يضيق به الفضاء . وإنما اضطر « عبد » الحميد إلى فتح القمقم لأنه حيلة من لا حيلة له سواه .

كان يسمع بأذنيه - كما يسمع العالم كله - اسم دولته الدائلة عند أعدائه المتربصين بها فى القارة الأوربية بلا اختلاف بين قادر منهم وعاجز وبين مستعمر منهم ومبتدىء فى صناعة الاستعمار ، يتعلق بنصيب له يفرضه من ذلك الملك المباح .

كان اسم « التركة » أو تركة الرجل المريض عنوانا على البلاد العثمانية ، أيا كان ساكنوها من مسلمين أو غير مسلمين ، ومن ترك أو عرب ، ومن أوربيين أو أسيويين أو أفريقيين .

كانت « جامعة » فى الحق يجمعها الطمع من أشتات الطامعين ، وليس بينها من وحدة قط فى رأى أولئك الطامعين إلا أنها تماسك إلى حين ، فى طريق التفرق والزوال .

وكان لابد له من جامعة باقية لا يزيلها عمل إنسان ، ولكنها قد تنشط بعمل إنسان يؤيده الله . وتلك هى جامعة الإسلام بولاية خليفة المسلمين .

وليس عبد الحميد أول من تلقب بالخلافة من سلاطين آل عثمان ، ولكنه كان أول من وضعها هذا الوضع الحاسم فى معترك السياسة العالمية والسياسة الداخلية ، وأول من جعلها مسألة حياة أو موت فى تاريخ الدولة التركية .

أما قبل عصر عبد الحميد فقد كان للترك عامة موقف من مسألة الخلافة غير هذا الموقف ، سواء منهم الترك العثمانيون والترك السلجوقيون ، والشعوب التى غلب عليها اسم الترك فى الدولة الإسلامية وليست منهم ، كالديلم والشراكسة .

فقد تمكن رؤساء الترك من زمام الخلافة فى عهود كثيرة ولكنهم تهيبوها ولم يتقدموا لادعائها ولعلهم لم يجدوا السبيل إلى ادعاء حقوقها التى كانت مقصورة على الأمة العربية ، ينتهى بها أناس إلى أهل البيت النبوى ويتوسع أناس آخرون فيجعلونها عربية قرشية ، ومن الشعوب الإسلامية غير العربية من كان يحصرها بين أهل البيت فى أبناء على وفاطمة رضوان الله عليهما ، فلا يجيزها لبنى العباس ولا يعترف لهم بحقوقها إلا اجتنابا للفتنة ورعاية للضرورة والتقية .

وجرى العرف نحو ثلاثة قرون على وحدة الخلافة فى العالم الإسلامى ، فمن نازع فيها فانما ينازع فيها لأنه أحق بها على دعواه حسب الشروط التى يشترطها

فى مذهبه لصحة الإمامة ، فيذهب خليفة ويأتى بعده خليفة ولا تستقر الخلافة فى وقت واحد لاثنين بحجة واحدة . وقد حدث أن الأمويين أقاموا لهم دولة بالأندلس فلم يعلنوا خلافتهم على الأمم الإسلامية مع خلافة بنى العباس ببغداد ، ولم يخطر لعبد الرحمن الناصر أن يتلقب بلقب أمير المؤمنين (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) إلا بعد قيام الدولة الفاطمية على مقربة منه فى المغرب ومناداة أمرائها لأنفسهم بالخلافة ولم يعارضهم الأمويون يومئذ إلا بتكذيب نسبتهم إلى النبى عليه السلام ، بل تصدى لهم من أمراء الموحدين من ينتسب إلى البيت النبوى لينازعهم الحق فى إمارة المؤمنين .

وبعد قيام الدولة الفاطمية أصبح فى العالم الإسلامى ثلاثة خلفاء ، بين منتسب إلى النبى ومنتسب إلى قريش ، وكلهم فى نسبتهم العامة عرب قرشيون .

فلما كثر الجند من الترك فى عاصمة الخلافة العباسية ملك قادتهم زمام الدولة وبسطوا نفوذهم فى قصر الخلافة ، وصار كل من فى القصر تبعاً لهم مطيعاً لأمرهم ، بين حرارى ومماليك وجوار وخدم وعيون وأرصاد ، وانفرد الخليفة وحده بمقام الخلافة وليس له منها غير الاسم والخاتم وخطبة الجمعة فى المساجد ، وتهيأت للقادة من الترك فرصة المناداة لأنفسهم بالخلافة فى بغداد لولا أنهم علموا أنهم يقيمونها على غير أساس من الدعوى الشرعية ، وأنهم لا يطمئنون لى ولاء رعاياهم من الترك أنفسهم إذا اغتصبوها بغير حجة من الشرع والسنن المأثورة . فتسمى أولئك القادة باسم السلاطين وجعلوا يتقلدون مناصبهم فى الدولة بتفويض من الخليفة صاحب الحق الشرعى فى التنصيب والعزل والتفويض ، وكان بعضهم يستبيح ضرب السكة باسمه كما فعل طغرل بك السلجوقى وزير القائم بأمر الله العباسى ، لأنه تولى أمور المعاش و «الإدارة» بتفويض من صاحب الصفة الدينية ، وهى الأمور التى يتولاها صاحب الشوكة و « السلطان » .

ومما يدل على رسوخ الإيمان بشروط الخلافة بين أمم المشرق الإسلامية أن رؤساء الدول التى قامت فيه تجنبوا لقب الخليفة أو أمير المؤمنين واكتفوا بلقب السلطان أو الأمير أو النظام أو الشاه ، ولم يشذ عن هذه القاعدة ملوك إيران من الشيعة لأنهم يدينون بالإمامة لغير الملك صاحب العرش ، وإنما يكون الملك نائباً عن الإمام محمد المنتظر إلى موعد أوبته فى آخر الزمان .

وعلى هذا اتفق العرف فى المشرق على اجتناب لقب الخلافة بغير شروطها، وجرى العرف على ذلك فى مصر بعد زوال الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، فان ولاة الأمر من الأيوبيين - ومنهم صلاح الدين العظيم - كانوا يتلقبون بألقاب الملوك والسلاطين ويحفظون شارة الخلافة لورثها من الفاطميين إلى أن يبايعوا بها خليفة بغداد على مذهب أهل السنة الذى يدين به بنو أيوب ، وعادت الخلافة وظيفة موحدة فى العالم الإسلامى بعد زوال الدولتين الفاطمية والأندلسية ، فانفرد بها خليفة بغداد ، وإن لم يبق له منها - كما تقدم - غير الخاتم والعنوان .

ثم قضى « هلاكو » على آخر بنى العباس وقامت فى مصر دولة المماليك الشراكسة فلم يقدم أحد منهم على ادعاء الخلافة بل عمد أقواهم وأشجعهم الظاهر بيبرس إلى الحيلة لإحياء لقب الخلافة وإسنادها إلى صاحب صفة شرعية من المنتسبين إلى بيوتها العريقة ، فجاء برجل مجهول زعم أنه من ذرية بنى العباس وأشهد على ذلك شاهدين مجهولين فى قضية علنية بمحضر كبير القضاة ، ثم بويع هذا الرجل المجهول بالخلافة وتوارثها منه بنوه إلى عهد السلطان سليم العثمانى الذى تلقى البيعة من آخرهم بالخلافة وعزز هذه البيعة بلقب « خادم الحرمين » .

* * *

وقد كان سلاطين المماليك فى مصر يستفيدون من إقامة « الخليفة العباسى » بينهم حجة يقابلون بها خصومهم أصحاب الإمارات والممالك الإسلامية الأخرى فيقاومونهم أو يغيرون عليهم مفوضين بالقتال من صاحب الصفة الشرعية ، وكان أقوى أولئك الخصوم سلاطين آل عثمان فى بلاد الروم وما جاورها على مقربة من حدود البلاد المصرية ، وهم السلاطين الذين تلقبوا بلقب « الغزاة » وجعلوه بديلا من لقب الخليفة الذى لا يقدرون عليه . فلما فتح السلطان سليم مصر وقضى فيها على دولة المماليك لم يكن يعنيه على ما يظهر من بيعة « الخليفة العباسى » إلا أن يتقى تفويضه لأحد غيره من الأمراء المسلمين بحجة شرعية لقتاله ، فانتزع منه صفة الخلافة ليسقط كل حجة تجيز عصيانه أو إعلان الحرب عليه ، وهو السلطان المعترف له بمقام « الغازى أمير المؤمنين » .

على أنه سواء كان هذا كل قصده من بيعة الخليفة العباسى أو كان له مطمح آخر من تأسيس الخلافة العثمانية ـ لقد وقفت المسألة عند هذا الحد فى عهده و عهود خلفائه ، فلم يحاولوا أن يفرضوا بها فريضة جديدة فى صفة الإمام أو شروط الإمامة ، ولم يتخذوا منها مذهباً جديداً لتقرير حقوق الملك وحقوق الخليفة الشرعية للتمييز بين هذه الحقوق أو لتوحيدها والتوفيق بينها . وسكت شيوخ الإسلام فى القسطنطينية عن بحث هذه المسألة من الوجهة الفقهية حتى لامهم الكاتب التركى المستعرب « حسن حسنى الطويرانى » (١٨٥٠ — ١٨٩٧) على إغفالها وقال فى رسالته عن إجمال الكلام على مسألة الخلافة بين أهل الإسلام : « إن رأى الجمهور الجارى على لسان علماء المسلمين أهل السنة والمدون فى كتب المعتقدات التى تدرس فى العواصم كنفس القسطنطينية العظمى ومصر ومكة والشام وبغداد وغيرها أن الأئمة من قريش ، حتى إن حضرة صاحب الدولة والفضيلة عمر لطفى أفندى شيخ الإسلام السابق لما كتب حاشيته على العقائد النسفية لم يكتب شيئاً بالسلب أو الإيجاب على مسألة الأئمة من قريش واختار التوقف . . . » .

وكل ما ذكره هذا الباحث المطلع عن استخدام سلاطين العثمانيين لصفة الخلافة « أن المرحوم مصطفى باشا العلمدار الشهير لما رأى أن المملكة العثمانية قد أخذت تنكمش من أطرافها على النقيض من انبساط قوة أوربا وتقدمها وتبين أن القوة قد ابتدأت تخدمها فى مقاصدها اغتنم فرصة إيقاع البيعة للمرحوم الغازى السلطان محمود خان سنة ١٢٢٣ هجرية فبايع له واشترط شروطاً بين الخليفة وبين أمراء الأطراف فى الروملى ، فكان على مقام السلطنة أن يعمل بالشريعة وألا يقتل أحداً أو يصادر مال أحد إلا بوجه شرعى وعلى الأمراء السمع والطاعة وأن كلهم تحت التكافل . وأشهد على ذلك العهد شيخ الإسلام وعموم الرجال وتم الوفاق على تأييد الأمن العمومى والشرع العادل وعادت وفود الأمراء إلى بلادهم . . . »

قال : « ولما رأى رشيد باشا الكبير أن لا سبيل للإصلاح إلا بعهد يناسب الزمان اغتنم فرصة جلوس السلطان الغازى عبد المجيد خان وأصدر منه الخط الشريف المعروف بخط كل خانة وفيه قرر ذات الخليفة رفع قوانين المصادرة

وأوجب العمل بالشرع وعدم سفك الدماء بلا حق ورأى تنظيم النظامات والقوانين المطابقة لأحوال الشريعة . ولكن علم رشيد باشا أن هذا العهد لايزيد على العهد الذى استحصل عليه مصطفى باشا العلمدار الشهيد من قبل ولم تغن عنه الجامعة العثمانية ، فأحب أن يأمن على مشروعه فحصل على قيد فى ذلك الخط الشريف ألا وهو إشهاد الدول على هذا المشروع وصرح بذلك فى الخط الشريف فمهد للدول بهذا العمل مبادىء مسوغات التداخل الأجنبى بدعوى التأمين على الحقوق والأرواح . فنفع من جهة وأضر من جهة أخرى » . .

ويفهم من كلام الطويرانى بعد ذلك أن سياسة السلطان العثمانى كانت تتراوح فى عصره بين وجهتين : وجهة الخلافة ووجهة الملك على نظامه الحديث فى البلاد الأوربية ، لعله يدفع عنه غائلة التعصب الأوربى بمجاراة العصر فى نظمه السياسية .

قال المؤلف الذى يبدو من سيرته ومن أقواله أنه كان على معرفة بمجرى السياسة العليا فى زمانه : « ثم رأى العثمانيون رأياً آخر بعد ثمانى وعشرين سنة واحتجوا بأن احتياجات الدولة تضطرها إلى مبدأ مدنى يكفى لمقابلة التزاحم السياسى ، وهنالك صدر القانون الأساسى مصدقاً عليه من جلالة مولانا السلطان الأعظم وانعقد بمقتضاه مجلس الأمة مدة ثم رئى أنه غير مناسب للحال فلم يجتمع بعدها . أما أعضاء مجلس الأعيان فلا يزالون موظفين وإن لم يجتمعوا . لكن لما كان إلغاؤهما مخلا بالقانون الأساسى العثمانى لم يلغيا بالكلية ولم تزل القوانين موقتة ينتظر الحكم عليها بالدوام إلى ما بعد عرضها على المجلسين إن اقتضت الحكمة إعادتهما » . . .

وظلت حالة التردد بين وجهة الخلافة ووجهة الملك على هذا النحو الملتبس حتى نشطت دعوة الخلافة ونشطت معها دعوة الجامعة الإسلامية فى وقت واحد بعد ولاية عبد الحميد بسنوات قليلة وعلى أثر انعقاد مؤتمر برلين وافتضاح مؤامرات التقسيم التى اتفقت عليها الدول الكبرى لانتزاع بلاد الدولة العثمانية من سيادتها بغير فارق بين الإسلامية منها وغير الإسلامية .

ولا خفاء بمقصد السلطان عبد الحميد من دعوته إلى الجامعة الإسلامية باسم الخلافة العثمانية ، فما كان لمثله فى حصافته ودهائه أن يطمع فى سيادة فعلية

على بلاد المسلمين باسم جامعة الإسلام، فان أهون ما فى هذا الطمع من الخطوب الجسام يوقعه فى حروب لا طاقة له بها مع عصبة المستعمرين التى تملك كثيراً من بلاد الإسلام أو تتطلع إلى امتلاكها ، وقد يوقعه هذا الطمع فى حروب مع الأمم الإسلامية التى لا تزال على شىء من الاستقلال ولو كانت فى ظل سيادته العامة ، وهى السيادة «الاسمية» التى كانت تربط بعض الأمم بدولة آل عثمان منذ فتوحها الأولى .

فغاية الأمر فيما قصد إليه السلطان عبد الحميد من دعوته إلى الجامعة الإسلامية باسم الخلافة أن يحتمى بعطف العالم الإسلامى فى وجه التعصب الأوربى المطبق عليه من كل جانب ، وأن يستمع العالم الإسلامى إليه حين يناديه بتلك الصفة لأنه أكبر ولاة الأمر فيه وأعظمهم مركزاً فى مراسم السياسة الدولية ، ولم يكن يخفى عليه أن العالم الإسلامى لا يقارع المستعمرين سلاحاً بسلاح ولا ثروة بثروة ولا نفوذاً بنفوذ ، ولكنه كان يقنع منه بما يستطيعه فى كفاح الاستعمار ويعلم أنه يستطيع الكثير مما يخشاه المستعمرون ، وبعض هذا الكثير المخشى أن يقلق حكوماتهم وشركاتهم ويقاطع متاجرهم ويدخل بينهم بالتأييد والخذلان فى خصوماتهم ويثير عليهم رعاياهم المتمردين ممن يستثارون باسم الحرية والمبادىء الديمقراطية ويجدون فى العمل على التفرقة بين شئون الدين وشئون السياسة ، وقد كان للسلطان عبد الحميد خبرة بهذا الفن من فنون الدعاية شهد به الغربيون والشرقيون ، وبلغ من خبرته به أنه كان يستخدمه لتأليب فريق من رعاياه على فريق وتنفير طلاب الإصلاح أنفسهم ممن يحرجونه بطلب الإصلاح على غير هواه .

وعرف دعاة الجامعة الإسلامية جميعا غاية مايراد من هذه الدعوة باسم الخلافة العثمانية أو باسم الإسلام على التعميم .

فالسيد جمال الدين الأفغانى — أكبر دعاة الجامعة فى عصره — يصرح بغاية الجامعة التى يدعو إليها فيقول من رسالة عن الوحدة الإسلامية :

« لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحداً ، فان هذا ربما كان أمراً عسيراً ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر

ما استطاع . فان حياته بحياته وبقاءه ببقائه . إلا أن هذا بعد كونه أساساً لدينهم تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات .

« هذا أوان الاتفاق . ألا إن الزمان يؤاتيكم بالفرص وهى لكم غنائم . فلا تفرطوا . . . إن البكاء لا يحيى الميت . إن الأسف لا يرد الفائت . إن الحزن لا يدفع المصيبة . إن العمل مفتاح النجاح . . . » .

ولما ضرب المثل بملوك الإسلام الذين يقتدى بهم فى حفظ حوزته ودفع أعدائه لم يقصر كلامه على الخلفاء منهم بل عدد من ملوكهم طائفة من أمثال « محمود الغزنوى وملكشاه السلجوقى وصلاح الدين الأيوبى . . » عدا السلاطين العثمانيين الذين لم يتلقبوا بلقب الخلافة .

وربما كان الأمير شكيب أرسلان أشهر الدعاة إلى الجامعة الإسلامية باسم الخلافة العثمانية . فانه عاش بين القسطنطينية وعواصم الغرب زمناً فى خدمة هذه الجامعة ، وهو مع ذلك يقول فى تعقيبه على فصل الجامعة الإسلامية من كتاب حاضر العالم الإسلامى : « إن الخلافة لم تستتم شروطها الصحيحة إلا فى الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكاً عضوضاً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم ، وما انقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة سواء كان من العرب أو من الترك إلا خشية الفتنة فى الداخل والا عتداء على الحوزة من الخارج » .

وكان الأمير شكيب يستوجب هذه الدعوة وهو لا يجهل أحوال السلطان عبد الحميد ، بل يقول عنه من تعليقاته على الترك فى تاريخ ابن خلدون : « وفى زمن السلطان عبد الحميد ساءت الأحوال فى مقدونية . لأن السلطان كان أكثر همه فى المحافظة على شخصه ، وكان شديد التخيل إلى درجة الوسواس . فاستكثر من الجواسيس وصار بأيديهم — تقريباً — الحل والعقد » .

ثم يقول : « وليس من الصحيح أن السلطان كان يعمل بموجب تقاريرهم كما هو شائع ، بل كان يرى أكثرها ولا يصدق مافيها ، ولكن اهتمامه بقضية أخبار الجواسيس ألقى الخوف فى قلوب الرعية وصارت فى قلق دائم وأصبح الناس

تبالغ فى الروايات عن الجواسيس فساءت سمعة الحكومة وسخط الرأى العام على هذه الحالة . . . »

* * *

على أن الجامعة الإسلامية — بغايتها التى أجملناها فيما تقدم — ليست من المسائل التى تسمح بالخلاف بين أحد من المسلمين فى أرجاء العالم على حقها وعلى صوابها فى شرعة الدين أو الخلق . وإنما يعرض لها الخلاف — بل يشتد — حين ترتبط بمسألة الخلافة العثمانية وحين تنطوى هذه الخلافة على معنى السيادة والتبعية فى الحكومة .

فالخلافة على هذه الصفة يرفضها القائلون بإمامة قريش ويرفضها الداعون إلى استقلال العرب بسيادة الحكم ، فيضطرون اضطراراً إلى الأخذ بمبدأ الخلافة العربية القرشية ؛ لأنهم إذا سلموا مبدأ الخلافة للشوكة لم يتيسر لهم ترشيح دولة إسلامية لها من المركز الدولى يومئذ ما كان للدولة العثمانية . . . . .

ويعتقد الداعون إلى القومية العربية بحق أن الجامعة الإسلامية لا تناقض الدعوة إلى الجامعة العربية ، ولا يلزم فى توثيق عرى المسلمين أن تكون جامعتهم وقفاً على خدمة بنى عثمان وأن يكون مستقبل الإسلام مرهوناً بمستقبل دولتهم ، وسعى الأمم الإسلامية فى سبيل الحرية والمنعة موقوفاً على سياسة تلك الدولة ، بل على سياسة القائمين بالحكم فيها على غير مشيئة المصلحين وطلاب التقدم من أبنائها .

وقد تنصل أناس من الترك أنفسهم من الدعوة إلى الجامعة الإسلامية فى أواخر عهد السلطان عبد الحميد ، لأنهم أرادوا أن يقيموا الحكم فى بلادهم على « مبدأ مدنى » كما قال الطويرانى فيما تقدم ، وأن يدحضوا حجة المتعصبين من الغربيين كلما شنوا الغارة عليهم باسم الدين أو باسم حماية رعايا الدولة غير المسلمين ، ومن الترك من كان يؤثر الدعوة إلى الجامعة الطورانية على الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ويخيل إليهم أنهم قادرون بهذه الوسيلة على تأسيس « اتحاد امبراطورى » يقوده الترك وتشترك فيه الأقوام التابعة للدولة العثمانية على تعدد الملل والأديان .

ومما أعلمه فى هذا الصدد من ذكرياتى الشخصية أن جماعة « تركيا الفتاة » بحثت فى مصر بعد إعلان الدستور العثمانى عن صحيفة عربية تدافع عنها وتشرح مقاصدها فاختارت صحيفة « الدستور » التى كنت أكتب فيها وكان يصدرها الكاتب المؤمن النزيه « محمد فريد وجدى » رحمه الله ، وكان فريد من أشد الكتاب فى مصر غيرة على الجامعة الإسلامية ، فأبى أن يجيبهم إلى اقتراحهم لاشتراطهم أن تكف الصحيفة عن ذكر الجامعة وترفع من صدرها أنها لسان حالها ، وقد حدث هذا بعد وفاة الكواكبى بخمس سنوات ، وقبل هجوم إيطاليا على « طرابلس الغرب » وهجوم النمسا على بلاد البشناق، تنفيذاً للسياسة الأوربية التى سموها « بتقسيم تركة الرجل المريض » .

وبين هذه الدعوات المتشابكة نشأ الكواكبى ونفذ ببصره إلى ما وراء الأفق المكشوف لمعاصريه ، فاستطاع ــ كما سنرى ــ أن يختار للغد خير ما يرتضيه العربى الذى يؤمن بدينه ويعرف عقبات الطريق إلى قبلته ، ولكنه ينظر إلى مستقبل العرب والإسلام نظرة الثقة والإيمان .

أم القرى

اول كتاب وضعه الكواكبي كما تقدم فى التمهيد السابق، فهو باكورة أعماله القلمية وفاتحة اشتغاله بالتأليف .

أما من ناحية التفكير والتحضير فلا يحسب الكتاب من أعمال البواكير ، لأنه نتيجة ناضجة لدراسة طويلة وصل منها إلى نهاية الرأى فى أحوال العالم الإسلامى وأسباب ضعفه وبواعث الأمل فى صلاحه وتقدمه ، فهو محصول حياة فكرية وقفها على هـذه الدراسة فى جوهرها ، ولم تكن دراساته الأخرى إلا شعابا متفرعة عليها .

«وجمعية أم القرى» اسم أطلقه المؤلف على مؤتمر عام تخيل انعقاده فى مكة المكرمة وجمع فيه مندوبين ينوبون عن أمم العالم الإسلامى فى المشرق والمغرب يمثلون الهند والصين والأفغان والعراق والحجاز والشام ونجد واليمن ومصر وتونس ومراكش وغيرها من الأقاليم المشتركة بين هذه الأقطار ، وألقى على لسان كل منهم خطابا يشرح حالة المسلمين كما اختبرها من شئون بلده ومما يعلمه عن شئون سائر البلدان الإسلامية ، واجتهد فى إتقان صورة المؤتمر السرى بما له من المحاضر المسجلة والرموز المصطلح عليها وعلامات الأرقام التى يتفاهم عليها الأعضاء ، لأنه أراد أن يتمم الصورة شكلا على ما يظهر ، أو أراد أن يوقع فى روع القارىء ما يبعث عنده الثقة باجتماع العزم على العمل وقيام المؤتمرين على تنفيذه ، إلا أن الثابت من رواية أصدقائه وآ له أنه ألف الكتاب قبل رحلته إلى مصر و إلى الحجاز ، وتحدث هو عن هذا الكتاب إلى صديقه السيد محمد

رشيد رضا — صاحب المنار — فلم يزد على أن قال إن للجمعية أصلا وتوسع في سجله ، وعاوده غير مرة بالتنقيح والحذف والزيادة .

وفي وسعنا أن نفهم هذا « الأصل » على سبيل الظن من تصفح ألقاب المندوبين في الكتاب. فلابد أن يكون المؤلف قد التقى في بلده بأناس من فضلاء المسلمين الذين يترددون عليه في طريق الحج فذاكرهم في مسائل الدين ومصالح المسلمين وسمع منهم وأسمعهم ما عنده من الآراء والمعلومات في هذه الشئون ، ولاحاجة إلى التوسع في قراءة السجلات للتيقن من هذه الحقيقة البديهية ، فان لمحة عابرة إلى الألقاب التي اختارها للمندوبين تشعر القارىء بمعرفة حسنة للأمم التي نسبهم إليها ، يجوز أن تعرف بالسماع والاطلاع ، ولكن لا يجوز أن تكون كلها سماعاً واطلاعاً مع إمكان المقابلة فيحلب بينه وبين الوافدين إليها من عامة الأقطار الإسلامية لمختلف المقاصد والوجهات ، ومع عناية المؤلف باستيعاب الأخبار والآراء في موضوع كتابه وقوله لصديقه إن لها أصلا توسع فيه .

انظر مثلا إلى ألقاب الأستاذ المكي والصاحب الهندي والفاضل الشامي والمولى الرومي والمجتهد التبريزي والرياضي الكردي والعالم النجدي والمحدث اليمني والعلامة المصري والخطيب القازاني ، وسائر الألقاب وعناوين الخطاب التي تخللت المساجلات والخطب على ألسنة هؤلاء الأعضاء .

إن هذه الألقاب لم توضع جزافاً ولم يتميز بعضها من بعض لأسباب تتعلق بأفراد المندوبين ولا ينظر فيها إلى خصائص شعوبهم أو إلى السمات العامة التي تبرزهم بين جملة المسلمين ، فاذا جاوزنا الألقاب إلى السجلات وما وعته من الآراء والأوصاف والوقائع ومناحي التفكير وضح لنا أن المؤلف قد صدر فيها عن علم واسع بأحوال الشعوب الإسلامية وأحوال السادة المتخصصين فيها للامامة العلمية والفتوى الدينية ، ويجوز كما أسلفنا أن يجتمع هذا العلم للمؤلف بالاطلاع والسماع على الألسنة ، ولكن البعيد عن الظن الذي لا يجوز في حكم العرف والعادة أن يصل إلى حلب قصادها والعابرون بها من أرجاء العالم الإسلامي ولا يتفق بينهم وبين الكواكبي لقاء مقصود أو غير مقصود ، يتطرق فيه الكلام إلى حديث كحديث أم القرى كما سجلته محاضر الكتاب .

وغير بعيد أن يكون « الكواكبي » قد سمع بعض هذه الآراء واطلع على بعضها ووصل إليها وإلى غيرها باطالة التأمل وإنعام النظر وتقليب المسائل على شتى الوجوه ، غير أن هذه الآراء لا تحتوى الكتاب ولا تغنى عنه ، فان الكواكبي لم يعرضها عرض الحكاية ولا عرض النقل والرواية ، بل كان عمله فيها عمل « الغربلة » والتحليل والنيابة عن المناقشة والموازنة والأخذ والرد الذى لا يتأتى فى غير المجتمعات المشهودة .

فكل سبب من أسباب الأعضاء المتفرقين يعللون به ضعف المسلمين ينتهى إلى أن يكون سبباً من ناحية ونتيجة من ناحية أخرى ، وكل عرض من أعراض الجمود يجرى به الدور والتسلسل على هذه الوتيرة ، إلى أن تنتهى كلها إلى سبب الأسباب فى عقيدة الكواكبي كما نفهمها فى ديدنه وهجيراه فى التفكير ، وليس هناك سبب لجميع الأسباب غير الحكومة السيئة أو غير الاستبداد .

فلماذا يضعف المسلمون ؟

يضعفون لأنهم أهملوا آداب الدين التى نهضوا بها فى صدر الإسلام .

ولماذا أهملوا آداب الدين ؟

لأنهم جهلوا لبابه وأخذوا منه بالقشور ؟

ولماذا جهلوها ؟

لأنهم فقدوا الهمة وقنعوا بالضعة واستكانوا إلى الخور والتسليم .

وذلك أن تتابع حلقات السلسلة عكسا كما تابعتها طرداً ، فتقول إنهم فقدوا الهمة لأنهم جهلوا ، وإنهم جهلوا لأنهم أهملوا آداب الدين ، وإنهم أهملوا آداب الدين لأنهم ضعفوا .

فكل علة من هذه العلل هى مقدمة من جهة ونتيجة من الجهة الأخرى ، إلا الحكومة السيئة فى تعليل الكواكبي فانها تبطل الدور والتسلسل لأنها ملتقى الأسباب والنتائج فى كل عرض من الأعراض . فالاستبداد جهل وضعف وإهمال وآفات تعرض للرعاة ثم تعرض منهم للرعية فتجرى دواليك فى حلقة مفرغة لا تنتهى أبداً مع بقاء الاستبداد ، ومن ثم يصح أن يقال إن الفكرة فى أم القرى هى الفكرة فى طبائع الاستبداد ، وإن طبائع الاستبداد لا يحتوى شيئا لا يكتبه من كتب أم القرى قبل التنقيح أو بعد التنقيح .

ويقول الدكتور سامي الدهان في ترجمته للكواكبي في سلسلة نوابغ الفكر العربي إن كتاب أم القرى : « صدر في حياته منقحاً بقلم السيد رشيد رضا أو بقلم الشيخ محمد عبده كما قال الأب شيخو » ويشير الدكتور سامي الدهان بهذا إلى قول الأب شيخو في تاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين عند كلامه عن أم القرى إنه « نظر فيه الشيخ محمد عبده » .

ثم يعقب الدكتور الدهان قائلا « وكل الذى نستطيع أن نقول في أسلوب كتابته إنه قريب من أسلوب هذين الرجلين وهو أسلوب الفحول لذلك العصر ».

ولا نرى ما يراه الدكتور الدهان من التشابه بين أسلوب الكواكبي وأسلوب الأستاذ الإمام أو تلميذه السيد رشيد . فان في الكتاب من مآخذ النحو والصرف والتركيب مايتحرج منه السيد رشيد غاية التحرج ولا يسكت عن نقده إذا عرض عليه ، كما صنع مراراً في تعقيبه على الرسائل والمصنفات التي يقرأها لأصدقائه وزملائه ، والأستاذ الإمام يكتب بقلمه على نهج غير نهج السيد رشيد كما يظهر من أسلوبه في «رسالة التوحيد» وفي «الإسلام والنصرانية» وفي المقالات الأدبية ، ويقع الالتباس أحياناً بين أسلوب الإمام وأسلوب تلميذه لأن قراء المنار كانوا يحسبون أن تفسير القرآن الذى كان ينشر فيه مكتوب بقلم الشيخ محمد عبده وهو في الحقيقة ملخص أو مقتبس من دروسه في الرواق العباسي بقلم صاحب المنار ومن هنا يظن أن الأسلوبين على شبه قريب وهما مختلفان مع اتفاقهما في التحرز من المآخذ اللغوية واجتناب الصيغ المولدة والصيغ التركية .

ولا يمتنع ، عندنا أن يكون الشيخ محمد عبده أو السيد رشيد قد نظرا في الكتاب وأبديا عليه بعض الملاحظات وأخذ المؤلف بما أبدياه . بل نحن نجزم بمراجعتهما لآراء الكتاب ونصيحتهما بحذف طائفة من العبارات السياسية التي وردت فيه . وتثبت هذه المراجعة من المقابلة بين النسخة التي طبعها السيد رشيد في مطبعة المنار والنسخ التي لم يشرف على طبعها . فقد حذفت منها العبارات التي اشتدت فيها الحملة على الدولة العثمانية ، واتبع السيد رشيد في حذفها رأى الأستاذ الإمام فيما وجهه إليه من النصائح غير مرة . إذ قال السيد رشيد وهو يعد وجوه النقد التي كان أستاذه يصارحه بها : إنها تشمل «الخوض في سياسة الدولة العثمانية في بعض الأحيان » ... قال : « وهذا ما كنت أكرهه أنا أيضاً فيعرض لي من

الضرورة ما يحملنى عليه . وجل عملى المهم منها كان سريا . وقد أشرت إلى ذلك فى فاتحة المجلد الثانى عشر من المنار سنة ١٣٢٧ . . . . ولم ننل منها ماتهواه إلا بعد أن اصطفاه الله . . » .

والمشهور عن الأستاذ الإمام أنه ابتلى بالمتاعب المرهقة من آفات السياسة حتى ملها واستعاذ بالله منها فى كلمته المعروفة « أعوذ بالله من السياسة . . . . ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس » وطفق ينصح لمريديه باجتنابها لتمحيص القول فى المبادىء والأصول التى يتجرد الناس من أهوائهم ومآربهم عند نظرها ولا يصدون عنها ذهابا مع وساوس العصبية ونوازع المنفعة والنفاق . وقد كان الأستاذ الإمام يبيح النقد ويأبى الحملة على الدولة العثمانية فى محنتها ، وأحرى به أن يأبى الإغراق فى هذا النقد على طريقة الكواكبى كلما استثارته حماسة الدعوة فشدد النكير وبالغ فى الاتهام ، ومن دلائل هذه المبالغة — ولا ريب — أنه استطاع أن يكتب « أم القرى » « وطبائع الاستبداد » ويخرج بهما من حلب ويحملهما فى طريقه ولا يحال بينه وبين ذلك كما حيل بين أصحاب الأقلام وبين أمثال هذه الكتابة فى الأقطار الأوربية لزمانه ، وكما يحال بينه وبين أمثالها فى بلاد الدول المستبدة التى تخضع لحكوماتها المطلقة .

ولا نعتقد أن مراجعة الأستاذ الإمام أوصاحب المنار تجاوزت هذه الملاحظة إلى غيرها من أفكار المؤلف وآرائه ، ومن تجاربه وتعليلاته ، فان مادته من هذه الأفكار والآراء ومن هذه التجارب والتعليلات أوفر جداً من أن تحتاج إلى مدد يضاف إليها ، وحسبه نموذج واحد يلمسه بيديه ولا يقدر على الفكاك منه ليقيس عليه كل ما أحصاه فى أم القرى من فساد السلطة الدينية والسلطة السياسية فى عصور الاستبداد أو عصور التخلف والجمود . .

حسبه نموذج « أبى الهدى الصيادى » الذى انتزع نقابة الأشراف من بيت الكواكبى بغير حق من حقوق النسب أو الفضل أو الكفاية ، ليضعه أمامه وينقل عنه آفات السلطتين ومواطن الحاجة إلى علاج هذه الآفات والمقابلة فيها بين الداء والدواء .

لقد كان الكواكبى ينعى على جهلاء المسلمين استغاثتهم بأصحاب الأضرحة ولا يفرق بينها وبين الشرك بالله ويضرب المثل على ذلك بقولهم :

عبد القادر يا جيلانى ياذا الفضل والإحسان
صرت فى خطب شديد من إحسانك لا تنسانى

وقولهم :

رفاعى لا تضيعنى أنا المحسوب أنا المنسوب

وكان هؤلاء الجهلاء يستمدون دعاءهم من كتاب « قلادة الجواهر فى ذكر الغوث الرفاعى وأتباعه الأكابر » الذى يؤلفه الصيادى أو يأمر بتأليفه وينشره وينشر معه التصانيف من قبيله عن « فرحة الأحباب فى أخبار الأربعة الأقطاب » و « الجوهر الشفاف فى طبقات السادة الأشراف » و « وذخيرة المعاد فى ذكر السادة بنى الصياد». إلى غيرها من كتب المنثور والمنظوم فى أشباه هذه الترهات .

وكان الكواكبي ينعى على العصر أن يرتفع بالجهلاء إلى مساند الأئمة العلماء، ولا بضاعة لهم من العلم والورع إلا بضاعة الحيلة والدسيسة وصناعة الزلفى والتقرب إلى السلاطين والأمراء ، وقد ينقلون مناصبهم بالوراثة إلى ذريتهم فيوصفون فى المهد بصفات الجهابذة والأولياء.

وقد كان الصيادى ينال غاية ما ينال من ألقاب العلم والشرف ويتشفع عند ولاة الأمر لمن يطمع فى نيلها وهو من الجهل بالكتابة بحيث يستكتب « المحاسيب » ما ينسبونه إليه من تلك التصانيف فى كرامات الأقطاب .

قال الأستاذ خير الدين الزركلى صاحب الأعلام — وهو خبير بأصحاب السير والتراجم من أبناء الجيل القريب — : إن الصيادى « صنف كتباً كثيرة أشك فى نسبتها إليه ، فلعله كان يشير بالبحث أو يملى جانباً منه فيكتبه له أحد العلماء ممن كانوا لايفارقون مجلسه ، وكانت له الكلمة العليا عند عبد الحميد فى نصب القضاة والمفتين . . . . وله شعر ربما كان بعضه أو كثير منه لغيره . . »

نقول : ومن هذا الشعر مابعث به إلى الأستاذ الإمام يثنى فيه على رسالة التوحيد :

نعم فيها اختيارات ونسج دقيق فيه درب للطراد
وغايتكم بما قد صين فيها منزهة بحكم الاعتقاد
فدم نساج در هدى ثمين مفيد للعباد وللبلاد

وقائل هذا الشعر ومن يستعيره من نظم غيره سواء ، وآية الجهل فيه أن يحسبه ناظمه أو طالب نظمه جديراً بالإهداء إلى شارح نهج البلاغة وراعى الشعراء والأدباء .

والكواكبي يعلم أن أمراء المسلمين تأخروا وأخروا معهم رعاياهم لأنهم أحاطوا عروشهم بشراذم من الحاشية المتملقين واستمعوا إلى مشورتهم فى اختيار الولاة والرؤساء من أذنابهم وأقربائهم وإقصاء المرشحين للولاية والرئاسة من الكفاة المخلصين والأمناء العاملين .

فان لم يكن قد علم ذلك من مشاهداته ومطالعاته فهو مدفوع إلى علمه بما يبصره أمامه من ذلك المثل البارز ولو كان وحيداً فى زمنه ، وما هو بالوحيد .

فالصيادى كان يتحكم فى مناصب القضاة والمفتين كما قال صاحب الأعلام وكان يتحكم فى مناصب الولاة والرؤساء فيسندها إلى أصهاره وأقربائه ويذهب هؤلاء إلى مراكزهم وهم يعلمون ما تفرضه الوظيفة عليهم وأوله تعظيم شأن المحسن إليهم والتشهير بمن ينافسهم وينافسونه من جلة العلماء ودعاة الإصلاح .

قال صاحب المنار : إن أبا الهدى سعى فى إسناد ولاية طرابلس إلى أحد أصهاره فأصبح الناس يحجمون عن ذكر اسم جمال الدين والثناء عليه فى مجلسه ولم يقنع أبو الهدى بمصادرة هذا المصلح الكبير فى حياته فى البلاد التى يتناولها نفوذه من ولايات الدولة العثمانية ، فكتب إلى صاحب المنار بعد وفاة جمال الدين كتابا (فى التاسع والعشرين من رجب سنة ١٣١٦) - لعل الكواكبى قد اطلع عليه - عتب فيه عليه لثنائه على جمال الدين فقال : « إنى أرى جريدتك طافحة بشقاشق المتأفغن جمال الدين الملفقة ، وقد تدرجت به إلى الحسينية التى كان يزعمها زورا . وقد ثبت فى دوائر الدولة رسميا أنه مازندرانى من أجلاف الشيعة ، وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية » .

وكان هذا ديدن الصيادى فى إنكار الحسب على غيره والإستئثار به لنفسه ولو لم يكن صاحب الحسب من منافسيه على نقابة الأشراف أو حراسة الأوقاف .. ! وإنما يقطع عليه السبيل ليخمله ويحبط مسعاه ولو كان فيه خير عميم للدولة وسائر المسلمين ، وكذلك كان تدبيره لإحباط سعى جمال الدين فى التقريب بين الدولة التركية والدولة الفارسية لتتفق السياسة بينهما على محاربة الاحتكار

ومقاطعة الدول المستعمرة التي تعتدى على إحداهما ، تخويفاً لها من عواقب المقاطعة على مطامعها الاقتصادية .

فاذا جاز أن تخفى على الكواكبي أسباب الفشل الذى منى به المسلمون فيما وعاه التاريخ أو أحاطت به التجربة والمحادثة ، فليس من الجائز أن تفوته أسباب الفشل التي تقتحم عليه داره وتسلبه قراره ، ويبتليه بها الصيادى فى شرفه ونسبه وعمله واجتهاده ، ولا يرضيه منه إلا أن يعترف له بالشرف الذى اغتصبه منه ويجزيه بالتأييد والتمكين على محاربته إياه .

غير أن الكواكبي لم تعوزه الأمثلة غير هذا المثل فى بلدته وفى عاصمة الدولة ، فكل من تولى الحكم فى حلب كان مثلا كهذا المثل فى كشفه عن المساوىء وهدايته إلى مواطن الإصلاح ، ووسائل الكواكبي إلى كشف الحقيقة غير قليلة فى نطاق حياته ومجال معيشته ، إذا صرفنا النظر عن مطالعاته ومحادثاته . إذ هى وسائل الرجل المتصل بوظائف القضاء والإدارة ومراكز التجارة وشركات الاحتكار ، وهى إلى جانب ذلك وسائل الرجل الذى يحمل تكاليف الوجاهة ويقيمه الناس مقام المسئول عن مرافق البلدة وخفايا الكسب والسعى فيها من مباح ومحظور .

إن المباحث فى « أم القرى » تجربة شخصية لعبد الرحمن الكواكبي لا تعوزها الزيادة من تجربة غيرها ، فليس فى الكتاب فكرة يعز عليه فى ذكائه وبحثه أن يستوحيها من مكانه وزمانه ، ولا غضاضة على مثله أن يسترشد بعد ذلك بنصائح ذوى الرأى فيما يذاع أولا يذاع ، وفيما يحسن نشره لحينه أو يحسن إرجاؤه إلى حين .

وعلى الجملة يصح عندنا أن نفهم أن جوهر الكتاب وهو البحث عن علل الأمم الإسلامية وعوامل شفائها عمل خالص للكواكبي فرغ منه فى بلدته قبل هجرته منها .

أما موضع تنقيحه والإضافة إليه والحذف منه فهو شكل الكتاب ، وما كتبه فيه أخيراً عن شكل « الجمعية » كما تخيلها وكما اعتقد بعد رحلاته فى العالم الإسلامى أنه أقرب إلى تنفيذها ، وقد نشر الكتاب فى طبعات متلاحقة فأعيد فيه ما حذف منه ، فلا التباس اليوم بين عمل الكواكبي فى « أم القرى » وبين عمل الناصحين فيما أبقاه وفيما حذفه منه إلى حين .

طبائع الاستبداد

هذا الكتاب الذى يعد آية الكواكبى ، يتألف من سلسلة مقالات نشرها لأول مرة فى صحيفة المؤيد وتناول فى كل مقالة منها عارضاً من عوارض الاستبداد التى يشاهد أثرها فى أحوال الأمم والأفراد ، وانتهى الكتاب وقد بحث فيه جملة العوارض الاجتماعية التى تصاحب الاستبداد فى أحوال الدين والعلم والمجد والثروة والأخلاق والتربية والتقدم ، ومهد للمقالات بتعريف الاستبداد ثم عقب عليها بوسائل الخلاص منه والغلبة عليه .

ومقالات الكتاب جميعاً تنبيء عن دراسة وافية للعوارض التى شرحها أو أجمل القول فيها ، وتدل على تأمل طويل فى موضوعاتها يستفاد من النظر والتجربة كما يستفاد من الاطلاع والمراجعة ، ولهذا خطر للأستاذ أحمد أمين مترجم زعماء الإصلاح أنها نتيجة دراسته بعد أن « ساح فى سواحل إفريقية الشرقية وسواحل آسية الغربية ودخل بلاد العرب وجال فيها واجتمع برؤساء قبائلها ونزل بالهند وعرف حالها ، وفى كل بلد ينزلها يدرس حالتها الاجتماعية والاقتصادية وحالتها الزراعية ونوع تربتها وما فيها من معادن ونحو ذلك ، دراسة دقيقة عميقة ، ونزل مصر وأقام بها ، وكان فى نيته رحلة أخرى إلى بلاد المغرب يتم فيها دراسته ولكنه عاجلته منيته . . . نشر نتيجة دراسته فى مقالات كتبت فى المجلات والجرائد ثم جمعت فى كتابين اسم أحدهما ــ طبائع الاستبداد ــ والآخر ــ أم القرى ــ . . » .

والواقع أن الكواكبى درس موضوعات الكتابين قبل رحلته المطولة فى البلاد الشرقية وقبل هجرته من حلب إلى القاهرة ، وقد عنى حفيده الدكتور عبد الرحمن الكواكبى بالتنبيه إلى ذلك فى مقدمة الطبعة الأخيرة من كتاب أم القرى التى

طبعت هذه السنة (١٩٥٩) فقال إنه « لابد فى هذه المناسبة من الإشارة إلى حقيقة تاريخية تلقى ضوءا على موضوع هذا الكتاب ، وهى أن جدى رحمه الله ألف أم القرى وطبائع الاستبداد قبل هجرته إلى مصر ، وكان عمى الدكتور أسعد الكواكبى يتولى تبييض أم القرى له فى حلب ؛ كما أخبرنى أيضاً عالم حلب الثقة المرحوم الشيخ راغب الطباخ أن المؤلف أطلعه عليه قبل سفره إلى مصر ، ولما كان السيد الفراتى لم يغادر حلب خلال مقامه فيها إلا إلى استانبول ولم يقم بجولاته إلى العالم الإسلامى إلا بعد رحيله إلى مصر ، فان المؤتمر الذى عقد فى مكة ، ويدور عليه موضوع الكتاب ، إنما هو مؤتمر تخيله المؤلف ليعرض فيه آراءه . . » .

ويطابق هذا القول ما رواه الأستاذ الغزى للأستاذ سامى الكيالى صاحب مجلة الحديث كما نشره فى مجلة الكتاب (سنة ١٩٤٧) إذ يقول :

« .. وقبل سفره بيوم واحد زارنى فى منزلى يودعنى وأخبرنى أنه عازم فى غده على السفر إلى استانبول لتبديل نيابته ، أى نيابة قضاء رأشيا ـ وكنت عالماً بكتابه (جمعية أم القرى) وقد شعرت منه العزم على طبعه فوقع فى نفسى أنه سيعرج على مصر لطبعه ونشره ، إذ لا يمكنه أن يطبعه فى غيرها ، وحذرته من ذلك وقلت له : إياك يا أخى والسفر إلى مصر . فانك متى دخلتها تعذر عليك الرجوع إلى وطنك ، لأنك تعد فى الحال من الطائفة المعروفة باسم ـ جوز تورك ـ ولا يتأخر وسمك بهذه السمة قيد لحظة ، لما اشتهرت وعرفت به من شدة المعارضة وانتقاد الأحوال الحاضرة . فقال : لم أعزم إلا على السفر إلى استانبول للغرض الذى ذكرته لك ، وقد كتم سر سفره حتى عن أعز أصدقائه ، ثم ودعنى ومضى ، وأنا أسأل الله تعالى أن يرعاه بعين رعايته وأن يجعل التوفيق رائده والنجاح مرشده وقائده ، وكانت مبارحته حلب فى أوائل سنة ١٣١٦ هجرية (هكذا) . . وبعد أن مضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوماً لم نشعر إلا وصدى مقالاته فى صحف مصر ، وأخذت جريدة المؤيد تنشر تفرقة كتاب طبائع الاستبداد الذى لم يطلعنا عليه مطلقاً بخلاف كتاب جمعية أم القرى . فقد أطلعنا عليه مراراً ثم إنه طبع الكتابين المذكورين وقام لهما فى المابين السلطانى ضجة عظيمة وصدرت إرادة السلطان بمنع دخولهما إلى الممالك

العثمانية . . بيد أنهما رغماً عن ذلك كله وصلا إلى حلب على صورة خفية وقرأناهما فى سمرنا المرة بعد المرة » . .

فالدراسة التى توفر عليها فى الكتابين كانت من مطالعاته وتجاربه ومشاهداته فى حلب والآستانة وغيرهما من بلاد الدولة العثمانية ، وهى كافية لمن كان فى مثل فطنته للإحاطة بظواهر الاستبداد وخوافيه والعلم بأثر الاستبداد فى أحوال الأمم الكثيرة التى كان من اليسير عليه أن يتصل بها بين موطنه وعاصمة السلطنة الكبرى ، وليس عليه أن يبحث فى غير تجربة واحدة ليعلم كل ما أثبته فى الكتاب من أثر الاستبداد فى الدين والعلم والمجد والأخلاق والثروة وعوامل التقدم ، وتلك هى تجربته لمساعى « أبى الهدى الصيادى » ووسائله فى الاستئثار بنقابة الأشراف ومنصب شيخ المشايخ فى الدولة ، مع ذلك الجاه الذى كان يعينه على اللعب بمظاهر المجد ومداورات السياسة كما يشاء .

وقد صادف الكواكبى التوفيق فى موعد وصوله إلى القاهرة ، فانه وصل إليها وهى فى فترة من فترات الجفاء المتداولة بين « يلدز » و « عابدين » ، ولولا ذلك لتعذر نشر المقالات فى صحيفة المؤيد لسان القصر الخديوى وهو يتحفظ غاية التحفظ فى الإشارة إلى الدولة بكلمة تؤيد وشاية الجواسيس فيما اتهموا به الأسرة الخديوية غير مرة من التطلع إلى الخلافة والعمل على إثارة الفتنة فى البلاد العربية ، ولكن « المؤيد » يومئذ كان فى حل من ذلك التحفظ الشديد ، ليعرب عن استياء الخديو من خطة الدولة ويومىء إلى سادة « يلدز » بالمساومة على مواضع الخلاف .

ومع هذا لم يستغن الكاتب عن بعض المصانعة عند عابدين وحاشيتها لتهوين الأمر على الصحيفة وتيسير مقامه فى البيئة التى اختارها ولم يكن له بد من اختيارها ، فقد حرص على هذه المصانعة إلى أن فرغ من نشر المقالات وأظهرها فى أول طبعة فقال فى تقديمها : « أقول وأنا المضطر للاكتتام حسب الزمان ، الراجى اكتفاء المطالعين الكرام بالقول عمن قال ، إننى فى سنة ثمانى عشر وثلثمائة وألف وُجدت زائراً فى مصر على عهد عزيزها ومعزها حضرة سمىّ عم النبى العباس الثانى الناشر لواء الحرية على أكتاف ملكه ، فنشرت فى بعض الصحف الغراء أبحاثاً علمية سياسية فى طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ،

منها ما درسته ومنها ما اقتبسته ، غير قاصد بها ظالما بعينه ولا حكومة مخصصة . إنما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه ، فلا يعتبون على الأغيار ولا على الأقدار . . »

ولقد كان فى وسع الكواكبى أن ينشر مقالاته فى صحيفـة من صحف الاحتلال التى كانت تجاهر بمحاربة السيادة العثمانية خدمة للسيادة البريطانية ، ولكنه لو فعل ذلك لخرج عن صفته الإصلاحية الإسلامية ، وعرض نفسه لشبهات الدعاية الأجنبية ، ووطن العزم على القطيعة الدائمة بينه وبين البلاد المشمولة بسيادة الدولة والمطالبة بالولاء لها فى جوازاتها وشروط الإقامة فيها والرحلة منها وإليها ، ويظهر من كتمان اسمه وتوقيعه بالحرف الأول منه أنه لم يكن قد وطن العزم على ذلك عند وصوله إلى القاهرة ، وأنه أراد أن يختبر الحالة فيما حوله قبل أن يقطع بالعزم الأخير على المسلك الذى لا رجعة فيه .

* * *

والمرجح عندنا أنه طوى كتاب طبائع الاستبداد فى حلب ولم يطلع عليه أصدقاءه لسبب غير التحرج من خطره والحذر من إفشاء خبره وإعنات أصحابه بكتمان سره . فانه أطلعهم على كتاب أم القرى وفيه من المحذورات ما لا يقل عن أخطر المحذورات فى كتاب طبائع الاستبداد . فقد صرح فيه بالدعوة إلى الخلافة العربية وأنكر الخلافة على بنى عثمان ورماهم بالتواطؤ مع الدول على التنكيل بمسلمى الأندلس ، ومسلمى الإمارات الأسيوية ، وقد يرد على الخاطر أنه أغفل هذه المسائل فى النسخة المخطوطة واكتفى فيها بالتلميح دون التصريح وبالإشارة دون الإسهاب ، ولكن الكتاب يشتمل بعد إغفال هذه المسائل على مآخذ منكرة أخذها على الأمراء المستبدين وعزا فيها تخلف المسلمين إلى مساوئهم وسوء سياستهم وتدليسهم على رعاياهم وتقريبهم للمفسدين والدجالين من الولاة ورجال الدين ، ولم يقل عن المستبدين كلمة فى طبائع الاستبداد إلا كان لها نظير فى معناها ومرماها من فصول أم القرى على ألسنة المسلمين الترك والعثمانيين ، وهو تصريح بالحكومة المقصودة لم يرد له نظير

فى طبائع الاستبداد ، إذ يتيح له عموم القول أن يعلن فى تقديم الطبعة الأولى أنه « لا يقصد ظالماً بعينه ولا حكومة مخصصة » .

فليست الحيطة سر كتمان الكتاب عن أصدقائه الذين أطلعهم على كتاب جمعية أم القرى ، وإنما نرجح أنه طواه عنهم لأنه لم يفرغ من وضعه فى صيغة النشر والتلاوة ، ووقف به عند تدوين العناوين ورءوس التعليقات وإعدادها للتوسع فيها وإفراغها فى قالبها الأخير عند تقديمها للطبع أو للنشر فى الصحف ، ويتبين ذلك من المقابلة بين مقالات المؤيد ومقالات الطبعة الأخيرة بعد تنقيحها فان الاختلاف بينهما أشبه بالاختلاف بين عجالة التحضير وبين النسخة المتممة للنشر والتلاوة . وقد ظهرت الطبعة المنقحة فى ضعفى صفحات الطبعة الأولى ، وقال الدكتور عبد الرحمن الكواكبى حفيده إنه « ينشر هذا الكتاب للمرة الأولى على العالم العربى منقحا ومزيدا بقلم المؤلف ، وهو يختلف كثيراً عن النسخة المطبوعة والمتداولة حتى اليوم » .

ويروى الأستاذ سامى الكيالى عن الدكتور أسعد الكواكبى ابن المؤلف أنه أخبره « بأن والده رحمه الله قد أضاف على الكتاب بعد طبعه إضافات كثيرة ، والهوامش التى يحتفظ بها بقلم والده تؤلف كتاباً مستقلا بحجم الكتاب المطبوع وهو يعتزم طبع هذه النسخة قريباً ليطلع العالم العربى على ثمرة أفكار والده فى الحرية والاستعباد » .

ونجتزئ فى المعارضة بين الطبعة الأولى وبين النسخة التى طبعها الدكتور أسعد وصدرت منذ سنتين ـ بالمقابلة بينهما فى موضوع واحد يدل على سائر المواضيع : وهو كلامه على التربية .

ففى الطبعة الأولى وردت مقالة الاستبداد والتربية بالنص الذى ننقل منه ما يلى إذ يقول :

« خلق الله فى الإنسان استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد . فأبواه يصلحانه وأبواه يفسدانه ، أى أن التربية تربو باستعداده جسما ونفساً وعقلا إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وقد سبق أن الاستبداد المشئوم يؤثر على الأجسام فيورثها الأسقام ويسطو على النفوس فيفسد الأخلاق ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم ، بناء عليه تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين فى النتائج ، فكل

ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته . واستعداد الإنسان لا حدَّ لغايته . فقد يبلغ فى الكمال إلى ما فوق مرتبة الملائكة لأنه هو المخلوق الذى يحمل الأمانة وقد أبتها كافة العوالم ، ويصح أن تكون هذه الأمانة هى تخيير تربية النفس على الخير أو الشر ، وقد يتلبس بالرذائل حتى يكون أحط من الشياطين بل أحط من المستبدين ، لأن الشياطين لا ينازعون الله فى عظمته ، والمستبدون ينازعونه فيها . ولكن لحاجة فى النفس ، والمتناهون فى الرذالة قد يقبحون عبثاً لا لغرض ، حتى قد يتعمدون الإساءة لنفسهم .

« الإنسان فى نشأته كالغصن الرطب فهو مستقيم لدن بطبعه ؛ ولكنها أهواء التربية تميل به إلى يمين الخير أو شمال الشر ، فاذا شب يبس وبقى على أمياله ما دام حياً ، بل تبقى روحه إلى أبد الآبدين فى جحيم الندم على التفريط أو نعيم السرور بابقاء حق وظيفة الحياة . ما أشبه الإنسان بعد الموت بالفرح الفخور إذا نام ولذت له الأحلام ، وبالمجرم الجانى إذا نام فغشيته قوارص الوجدان بهواجس كلها ملائم وإيلام » .

أما فى الطبعة الأخيرة فهذه المقالة ترد على الصيغة التالية :

« خلق الله فى الإنسان استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد ، فأبواه يصلحانه وأبواه يفسدانه . أى أن التربية تربو باستعداده جسما ونفساً وعقلا ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وقد سبق أن الاستبداد المشئوم يؤثر على الأجسام فيورثها الأسقام ويسطو على النفوس فيفسد الأخلاق ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم . . . بناء عليه تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين فى النتائج ، فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته ، وهل يتم بناء وراءه هادم ؟ . . الإنسان لا حدّ لغايته رقياً وانحطاطاً ، وهذا الإنسان الذى حارت العقول فيه الذى تحمل أمانة تربية النفس وقد أبتها العوالم ، فأتم خالقه استعداده ثم أوكله لخيرته ، فهو إن يشأ الكمال يبلغ فيه إلى ما فوق مرتبة الملائكة إن كان هناك ملائكة غير خواطر الخير ، وإن شاء تلبس بالرذائل حتى يكون أحط من الشياطين إن كان هناك شياطين غير وساوس النفس بالشر . على أن الإنسان أقرب للشر منه للخير ، وكفى أن الله ما ذكر الإنسان فى القرآن إلا وقرن اسمه بوصف قبيح ، كظلوم وغرور وكفار وجبار وجهول وأثيم . ما ذكر الله تعالى الإنسان

فى القرآن إلا وهجاه فقال : قتل الإنسان ما أكفره . . إن الإنسان لكفور . . إن الإنسان لفى خسر . . إن الإنسان ليطغى . . خلق الإنسان عجولا . . خلق الإنسان من عجل .

« ماوجد من مخلوقات الله من نازع الله فى عظمته . فالمستبدون من الإنسان ينازعونه فيها والمتناهون فى الرذالة قد يقبحون عبثا لغير حاجة فى النفس ، حتى وقد يتعمدون الإساءة لأنفسهم .

« الإنسان فى نشأته كالغصن الرطب ، فهو مستقيم لدن بطبعه ، ولكنها أهواء التربية تميل به إلى يمين الخير أو شمال الشر ، فاذا شب يبس ويبقى على أمياله مادام حيا ، بل تبقى روحه إلى أبد الآبدين فى نعيم السرور بايفائه حق وظيفة الحياة ، أو فى جحيم الندم على تفريطه . وربما كان لاغرابة فى تشبيه الإنسان بعد الموت بالإنسان الفرح الفخور إذا نام ولذت له الأحلام ، أو بالمجرم الجانى إذا نام فغشيته قوارص الوجدان بهواجس كلها ملائم وآلام » .

* * *

ولم تخل مقالة من مقالات طبائع الاستبداد من مثل هذا التنقيح أو مثل هذه الزيادة على قلة فى بعض المواضع وكثرة فى غيرها . إلا أنه فارق بين النسختين كالفارق بين المسودة المعدة للتذكير والتحضير والنسخة التى فرغ منها عمل التأليف .

على أن العبرة بروح الكتابة وما نسميه « نفس الكاتب » فى كلتا النسختين . ولم تكن هذه « الروح » فى المقالات ولا فى الطبعة الأولى بأخفى منها فى الطبعة التى ظهرت بعد وفاة المؤلف ، بل نرى أن روح الكاتب كانت فى « مسوداته ومذكراته » أبرز منها فى طبعتها الأخيرة ، كما يتفق أحيانا فى الكتابة التى تمليها السجية عفو الخاطر والكتابة التى يدخلها التنقيح وتعمل فيها المراجعة ، أو كما يتفق أحيانا بين الكتابة « المركزة » المتجمعة وبين كتابة التبسيط والإفاضة . وقد أحسن السيد محمد رشيد رضا حين شبه المقالات فى الحالتين بالأديم الممدود فقال فى المنار إن « الكتاب كان مقالات مختصرة نشرت فى المؤيد ثم مدها صاحبها من الأديم العكاظى وزاد عليها فكانت كتابا حافلا ينجلى له علمه الأول بصورة أوضح وأجلى » .

نعم ، أوضح وأجلى . ولكن الأديم هو الأديم ولعله قبل مده كان أوثق وأقوى .

وسرعان ما تداول القراء مقالة بعد أخرى من هذه « المذكرات » التى هيأها صاحبها للنشر فى الصحافة حتى أحسوا أنها طبقة فى النقد الاجتماعى لم يعهدوها لعامة الكتاب فى الصحف ، وعلموا من مطلعها أنها بقلم رجل من رجال الدين فخطر لهم أنها لا تكون لغير رجل من رجلين : الأستاذ الإمام محمد عبده أو السيد محمد رشيد رضا تلميذه ومريده ، ولسنا نحسب أنه خاطر يخطر لمن يعرف أسلوب الرجلين ويحسن التمييز بينه وبين أسلوب تلك المقالات ، فان بضعة أسطر من المقالات كافية للجزم بأنها أسلوب من الكتابة غير أسلوب الإمام وتلميذه الرشيد ، ولكن شيوع هذا الخاطر يدل على المنزلة التى قدرها جمهرة القراء لصاحب تلك المقالات ، فلن يكون فى تقديرهم إلا علماً من أعلام الرأى والإصلاح .

ولم تنقطع الظنون عند وقوف المطلعين على سر مقالات المؤيد ، فقد كان من اليسير على الكثيرين أن يفهموا أن محمد عبده وتلميذه الكبير لا يتسع لهما صدر « المؤيد » مع ما بينهما وبين القصر الخديوى من الجفوة والقطيعة ، ولم يكن من اليسير على قراء ذلك العهد أن يفهموا كيف يتسنى هذا البحث لكاتب شرقى عرفوا أنه لا يعلم من اللغات غير اللغات الشرقية ، ولا يحسن القراءة فى غير لغته واللغتين التركية والفارسية

قال السيد رشيد : « كنا على وفاق فى أكثر مسائل الإصلاح حتى إن صاحب الدولة مختار باشا الغازى اتهمنا بتأليف الكتاب عندما اطلع عليه » .

ثم قال : « وقد زعم زاعمون أن معظم ما فى الكتاب مقتبس من كتاب لفيلسوف إيطالى . ومن كان له عقل يميز بين أحوال الإفرنج الاجتماعية وأحوالنا وذوقهم فى العلم وذوقنا يعلم أن هذا الوضع وضع حكيم شرقى يقتبس علم الاجتماع والسياسة من حالة بلاده حتى كأنه يصورها تصويراً .. »

وقال الأستاذ إبراهيم سليم النجار « سبق لى أن قرأت فى شبابى كتاب (الكونترا ــ سوسيال) أى العقد الاجتماعى لجان جاك روسو ثم انقطعت عن الرجوع إليه . فلما قرأت كتاب طبائع الاستبداد أعاد إلى ذاكرتى كتاب الكاتب

الإفرنسي العظيم . ولو كان الشيخ العربي يعرف ولو قليلا اللغة الفرنسوية لاعتقدت أنه أخذ عنه أو احتذى حذوه ، ولكن الحقيقة أن العقول النيرة والقلوب الكبيرة نيرة وكبيرة مهما اختلفت لغاتها وبلادها وأقاليمها .. »

وإن الكواكبي نفسه ليعفي القراء والنقاد من مئونة الظن فى اقتباسه واطلاعه على وصف الاستبداد وعوارضه الاجتماعية فى كتب غيره . فانه قد ذكر ذلك فى كلامه وتبرع به دون أن تدعوه الضرورة إلى ذكره . فكل ما يفهم من قراءة « طبائع الاستبداد » أن صاحبه على علم واطلاع فى موضوعه ، وتلك بداهة لا حاجة إلى التنبيه إليها . إذ كان من الغفلة أن يطالب الكاتب بالتأليف فى موضوع لم يكن على علم به واطلاع فيه .

أما أن يكون الاقتباس على مثال ما نسميه بالسرقة المقصودة فذلك إسراف فى الظن لا مسوغ له سواء رجعنا بالمعارضة والمضاهاة إلى الكتب التى سرد الكواكبي أسماءها أو إلى الكتب التى أفاضت فى هذا الموضوع ولم يكن فى وسعه أن يطلع عليها أو يسمع بأسمائها .

قال الكواكبي : « لا خفاء أن السياسة علم واسع جداً يتفرع إلى فنون كثيرة ومباحث دقيقة شتى . وقلما يوجد إنسان يحيط بهذا العلم كما أنه قلما يوجد إنسان لا يتحكك فيه . وقد وجد فى كل الأمم المترقية علماء سياسيون تكلموا فى فنون السياسة ومباحثها استطرادا فى مدونات الأديان أو الحقوق أو التاريخ أو الأخلاق أو الأدب ، ولا تعرف للأقدمين كتب مخصوصة فى السياسة لغير مؤسسي الجمهوريا فى الرومان واليونان، وإنما لبعضهم مؤلفات سياسية أخلاقية ككليلة ودمنة ورسائل غوريغوريوس ومحررات سياسية دينية كنهج البلاغة وكتاب الخراج . وأما فى الشئون المتوسطة فلا تؤثر أبحاث مفصلة فى هذا الفن لغير علماء الإسلام. فهم ألفوا فيه ممزوجا بالأخلاق كالرازى والطوسى والعلائى وهى طريقة الفرس ، وممزوجاً بالأدب كالمعرى والمتنبي وهى طريقة العرب ، وممزوجا بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة وهى طريقة المغاربة .

« أما المتأخرون من أهل أوربة ثم أمريكا فقد توسعوا فى هذا العلم وألفوا فيه كثيراً وأشبعوه تفصيلا ،حتى إنهم أفردوا بعض مباحثه فى التأليف بمجلدات ضخمة ، وقد ميزوا مباحثه إلى سياسة عمومية وسياسة خارجية وسياسة إدارية

وسياسة اقتصادية وسياسة حقوقية إلى آخره . وقسموا كلا منها إلى أبواب شتى وأصول وفروع . أما المتأخرون من الشرقيين فقد وجد من الترك كثيرون ألفوا فى أكثر مباحثه تآليف مستقلة وممزوجة مثل أحمد جودت باشا وكمال بك وسليمان باشا وحسن فهمى باشا ، والمؤلفون من العرب قليلون ومقلون ، والذين يستحقون الذكر منهم فيما نعلم رفاعة بك وخير الدين باشا وأحمد فارس وسليم البستانى والمبعوث المدنى . . » .

* * *

ومن أيسر نظرة يدرك القارىء المطلع أن الكواكبى أراد أن يسرد بعض الشواهد على مبلغ اهتمام الأقدمين والمحدثين بعلوم السياسة ومباحثها ، ولم يرد أن يستقصى مراجع الاطلاع فى هذه العلوم والمباحث ، ولا مراجع الاقتباس منها فى « طبائع الاستبداد » .

ولو أنه قصد إلى الاستقصاء لما فاته أن يذكر من كتب الأقدمين أهم ما كتبه فلاسفة اليونان وأفضله فى بابه ، وهما كتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب السياسة لأرسطو ، وليس هذا ولا ذاك من رؤساء الجمهوريات ، ولا فاته أن يذكر الماوردى صاحب « الأحكام السلطانية » أو بدر الدين بن جماعة صاحب « تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام » أو ابن تيمية صاحب « السياسة الشرعية » ، أو محمد بن على بن طباطبا صاحب « الفخرى فى الآداب السلطانية » ، أو ابن حمدون صاحب « التذكرة فى السياسة والآداب الملكية » ، وغيرهم وغيرهم ممن صنفوا وألفوا فى هذه المباحث ولا يفوت المؤرخ ذكرهم فى مقام الاستقصاء .

ولا يلزم أن يكون الكواكبى قد اطلع على كتب المؤلفين الذين ذكرهم فى مقدمة « طبائع الاستبداد » ، وإنما نرجح أن بعض هؤلاء المؤلفين كان يستدعيه إلى قراءته باغراء من سيرته ومناسبات تأليفه . فمن الصعب على باحث كالكواكبى يعرف التركية أن يعرض عن قراءة « أحمد جودت » الصدر الأعظم الذى بلغ من عنايته بالعربية أن يؤلف فى نحوها وبلاغتها ويعقب على التفسيرات القرآنية فيها ، ولم يكن أروج من مصنفاته بين أدباء الترك والعرب بعد وفاته فى أواخر القرن التاسع عشر (١٨٩٥) . . . . ومن الصعب

كذلك على كاتب مثله يعرف الفارسية أن يعرض عن قراءة العلائى الملقب بالمحقق الثانى (١٤٦٣ — ١٥٣٤) وهو المستشار الأمين المأمون للشاه طهماسب ابن اسماعيل الصفوى الذى ينتسب والكواكبى إلى أسرة واحدة ، ولكننا نراجع هؤلاء المؤلفين ونراجع غيرهم من المذكورين فى مقدمة « طبائع الاستبداد » فنعلم أنهم مؤرخون يروون أخبار الدول والحكومات ويعقبون على عهود السلاطين والأمراء ويتحدثون عن العدل والظلم وعن العادلين والظالمين فى سياق هذه الأخبار ، أو نعلم أنهم من فلاسفة السياسية الذين يفصلون القول فى أوضاع الحكم ودساتير الديمقراطية والنظم النيابية ، أو أنهم ناصحون من حكماء الدين والمعرفة يوصون بالخير ويحذرون من الشر ويعظون الساسة بما ينبغى وما لا ينبغى فى حق الله وحق الرعية ، ولم يستخرج أحد من كتبهم مبحثاً مفصلا فى تحليل عناصر الاستبداد وتفسير عيوبه وأعراضه وآثاره فى طوائف الرعايا على تعدد أطوارها وشواغلها كهذا المبحث الذى استوحاه الكواكبى من تجاربه ودراساته ونظراته وتأملاته ، ولا يعود الفضل فيه إلى غير فطنته وابتكاره واستقلاله بفهمه وصحة نظره ، فان هذه المطالعات قد اطلع عليها المئات كما اطلع عليها الكواكبى ولم يستخرجوا منها الكتاب الذى انفرد به ولم يسبقه أحد إليه .

وإنما يصدق وصف الاقتبـــاس على مؤلف واحد لم يذكره الكواكبى فى المقدمة ولكنه ذكره واستشهد به فى كلامه على التخلص من الاستبداد ، (فتوريو ألفييرى) ، الذى أردف اسمه بنعت المشهور فى قوله : « لهذا أذكر المستبدين بما أنذرهم به الفيارى المشهور حيث قال : لا يفرحن المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياطه . فكم من جبار عنيد جند له مظلوم صغير ؟ ! »

ولا بد أن يكون هذا المؤلف هو المقصود فيما رواه صاحب المنار عمن ينسبون أفكار الكواكبى إلى « فيلسوف إيطالى » معروف ، فانه صاحب أشهر كتاب عن الاستبداد ظهر فى أواخر القرن الثامن عشر ١٧٧٧ ، وشاع بعد ذلك أيما شيوع بين أيدى الثوار الإيطاليين ، ولا سيما جماعة الكربوناري — الفحامين — الذين أسسوا جماعتهم السرية معارضة لجماعة البنائين أو الماسون ، وتسرب أعضاؤها إلى كل مكان يغشاه الإيطاليون فى موانى البحر الأبيض ومدن الشرق الأدنى ، ومنها مدينة حلب التى كانت « مركزا مهما » لتجار البندقية والمتكلمين

باللغة التوسكانية ، وأوى إليها كثير من المثقفين والمهاجرين السياسيين منذ راجت فيها حركة التجارة على طريق الهند والأقطار الأسيوية .

وبين «الكواكبي» و«ألفيرى» شبه قريب في السيرة والمنزع وظروف الحياة ، فكلاهما تعود الرحلة في طلب المعرفة بأحوال الأمم ، وكلاهما اضطر إلى الكتابة في ظل الرقابة ، وكلاهما نزل مختارا أو مضطرا عن ثروته وعتاده ، وزاد «ألفيرى» فأسلم مابقى له في الثروة إلى أخته لتسلمه منها نفقته التي يحتاج إليها ، رغبة منه في التفرغ للرحلة والكفاح بالقلم والدعوة اللسانية .

وكتب «ألفيرى» مقالاته عن الاستبداد Della Tirannide فظهر فيها أثر اطلاعه على « روسو » و« منتسكيو » وعلى « مكيافلي » من قبل ، ولم يظهر فيها مذهب خاص يجيز للناقد أن يصفه بالفيلسوف كما وصفه القائلون بأن الكواكبي نقله بحروفه واعتمد عليه في تفصيل آرائه .

والتشابه بين رءوس الموضوعات باد من النظرة العابرة إلى صفحات الكتابين فقد كتب ألفيرى في تعريف الاستبداد وتعريف المستبد ، ثم كتب عن الخوف والتملق والطموح ، ووزراء المستبد ، ثم كتب عن الانحلال والدين والمقابلة بين الاستبداد القديم والاستبداد الحديث وعن الشرف المزيف والمجد الكاذب وعن نفوذ الزوجات في عهود الاستبداد وعن وسائل المقاومة للاستبداد وعن الشعوب التي لا تحس الطغيان وعن الحكومات التي تركن إليه ، ونظر في جميع هذه الموضوعات إلى أطوار الامم الأوربية على خلاف منهج الكواكبي في النظر إلى الأمم الشرقية والتعمق في وصف أحوالها ، مما يجيز لنا أن نقول إن مؤلف أم القرى كان خليقا أن يكتب آراءه عن الاستبداد ولو لم يطلع على الرسالة الإيطالية .

ويتساءل الأستاذ أحمد أمين : كيف وصلت الرسالة الإيطالية إلى علمه ؟ وهو سؤال لا جواب له غير الحيرة إن لم تكن للكواكبي وسيلة أخرى للعلم بألفيرى غير العلم بلغته . إلا أننا نعلم من طبائع « الاستبداد » إن الفيبرى كان مشهوراً عند الكواكبي في زمانه ، ونعلم أن هذه الشهرة لا تستغرب مع كثرة الإيطاليين في حلب ورغبة الكواكبي في الاستفادة من معلومات أصحابه الأوربيين المثقفين وهو كثير الاتصال بهم وهم يلقونه على الدوام في أعماله وأعمالهم ، وقد كان اسم

« إيطاليا الفتاة » على كل لسان بين طلاب الحرية العثمانيين ومنهم جماعة « تركيا الفتاة » الذين استعاروا اسمهم من اسم الجماعة الإيطالية ، وقد كان الإيطاليون يسعون فى تلقين دعوتهم ولا ينتظرون من يسألهم عنها ، وكانوا ينتشرون فى سواحل البحرين الأبيض والأحمر وينشرون فيها أنديتهم السرية التى تنتمى إلى طوائف الفحامين وتحاول أن تزاحم فى ميادين السياسة طوائف الماسون — أو البنائين الأحرار — التى غلب عليها فى الشرق نفوذ الإنجليز والفرنسيين ، ومن تاريخ الكواكبى بعد الهجرة من حلب نعلم أنه كان يلتقى بوكلاء الحكومة الإيطالية فى شواطىء بحر العرب وينتقل على إحدى السفن الإيطالية باذن من أولئك الوكلاء ، فليس بالعسير بعد ذلك أن يعرف الكواكبى شيئاً عن الكاتب الإيطالى « المشهور » كما وصفه فى كلامه ، وأن يلمّ برءوس الموضوعات التى طرقها فى رسالته عن الاستبداد وهو مشغول بمكافحة الاستبداد منذ صباه ، وأن يعارض تلك الرسالة بما يقابلها معارضة الشاعر للشاعر فى القصيدة المأثورة لديه ، ولا ينقل منه شيئاً بهذه المعارضة غير الوزن والقافية ، أو غير العنوان والمناسبة .

ونحن نرجح هذا الاحتمال على قول بعض المعاصرين إن الكواكبى اطلع على ترجمة تركية لطبائع الاستبداد من عمل كاتب من أحرار الترك المهاجرين إلى سويسرة يسمى « عبد الله أمين » فاننا نشك فى ذلك لأن مثل هذه الترجمة لا تطبع يومئذ فى البلاد العثمانية ، وإذا طبعت فى مصر فلا بد أن تكون متداولة معهودة بين العثمانيين أصحاب الكواكبى فلا يهمل ذكرها ولا يختلف الباحثون فى أمرها عند السؤال عن مصدرها ولا يخفى حقيقة هذا الأمر على مختار باشا الغازى وهو وكيل الدولة العثمانية المسئول عن أخبار هذه المنشورات التى تراقبها الدولة .

وأصاب السيد رشيد رضا إذ قال إن مباحث طبائع الاستبداد لا يكتبها قلم أوربى ولا يقتبسها شرقى من المراجع الأوربية ، ونزيد على هذا أن « ألفييرى » نفسه لا يستطيع أن يصور عناصر الاستبداد كما صورها الكواكبى من وحى تجاربه وتأملاته فى البلاد العثمانية وفى بلده وإقليمه بصفة خاصة ، لأنه يحمل « مصورة » تريه ما يقع عليه حسه ولا تريه ما لم يشهده بعينيه .

فاذا كان جهل الكواكبى بالإيطالية يبعث على استغراب علمه بألفييرى ، فان جهله بهذا الكاتب خاصة هو الغريب من رجل يعاشر الإيطاليين ويسمع بثورتهم ويسمع أن ثوار الترك يستعيرون منهم تنظيم حركتهم ، ويسألهم ولا شك عن كاتبهم « المشهور » أو يتلقى منهم البيان عنه بغير سؤال .

وما كانت الشبهة أن اتصال الكواكبي بالإيطاليين قليل لايسمح بهذه المعرفة ، وإنما الشبهة أنها كانت تزيد على اللازم لهذه المعرفة ، حتى خطر لبعضهم أنها تمتد من الصحبة إلى « التواطؤ » على السياسة الخفية ، فلولا المصادفة التي وقعت على الرغم من الكواكبي ولم تقع باختياره ولا بتدبيره لاستعصى على المدافع عنه أن يدحضها بغير حسن الظن وصدق الفراسة .

« حدث في يوم ما أن قنصل دولة إيطاليا في حلب — السنيور انريكو ويتو — بينما كان راكبا عربته ، ماراً في محلة الجلوم ، التي هي محلة السيد عبد الرحمن الكواكبي ، إذ وقع على ظهره حجر عاثر صدمه صدمة عنيفة تألم منها جداً ، بحيث اضطرته أن يعود إلى منزله وأن يرسل إلى الوالي تقريراً يطلب فيه منه البحث عن الضارب وإجراء العقوبة القانونية . . . هذه الحادثة فتحت للوالي بابا يلج منه إلى إلصاق هذه الجناية بالسيد الكواكبي ، لاسيما وقد كانت الحادثة في محلته وعلى مقربة من داره ، وفي الحال أوعز إلى بعض شياطينه بأن يرفع إليه تقريراً فحواه أن الكواكبي منضم إلى عصابة أرمنية — وكانت ثورات الأرمن في تلك الأيام كثيرة — وأنه قبل يومين أغرى بعض الناس فرشق على قنصل إيطاليا حجراً أصاب ظهره ، محاولا بذلك إحداث ثورة بين الأرمن والمسلمين بحلب . . . وفي الحال أصدر الوالي أمره بالقاء القبض على الكواكبي وزجه في السجن ، وما أسرع ما أخرج من السجن مخفوراً وأجلس على كراسي المحكمة لاصدار الحكم عليه(١) » .

ويستوي اتهام الكواكبي في هذه القضية وبراءته منها في تكذيب الوشاة الذين رجموا بالظن فجعلوه صنيعة الإيطاليين ، فان الصنيعة لايسلمه حماته المزعومون إلى الموت وهم ينظرون !

(١) المجلد الثالث من مجلة الكتاب عدد يناير ١٩٤٧ .

شخصية مكونة

«كان مربوع القامة ، حنطى اللون ، مستدير الوجه ، خفيف العارضين ، أقنى الأنف ، واسع الجبين ، ذا عينين زرقاوين ، معتدل المقلة ، لا غائرها ولا جاحظها ، معتدل فتحة الفم ، أزج الحاجبين ، صغير الأطراف ، معتدل الجسم بين السمن والهزال ، أسود الشعر ، قد وخطه الشيب حين فارق حلب إلى جهة مصر» .

هكذا وصفه صديقه الأستاذ كامل الغزى ، ووصفه الأستاذ إبراهيم سليم النجار وهو ممن عرفوه وصاحبوه فقال : «كان ربع القامة تميل إلى الطول قليلا ، أبيض الوجه بياضاً مشرباً بشىء قليل من الحمرة ، شأن سكان البلاد الباردة ، . . . وقد أحاط خديه بلحيـة قصيرة كانت كالإطار لوجهه ، مد فيها الشيب خيوطه» .

ووصفه ابنه الدكتور أسعد فقال : «كان ربعة إلى الطول أقرب ، قوى البنية ، صحيح الجسم ، عصبى المزاج بتأنٍّ ، أشهل العينين، أزج الحواجب ، أبيض اللون ، واسع الفم ، عريض الصـدر ، أسود شعر الرأس والذقن ، متأنق فى لباسه ، يتكلم بجهر هادىء وسلاسة وابتسام ، يحسن السباحة والصيد والفروسية . . »

وسمعنا وصف سجاياه وملكاته العقلية ممن عاشروه، كما قرأنا هذا الوصف بأقلام مترجميه ، فرأيناهم يتفقون على سجايا خلقه وملكات عقله اتفاقهم على سماته وتكوين جسده ، كأنهم ينظرون إلى ملامح محسوسة لا تخطىء العين رؤيتها ولا يختلف الناظرون إليها فى وصفها ، فما من ترجمة له لم تبرز فى الكلام عليه صفات الوقار والحلم والفطنة والنجـدة وعفة اللسان وحسن الملاحظة

وصدق الإرادة ، وكأنما ثبتت هذه الصفات فى نفوس عارفيه ، لأنها جاوزت أن تكون صفات مقدورة وأصبحت أعمالا متكررة يؤيد بعضها بعضاً فلا ينساها من رآها وسمع بها وبآثارها . وهى قد أصبحت فعلا فى عداد الأعمال المشهودة ولم تبق فى حيزها من عالم السجايا والأخلاق ، وسنحت لها منادح الظهور والثبوت مرات فى جملة الوظائف التى عمل فيها فكان فى كل منها أمين الجهر والسر خبيراً بعمله غيوراً على الضعفاء حريصاً على واجبه متطوعاً بما يزيد على الواجب كلما دعته إلى ذلك دواعى النجدة والإنصاف .

ثم خلا من أعمال الوظائف فكانت بطالته فى عرف الحكومة أدعى إلى إبراز تلك السجايا والملكات من كل وظيفة تولاها ، إذ كان يشغل وقته بالتطوع لدفع المظالم وإبلاغ الشكايات وتمحيص الأسانيد والنهوض بتكاليف الرئاسة وأعباء الوكالة الموروثة التى ألقاها على عاتقه مكانه من العلم والوجاهة وسابق الخبرة بولاية أعمال الناس ، وافتتح لهذه الأعمال مكتباً مستعداً مفتوح الأبواب لمن يقصدونه بغير جزاء ، بل يحمل النفقة أحياناً عن أصحابها الذين يعييهم حملها من ذوى الحاجات .

لا جرم يتفق واصفوه على سجاياه وملكاته ، بل على صنائعه وفعاله ، كاتفاقهم على ملامحه وسماته . فانها ملامح مشهودة وصفات جاوزت حيز الظنون إلى حيز الأعمال .

ومرجع ذلك إلى أننا هنا أمام « شخصية مكونة » قام كيانها المتين على أسس عميقة من عوامل بيئتها وأسرتها وظروف زمانها وظروف حياتها وسائر مقوماتها وعناصرها وتكاد كل صفة من صفات الكواكبى تنسب إليه فلا تعجب لاتصافه بها ولا تنقب طويلا حتى تجد تفسيرها كافياً ماثلا فى عامل من تلك العوامل المتأصلة فى ظروف زمانه أو ظروف مكانه .

رجل يتطلع إلى قلب دولة وإقامة دولة من طريق الدعوة .

أى عجب أن يتطلع إلى ذلك رجل يعلم أن سلفاً من أسلاف أسرته أقام الدولة الصفوية من طريق الصومعة والمدرسة فى بلاد غريبة عن بلاده ، وأن الدولة التى يريد أن يقلبها قد تزعزعت فى موطنه ولم تعد إليه بعد فترة إلا وهى على حال من التزعزع لا تؤذن بالدوام ؟

رجل دائم الشعور بعروبته شديد الغيرة على نسبته العربية .

أى عجب أن يكون كذلك من يرجع إلى تاريخ بلدته من قبل إبراهيم عليه السلام فيعلم أنها عربية لم تزل عربية تحس عروبتها كلما أحست أنها « تهان من أجل هذه العروبة وتظلم فى سبيلها » ؟

رجل يتصدى للجهاد فى هذا السبيل وينهض بأمانة الإمامة فيه ولا يلتمس لنفسه العذر فى التخلف عنها .

أى عجب فى إمامة رجل توارث الإمامة فى بيته فطلبته قبل أن يطلبها .

ورجل يعرف الاستبداد فلا يصبر عليه ولا يستقر معه على قرار .

فهل من عجب أن يكون كذلك مصاب بعسف الاستبداد فى سربه وفى تراث قومه وفى حقوق عشيرته وآله وأقرب الناس إلى جواره .

وإنه ليعلم أثر الاستبداد فى الدين والدنيا ، فأى عجب فى هذا العلم وهو لا يتطلب منه إلا أن يعلم كيف توسل الكذبة من رجال الدين إلى اغتصاب حقه وحق بيته ، وكيف يختلسون النسب والحسب ويزيفون الشعائر والشرائع ليصعدوا من ثم إلى مجالس الصدارة فى الدين والدنيا وبين الرعية والرعاة ؟

ورجل يتحفز للثورة ، فأى عجب فى ذلك وهو يعيش فى عصر الثورة ؟

ورجل يتصل بالعالم فى زمانه فلا تخفى عليه خافية من أخطاره وخطوبه ، فأى عجب فى ذلك وهو فى بلد تلتقى عنده طرق العالم ولا ينقطع عنها أو ينقطع عنه الواردون إليه والطارئون عليه فى سلمه وحربه ؟

رجل واحد ندبته الحوادث لرسالته ولم تندب لها أحدا غيره ، فأى عجب فى ذلك وهو الذى تهيأ لتلك الرسالة بالاستعداد لها والقدرة عليها والشعور بدوافعها والعجز عن إغفالها والإغضاء عنها .

* * *

وقد تجرد الكواكبى لرسالته وتفرد بها فى بيئته لأن هذا الاستعداد الموروث منذ القدم يسانده استعداد خاص به من فطنته وخلقه ومطالعته وبواعثه النفسية . فلا تكفيه الفطنة وحدها لأن الفطنة لا تقدم ولا تؤخر ما لم تسعدها الخلائق التى تصبر على الشدة وتقدم على المخاوف وتضطلع بتكاليف

النجدة والمروءة ، ولا تغنيه الفطنة والخلق بغير البواعث النفسية التى تثير الضمير وتستجيش الخاطر ، وبغير البيان الذى استفاده من دراسته واطلاعه وحسن إصغائه إلى ذوى المعرفة والخبرة من صحبه ، ومن المصادفات النادرة أن يجتمع ذلك الاستعداد الموروث من القدم وهذا الاستعداد الخاص بصاحبه لأكثر من نابغ واحد فى حقبة واحدة ، وهو كاف لارتياد الدعوة الأولى على سنة الطبيعة من القصد فى غير ضرورة للسرف والزيادة .

* * *

والشخصية المكونة المنذورة لرسالتها هى هذه الشخصية التى تعاونت فيها العوامل هذا التعاون بين حديث وقديم وبين خاص وعام ، وعلى هذا التكوين بنيت « شخصية » الرائد الذى كتب « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » .

كان الرجل قضية حية متفقة المقدمات والنتائج .

كان شخصية قويمة جلية لا موضع فيها لغموض أو التواء .

مفتاحها إذا التمسنا المفتاح لبعض زواياها أنها « شخصية عزيز قوم يغضب لكرامته وكرامة قومه » .

ولنا أن نفسر بهذا المفتاح كل سر فيها من أسرار الأعمال أو أسرار النيات .

فی مصر

وصل الكواكبى إلى مصر فى منتصف شهر نوفمبر سنة ١٨٩٨ وتوفى بها فى شهر يونيو سنة ١٩٠٢ وتخلل هذه الفترة رحلتان ، قال صديقه صاحب المنار عنهما : « إنه وجه همته أخيراً إلى التوسع فى معرفة حال المسلمين ليسعى فى الإصلاح على بصيرة ، فبعد اختباره التام لبلاد الدولة العلية - تركها وعربها وأكرادها وأرمنها - ثم اختباره لمصر ومعرفة حال السودان منها ، ساح منذ سنتين فى سواحل إفريقية الشرقية وسواحل آسيا الغربية ، ثم أتم سياحته فى العام الماضى فاختبر بلاد العرب التى كانت موضع أمله أتم الاختبار . فانه دخلها من سواحل المحيط الهندى وما زال يوغل فيها حتى دخل فى بلاد سورية واجتمع بالأمراء وشيوخ القبائل وعرف استعدادهم الحربى والأدبى وعرف حالة البلاد الزراعية وعرف كثيراً فى معادنها حتى إنه استحضر نموذجاً منها . وقد انتهى فى رحلته الأخيرة إلى كراجى فى موانىء الهند وسخر الله له فى عودته سفينة حربية إيطالية حملته بتوصية من وكيل إيطاليا السياسى فى مسقط ، فطافت به فى سواحل بلاد العرب وسواحل إفريقية الشرقية ، فتيسر له بذلك اختبار هذه البلاد اختباراً سبق به الإفرنج وكان فى نفسه رحلة أخرى يتمم بها اختباره للمسلمين وهى الرحلة إلى بلاد الغرب ولكن حالت دونه المنية التى تحول دون كل الأمانى والعزائم . . »

وقال الأستاذ جورجى زيدان فى كتابه عن مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر عن رحلته : « ومما يذكر له ونأسف لضياع ثماره أنه رحل رحلة لم يسبقه أحد إليها ويندر أن يستطيعها أحد غيره . وذلك أنه أوغل فى أواسط جزيرة العرب ، فأقام على متون الجمال نيفاً وثلاثين يوماً .فقطع صحراء الدهناء فى اليمن ولا ندرى ما استطلعه من الآثار التاريخية أو الفوائد الاجتماعية فعسى أن يكون

ذلك محفوظاً فى جملة متخلفاته . وتحول فى هذه الرحلة إلى الهند فشرقى إفريقيا أيضاً وكان أجله ينتظره فيها .

والمؤرخ الحلبى الأستاذ الغزى ، وهو صديق الكواكبى ، يذكر هذه الرحلات فيما كتبه بمجلة الحديث ويشير إلى إشاعة القائلين إن الخديوى عباسا استدعاه ليقوم بالدعاية لخلافة مصرية وليسعى لدى الشيوخ وعربان الإمارات فى ذلك ، ويروى أنه جاءه كتاب من قنصل إيطاليا فى حديدة باليمن — وهو من أسرة الصولا بحلب يسمى فرديناند ميخائيل — فذكر فيه أنه اجتمع بالسيد عبد الرحمن الكواكبى أثناء هذا الطواف»(١) .

ولا تنفصل هذه الإشاعة عن إشاعة أخرى فحواها أن الدولة الإيطالية يسرت له الرحلة لأنها كانت تطمع فى نجاح المسعى إلى خلع الخلافة التركية منذ توجهت محاولاتها الاستعمارية إلى شواطىء البحر ، لعلها تستفيد من مصادقة الخلافة العربية المنتظرة بعد إقامتها على مقربة من مناطق نفوذها .

ولابد لكل ملتفت إلى هذه الإشاعة أو تلك من تفسير التناقض بين العمل للخديو عباس والعمل للإمامة العربية القرشية ، فان عباسا لا يبذل المال لمن يسعى فى إحباط مسعاه وإيثار سواه عليه ، ولا مصلحة للدولة الإيطالية فى إقامة الخلافة بأرض يحتلها الإنجليز ويسيطرون بها على شواطىء البحر الأحمر من شمالها إلى جنوبها ، وليس ارتباط الأسرتين المالكتين فى إيطاليا ومصر كافياً لحمل الدول الإيطالية على اتباع هذه السياسة ، فلابد إذن من التفسير القاطع للظنون بين قولين لايتفقان ، وإن اتفقا فى شىء واحد وهو حرب الخلافة العثمانية .

* * *

أما اتصال الكواكبى بالخديو عباس فيكفى فى تفسيره أن الكواكبى قد وصل إلى القاهرة خلال أزمة من الأزمات المستحكمة بين « عابدين » و« يلدز » وبين « عابدين » و«نقابة الأشراف» التى كان « أبو الهدى الصيادى» يتولاها فى عاصمة الخلافة ، فلا غرابة فى اتحاد الخطة بين الخديو وبين صاحب طبائع الاستبداد فى تلك

---

(١) مجلة الحديث (١٩٥١) ، وكتاب «عبد الرحمن الكواكبى» للدكتور سامى الدهان .

الفترة ، ولا فى التحالف بينهما على اتقاء الشر من دسائس « يلدز » ودسائس « نقابة الأشراف » فى آونة واحدة .

وكانت هذه الفترة من سنة ١٨٩٨ إلى سنة ١٩٠٢ أصلح الأوقات لانتفاع الكواكبى فى مساعيه بزيارة القاهرة . فانه استطاع أن ينشر مقالاته فى «المؤيد» صحيفة الخديوى الشبيهة بالرسمية ، ولولا ذلك لاضطر إلى الكتابة فى الصحف المتهمة بخدمة الاستعمار تعصباً منها للدول الأوربية على دولة الخلافة ، ولم يسلك هذا الطريق داع من دعاة الإصلاح فى العالم الإسلامى إلا تعثرت به السبل من خطواته الأولى .

ومضت هذه السنوات والخديو عباس يقاطع الآستانة ويأبى أن يقصد إليها فى رحلة الصيف قبل أن يفلح رسله إليها فى تسوية المشاكل المتعلقة بين يلدز وعابدين ، ومنها مشكلة قاضى مصر من قبـل الآستانة ، ومشكلة جزيرة « طشيوز » التى استردها السلطان من الأسرة الخديوية ، ومشكلةالصحافة التى تحمل على الدولة ويصرح المسئولون فى القصر السلطانى بانتمائها إلى الخديو ، أو بأن الخـديو على الأقل يقصر فى استخدام نفوذه لإسكاتها ، وقد غضب الخديو غضباً شديداً يوم علم أن حاشية السلطان اتصلت بالسفارة الإنجليزية تسألها أن تتوسط عند الوكالة البريطانية فى القاهرة لكف الحملة على السلطان فى صحافتها العربية والأجنبية . وقد سافر أحمد شفيق باشا إلى الآستانة فىصحبة الوالدة للاحتجاج على ذلك وعلى غيره من مسائل الخلاف بين الأمير التابع والسلطان المتبوع .

قال شفيق باشا فى مذكراته — أول مايو سنة ١٨٩٩ — إنه أثار هذه المسألة فى حديثه مع باشكاتب المابين وأبلغه أن الخديو يشعر بالإغضاء عنه « فى عدة مراقف آخرها أن المابينقصد إلى الحكومةالإنجليزية ليشكو إليها عدوانصحيفة من هذه الصحف تصـدر فى مصر . كأن الخديو وكيل للسلطان الشرعى غير موجود » .

وشاعت أخبار هذه المشاكل فى الدوائر السياسية بالآستانة فاستطلع السفراء أسرارها وتحدث غير واحد منهم إلى شفيق باشا عن حقيقتها ، ولا سيما سفراء الدول التى كانت تقاوم الاحتلال البريطانى ومنها يومئذ فرنسا وألمانيا وروسيا .

قال شفيق باشا : « وفى اليوم التالى زرت سفير فرنسا فسألنى عن سفر سمو الخديو للآستانة فأشرت إليه بأنه قد لا يأتى فى هذا العام نظراً لأشياء لا تشجع سموه على الزيارة ، ولما سألنى عنها بالحاح أخبرته موجزاً بمسألة الصحف فقال لى فى النهاية إن كل شىء يزول عند وجود سموه بالآستانة . ثم قال : إننى سأنتهز كل فرصة وأعرف السلطان بالحقيقة وأكرر عليه ماسبق أن قلته وهو أن من صالحه أن يجعل الخديو راضياً . لأن سموه لو خلع الطاعة لأوقع الخليفة فى ارتباك عظيم » .

ثم قال : «وزرت السفارة الروسية فقابلنى مكسيموف الترجمان الأول وله نفوذ عظيم فى المابين ورحب بى وقال لى إنه علم بمسألة الصحف فأسف لما وقع . . »

ومضى شفيق باشا يقول : « ... ثم ذهبت إلى المابين فلم ألق جديدا ، وهناك قابلت نجيب بك ملحمة القوميسير العالى للدولة فى البلغار ، فتعرفنا بعد قليل ، ودارت بيننا أحاديث أخبرنى خلالها أن جماعة أبى الهدى أرادوا اجتذابه نحوهم ، فطلبوا منه أن يرسل تقريرا ضد الحضرة الخديوية وكان الواسطة فى ذلك كريم أفندى صاحب جريدة تركيا التى تطبع فى مصر . ولكنه أخذ الأوراق التى تثبت ذلك ورفعها للسلطات فصدرت له الإرادة بحفظها عنده . . »

ونقل شفيق باشا فى مذكرات سنة ١٩٠١ « فى ٢٤ نوفمبر أبلغنى تحسين بك أن أبا الهدى تمكن من دخول السراى بعد أن كانت علاقته بها على غير مايرام ، وألقى بدسيسة ضد الخديوى مؤداها أن سموه تآمر مع رفعت باشا الصدر الأعظم الذى توفى أخيرا ، والقزلر أغاسى والمشير فؤاد باشا وغيرهم لخلع السلطان وتولية ولى العهد ، وأن المتآمرين أخذوا رشوة قدرها عشرون ألف جنيه بواسطة الكريدى ليونيه وأنى كنت الواسطة بين الخديوى ورشاد أفندى ولى العهد فى هذه المؤامرة . . »

وكان الخديو فى هذه الأثناء يسافر إلى الصحراء الغربية فيتلقى المابين تقارير الجواسيس بأنه « سيقابل هناك الشيخ جنينة وكيل السنوسى للمخابرة معه بشأن الخلافة العربية » .

وفى أول يونيو سنة ١٩٠١ كتب شفيق باشا فى مذكراته : « .. إن بطرس

غالى باشا ناظر الخارجية توجه من قبل كرومر إلى الخديو وأبلغه أن الحكومة الإنجليزية ورد لها بلاغ من سفير الدولة بلندرة يقول فيه إن سموه أخذ فى إرسال مدافع ونقود إلى الثائرين فى اليمن .. »

وقال بعد ذلك إنه « فى ٣١ أكتوبر طلبت للسراى وعرض على تحسين بك صورة منشور عليه توقيع الخديو بصفته خديويا يدعو المسلمين فيه للخروج على السلطان ومبايعته بالخلافة . . . ولكن جلالة الخليفة عرف أن هذه دسيسة »

ودامت هذه الجفوة إلى صيف سنة ١٩٠١ حين شعر الخديو بالتضييق عليه من قبل الإنجليز ، فأخذ فى التمهيد لإصلاح العلاقة بينه وبين السلطان ، وقرر السفر إلى الآستانة قبل أن تبلغه الدعوة السلطانية بالحضور إليها كما جرت بذلك مراسم المابين .

* * *

ولا ندرى هل كان الكواكبى يتحين الفرصة المؤاتية لسفره من حلب إلى القاهرة ؛ أو أنه نزل بها فوجد الفرصة مؤاتية له بعد وصوله إليها . ولكن هذه الفرصة كانت ضرورية له فى عمله فاستفاد منها أثناء مقامه بمصر وأنجز كل ما أراد إنجازه فيها قبل رحلاته إلى المشرق وقبل انقلاب الموقف وتراجع الخديو عن خطته الأولى . فسرعان ما « اعتدل الجو » بين « يلدز » و « عابدين » حتى جاءه النبأ من قبل الخديو يوحى إليه بما لا يخفى عليه . إذ عرض عليه أن يصحبه إلى الآستانة ليقدمه إلى السلطان ويعيده إلى حظيرة رضاه . ولم يكن ليخفى على الكواكبى مغزى هذا الاقتراح الصريح . فانه سواء قبل السفر إلى الآستانة أو اعتذر منه خليق أن يفهم أنه مطالب بالسكوت عن السلطان أو مبارحة البلاد ، إلا إذا شاء أن يمكث بها فى حماية الاحتلال .

ونحن لم نسمع بهذا الخبر من أصحاب الكواكبى الذين لقيناهم وسمعنا منهم الكثير من أخباره مع الخديو ومع الأستاذ الإمام ، وإنما نعول على رواية الأستاذ كرد على فى الجزء الثانى من مذكراته التى يقول فيها : « وجاءنى ذات ليلة يسمر معى فى دارى مع الحبيب رفيق بك العظم يستشيرنى فى أمر عظيم . قال : إن الخديو عباس عرض عليه أن يصحبه إلى الآستانة — وكان الخديو يصطاف فيها — ليقدمه إلى السلطان العثمانى ويستجلب رضاه عنه ، وبذلك تنحل هذه

المشادة ويطمئن خليفة الترك إليه . فصعب علىّ وعلى رفيق بك إبداء رأى فى موضوع جد خطير كهذا . لأن ابن عثمان لا تأخذه هوادة فيمن خرجوا على سلطانه ، وخشينا أن تكون هناك دسيسة يذهب الرجل ضحيتها ، ومما قال لنا ؛ إنه حائر فى أمره بين القبول والرفض ، وإنه شعر بالأمس بوجع فى ذراعه وما عرف له تعليلا ، وتقوض المجلس وذهب السيد الكواكبى إلى داره فما هى إلا ساعة وبعض ساعة حتى سمعت ابنه السيد كاظم فى الباب يبكى وينوح ، ويقول قم يا كرد على ، فان صديقك أبى مات . . »

وظاهر من سيرة الكواكبى فى القاهرة أنه لم يقم بها إقامة طويلة متوالية ، وإنما كانت إقامته بها متقطعة تتخللها الرحلة بعد الرحلة على النحو الذى تقدم بيانه فى ترجمته بأقلام أصدقائه .

أما المعلوم من أخبار إقامته بها فخلاصته أنه كان يؤثر السكن فى الأحياء الوطنية بين شارع محمد على والحى الحسينى إلى جوار الجامع الأزهر ، وكان يؤثر فى صحبته لمن يلقونه ويلقاهم أن يتجنب التحيز والتشيع لهذا الفريق من أصحاب الخصومات السياسية ، فكان يلقى الأستاذ الإمام وتلاميذه كما يلقى الشيخ على يوسف وزملاءه من أنصار السياسة الخديوية ، وكان يجتمع بكل من تجمعهم جلسة « سبلندد » وجلسة « يلدز » من أندية القاهرة المشهورة وبينهم طائفة من حزب «تركيا الفتاة» وطائفة من دعاة الجامعة الإسلامية ، وكان المتطرفون من جماعة «تركيا الفتاة» يستحبون الجلوس بقهوة يلدز تفاؤلا باحتلال « يلدز » الكبرى فى يوم من الأيام ، فاذا وجدوه هناك جلسوا إليه فلم يعرض عنهم ولم يخض معهم فى دعايتهم ، وربما كان بينهم أذناب مدسوسون من قبل السلطان عبد الحميد أو الشيخ أبى الهدى أو خدام الدسائس الأجنبية المتلبسون بلباس الوطنية ، فيعرفهم أو لا يعرفهم ثم لا يبالى أن يستمعوا إليه ويستمع إليهم ، وقد يعتصم بالصمت ساعات إذا تطرق بهم الحديث إلى غير ما يرتضيه .

وقد تعددت الروايات عن أخباره الأخيرة ليلة وفاته رحمه الله . فنها ما تقدم بيانه فى مذكرات الأستاذ كردعلى ، ومنه ماروواه أحد أصدقائه الشيخ صالح عيسى وكان مقيما فى مصر إذ يقول كما جاء فى عدد ينايرسنة ١٩٤٣ من مجلة

الكتاب : « وفى اليوم الخامس من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هجرية ورد على السيد عبد الرحمن من قبل حضرة الخديو — وكان مصطافاً فى الإسكندرية — بطاقة يدعوه فيها لحضور ضيافة يقيمها هذا اليوم فى إحدى سراياته فى الإسكندرية فأجاب السيد الدعوة وركب قطار السرعة وسار إلى الإسكندرية وقابل الحضرة الخديوية وحضر ضيافته وعاد إلى مصر من يومه، وفى الليل سهرنا معه فى مقهى ستانبول مع جماعة من أدباء مصر وأفاضلها يزيد عددهم على العشرة ، وكنت جالساً جانب السيد عبد الرحمن ولما صارت الساعة الرابعة عربية من تلك الليلة هممت بالقيام . لأن النوم غلبنى ، فاستدعانى إليه وكنت جالساً فى قربه، وقال لى: أحس بوجع شديد فى خاصرتى اليسرى وهو إذا دام معى ساعة أخرى ، فلا شك أنه يكون قاتلى . فقلت له : لا بأس عليك إن شاء الله . ثم انصرفت إلى منزلى ورقدت فى فراشى، وما كاد شفق الفجر يلهب فحمة الليل إلا والباب يطرق على . فنهضت من فراشى مسرعاً وقلت : من بالباب ؟ فأجابنى الطارق بقوله : أنا كاظم . إن أخاك والدى قد مات . فدهشت من هذا الخبر المفاجىء . . . » .

ونقل الدكتور سامى الدهان عن مجلة الحديث (١٩٤٠) رواية أخرى فقال:

« فى مساء الخميس ١٤ يونيو سنة ١٩٠٢ الموافق ٥ ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هجرية جلس فى مقهى يلدز قرب حديقة الأزبكية إلى أصحابه وأصدقائه وفيهم السيد رشيد رضا والأستاذ محمد كرد على وإبراهيم سليم النجار وشرب قهوة مرة ، وبعد نصف ساعة أحس بألم فى أمعائه فقام للحال وقصد مع ابنه السيد كاظم فى عربة حنطور إلى الدار وظل يقىء حتى قارب الليل منتصفه فأصيب بنوبة قلبية ضعيفة فأحس ابنه بالخطر وهب يستدعى أقرب طبيب من المحلة ، ولما عاد صحبة الطبيب وجد أباه قد فارق الحياة . . . وسرى الخبر صباح الجمعة فى مدينة القاهرة فأمر الخديو بدفن الكواكبى على نفقته الخاصة وأن يعجل بدفنه ، وأرسل مندوباً عنه لتشييعه ودفن فى قرافة باب الوزير فى سفح المقطم ، واحتفل له السيد على يوسف صاحب جريدة المؤيد بثلاث ليال حضر فيها القراء . . » .

ويكاد أصحاب هذه الروايات المختلفة عن وفاته رحمه الله يتفقون على ظن واحد سبق إلى الكثيرين ممن سمعوا بنعيه فى حينه ، فقد خطر لهم جميعاً أنه ذهب

ضحية الغدر والدسيسة بتدبير من أبى الهدى أو من جواسيس السلطان عبد الحميد ، وقال الأستاذ الغزى فى مجلة الحديث : « كأن وفاته كانت منتظرة . لأنها لم يمض عليها يوم أو بعض يوم إلا وقد اتصلت بمسامع السلطان عبد الحميد ، وعلى الفور أصدر إرادته إلى السيد عبد القادر القبانى — صاحب جريدة ثمرات الفنون التى كانت تصدر فى مدينة بيروت — لأن يهبط سريعاً ويقصد محل إقامة السيد ويحرز جميع ما يجده من الأوراق ويرسلها إلى المابين .. »

وما كان أحد فى ذلك العصر ليستبعد هذه الفعلة وأمثالها على المتهمين بها ، ولكن تحقيق الخبر للتاريخ لا تكفى فيه مظنة السوء ، وأرجح الأقوال فى هذا النبأ ما كتبه الأستاذ محمد لطفى جمعة فى مجلة الحديث (١٩٣٧) إذ يقول إنه « ذهب ضحية ذبحة صدرية ».. ويؤيد هذا القول ما شعر به الفقيد من أعراض الذبحة كوجع الذراع وألم الجنب الأيسر ، وما جاء فى النبأ الأخير عن إصابته بنوبة قلبية خفيفة تلتها نوبة الوفاة ، وربما كان للإعياء من أثر القىء فعله فى تحريك عوارض النوبة وتعجيل القضاء المحتوم .

وما كان باليقين الذى لا ظن فيه ، إلا ضحية الخيانة والظلم فيما تجنيان من داء يفعل فى النفوس ما تفعله السموم فى الأبدان .

* * *

وضريحه بالقاهرة فى مثواه الأخير بباب الوزير ، نقلته إليه مصلحة التنظيم بعد وفاته بنحو خمس عشرة سنة ، وعلى صفحته المرمرية هذان البيتان لحافظ ابراهيم :

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى   هنا خير مظلوم ، هنا خير كاتب
قفوا واقرءوا أم الكتاب وسلموا   عليه فهذا القبر قبر الكواكبى

الكِتَابُ الثَّانِي

برنامج إصلاح

فكر الكواكبي كثيراً ، وأطال التفكير ، في جميع المسائل التي بنى عليها دعوته إلى الإصلاح ، وهي دعوة محيطة بشئون الشرق الإسلامي في زمنه على الإجمال ، وشئون الشرق العربي على التخصيص ، وليست من الدعوات التي تتجه إلى ناحية واحدة أو تنحصر في جزء من أجزاء الحياة العامة التي تتفرق العناية بها بين أشتات من المصلحين .

وقد نهج في دعوته منهج العلم التجريبي أو الفلسفة العملية ، فنظر في جميع العلل وقدر جميع الوجوه ، واعتمد البحث في تلك العلل من ناحية النفي وناحية الإثبات ، فلايزال بالعلة المقدرة يتتبع أعراضها ويستقصي آثارها ويرى أين مكان الصواب من تطبيقها على الواقع وتفسيرها بالرأي ، وأين مكان النقض الذي تقصر فيه عن تفسير الواقع وموافقة الأحوال .

ويبدو لنا منهجه في التفكير والمراجعة من أسلوب كتابيه اللذين عرض فيهما آراءه في علل الضعف وشفعها بما يقترحه لعلاج ذلك الضعف والوقوف به عند حده واستئصال أسبابه ودواعيه .

فهو في كتاب « أم القرى » يختار أسلوب المساجلة بين طائفة من أصحاب الآراء ليعرض على لسان كل منهم وجهة نظر يشرحها من جانبه ويتلقى الرد عليها من مخالفيه ، ومنهم من يعلل الضعف بالجهل ومن يعلله بالفقر أو يعلله بالاستبداد أو يعلله بالخور والجبن وفساد الأخلاق ، أو يعلله بالتواكل والتسليم للمقادير ، ومنهم من يلقي التبعة فيه على الأمراء أو على العلماء أو على الخاصة دون العامة ، أو على العامة دون الخاصة ، ويعود باللائمة تارة على

المسلمين وتارة على أعداء الإسلام . ثم يتراءى للقارىء من بين مطارح الأفكار ومذاهب الحوار مبلغ كل علة من الأثر ومبلغ كل أثر من الأصالة فى الضرر ، ومبلغ الاشتراك بينها فى التأثير ، وأيها أحق بالابتداء أو أحق بالإرجاء .

وإنما يطلع القارىء فى الواقع على رأى مفكر واحد يذهب بالنظر فى شتى مذاهبه ويراجع نفسه فيما يعن له من خواطره التى طرأت له فامتحنها وثبت عليها أو عدل عنها .

أما أسلوبه فى كتاب « طبائع الاستبداد » فهو أسلوب التقسيم واستيفاء الكلام على كل موضوع من الموضوعات ، أخذاً ورداً ، وشرحاً واستدراكاً ، وتقليباً للفكرة على وجوهها ، كما تطورت فى ذهن صاحبها وتقدمت بين بداءتها ونهاية التفكير فيها ، وكل موضوع من موضوعات الكتاب عن الدين أو عن المجد أو عن العلم أو عن المال أو عن السياسة فهو مبحث مفروغ منه بين جوانب المناقشة وخواطر الظن والاستدراك وأدلة التشكيك والتفنيد ، مما ينم على بحث طويل فى ذلك الموضوع لم يقف عند سوانحه الأولى من الظن العاجل والرأى الفطير .

فمن اليسير — من أجل هذا — أن نسمى دعوة الكواكبى فلسفة اجتماعية أو نسميها مذهباً فلسفياً ينتظم بين مذاهب الحكماء المصلحين ، لأنها استلزمت من تفكير صاحبها كل ما يستلزمه مذهب الفيلسوف من التحقيق والروية والمراجعة والتوفيق بين النقائض ووجوه الاعتراض .

ولكننا لم نشأ أن نسميها فلسفة ولا مذهباً فلسفياً كسائر المذاهب التى عرفت بأسماء أصحابها أو بعناوين موضوعاتها ، لأن الدعوة هنا عمل يزيد على التفكير ، ولا ينتهى عند مجرد التفكير .

فالدعوة التى تسمى « فلسفة » تدور على البحث والنظر ثم تترك العمل على قواعدها لمن يؤمن بها ويقدر على تطبيقها ، وقد يكون البحث فيها مطلقاً غير محدود بزمن من الأزمنة أو بلد من البلدان ، ولكنه يرسل على إطلاقه كما ترسل القوانين الرياضية لمن يخترع لها أدواتها ويوفق بينها وبين مطالبها . فهى فكرة معلقة على زمن مجهول ومجال غير محدود .

ولا نحسب أننا نسمى دعوة الكواكبي باسمها الصحيح إذا سميناها « مذهباً فلسفياً » لنقول إنها هي « مذهب الكواكبي » فى الإصلاح . فان المألوف عن المذاهب أنها طريق يقابل طريقاً آخر أو طرقاً متعددة لتوضيح رأى أو تنفيذ عمل، ودعوة الكواكبي قد بلغت إلى مرحلة وراء المذهب ووراء الاختلاف عليه وجاوزت المذهب إلى القرار الذى يوضع موضع التنفيذ ولا يعوقه عنه إلا أن يتولاه العاملون .

فصاحب « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » لا يعرض لنا فكرة معلقة على مجال مجهول ، ولا يعرض لنا مذهباً نقابله بمذهب يعقب عليه ، ولكنه يعرض لنا « برنامجاً » يتبعه عمل ، وقراراً تنتهى إليه مذاهب الخلاف .

* * *

إن ذلك المنهج « العملى » لهو أجدر المناهج أن ينتظر من عقل كعقل الكواكبي فيما ورثه من استعداد الفطرة وفيما تعوده بتربيته وعمله ، فانه نشأ فى بيئة لم تزل من قديم الزمن ملتقى لحركات النشاط والدأب من أنحاء العالم ، وتربى فى أسرة تعرف الصناعة كما تعرف تكاليف الرئاسة الدينية والدنيوية ، وتولى أعمال الإدارة والتنظيم فى كثير من الوظائف التى يناط بها تنفيذ الخطط وإعداد المشروعات للتنفيذ ،وكاد أن يكون كل تقرير كتبه برنامجا لعمل يؤديه أو « مشروعاً » لبرنامج يقترح تنفيذه على غيره .

ونكاد نجزم بأنه بقى فى حلب قبل هجرته الأخيرة منها لأنه لم يكن قد فرغ من التفكير ولم تتقرر فى ذهنه فكرة صالحة للإنجاز أو صالحة لإقناع غيره بانجازها . فلما نضجت فى ذهنه هذه الفكرة وحصل فى يديه برنامج العمل لم يكن فى طاقته أن يبقى بعد ذلك ولو تهيأت له فى بلده أسباب البقاء . لأن بقاء المصلح العامل ولديه خطة محضرة للعمل خليق أن يقلقه أشد من قلق الخوف والخطر ، وحبس لقواه الجياشة بالحركة أشد من حبس القيد والاعتقال ، وقد يكون غريباً من رجل غير الكواكبي أن يمكث فى بلده ويؤلف الكتب التى تهدده فى مأمنه ، بل تهدده فى حياته ، ولا يخطر له أن يعقد العزم على الهجرة إلى بلد آخر يسطر فيه ما يدور فى خاطره وهو آمن على نفسه وعلى ثمرات تفكيره .

ذلك غريب من رجل غير الكواكبي قد يقنع بالتفكير ويحسب أنه لباب دعوته التي يتمم بها رسالة حياته ، فاذا خطر له أن ينجو بتلك الرسالة من الخطر أو المصادرة نجا بها وهي خاطر فى ذهنه قبل أن يجرى بها القلم فكرة مسجلة على ورق مقروء .

أما الرجل العامل بفطرته فالتفكير عنده تمهيد لرسالته ينتهى فينتهى معه القرار وتبدأ الحركة ، وإنه ليفكر ويراجع فكره ويستطيع القرار على التفكير والمراجعة إلى أن يتحول الفكر إلى برنامج مفصل وخطة محدودة ، ويومئذ لا قرار ولا انتظار .

فلما عقد النية على الهجرة خرج من بلده وفى جعبته ذلك البرنامج المحيط بكل جزء من أجزاء الدعوة وكل مقصد من مقاصد الإصلاح .

خرج من بلده وفى جعبته الرسالة التى يخشى عليها ، وغاية ما اتخذه من الحيطة أنه لم يعلن اسمه مع إعلان تلك الرسالة ، ولعله آثر الكتمان لأنه أعون له على الحركة والتنقل بين الأقطار ، واستر له ولمن يتحرجون من لقائه إذا انكشفت مقاصده وتبين العاجل والآجل من نياته ومساعيه ، ولا بد من مثل هذه الحيطة فى دور الاستطلاع وجس النبض ووزن الخطى بين العجلة والأناة .

* * *

وأياً كان النص الذى انتهت إليه عبارة المؤلف فى كتابيه الباقيين لقد كانت أعمال الإصلاح كما ينبغى أن يتولاها العاملون متى صحت عزيمتهم عليها ماثلة أمام بصيرته جلية المعالم فى خلده ، بعضها مشروح مسهب فى إيجاز وسهولة ، وبعضها مذكور كما تذكر رءوس المسائل للعودة إليها والإفاضة فيها ، ولكنها تكفى بتفصيلها وإجمالها لتنسيق برنامج العمل والإحاطة بأصوله وفروعه فيما يشمله الإصلاح من شئون الدين والدنيا .

وما من شيء يعوز البرنامج الذى يحيط بمطالب الإصلاح فى مسائل الدين والدولة ومسائل السياسة والأخلاق ومسائل الثقافة والثروة الاقتصادية والتربية الاجتماعية ، وهذه هى المسائل التى احتواها الكتابان على تفصيل أو إجمال ،

وعلى جلاء وثقة فيما فصل وفيما أجمل . ومن هذين الكتابين نستخلص ذلك البرنامج الحافل بغير كلفة ولا مشقة ، ونؤثر أحياناً أن نعتمد على عبارة المؤلف محافظة على منهجه وإثباتاً لما يتخلل السطور من مقاصده ونياته .

وسنرى بعد الإحاطة بآرائه ومقترحاته أن دعوة هذا المصلح العامل تنتظم فى عداد « الفلسفات » التى اشتهر بها حكماء الإصلاح والنظر ، ويصح أن تسمى بالفلسفة الكواكبية فى سياق المذاهب والآراء التى تنسب إلى أصحابها من الحكماء ، وإنما نختار لها اسم « البرنامج » لأن فيها مزية ليست فى مذاهب الفلسفة : إذ هى فلسفة محضرة للعمل ، بليغة فى باب الأعمال ، لأنها توافق مقتضى الحال.

الدّين

يتلخص الإصلاح الديني عند الكواكبي في تحرير الإسلام من الجمود والخرافة .

وأخطر آفات الجمود عنده أنه جعل المسلمين صورة مقلدة ونسخة مستعارة ، فهم مسلمون للذمة أسلافهم وليسوا بالمسلمين للذمة أنفسهم ، وهم مسلمون بالتبعية وليسوا مسلمين بالأصالة ، يدينون بالإسلام انقياداً منهم لمن تقدمهم ولا يحسبون أنهم أهل للخطاب على حدتهم ، وقد صدق فيهم ما نعاه الكتاب المبين على القائلين : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

وعلاج هذه الآفة أن يعاد بالدين إلى بساطته الأولى التي يسرت فهمه لمن تقبلوا دعوته في صدر الإسلام ولا تزال تيسره لمن يدعون إليه على بساطته وسهولته بين أبناء الشعوب الفطرية .

ومن واجب المسلمين في كل زمن أن يفهموا دينهم وأن يعرفوا حكمة فرائضهم وعقائدهم ، فليس من الإيمان الصحيح أن يحال الفهم على من سلف وأن ينقاد الخلف كله لغير ما عرف ، ولا يكمل إيمان المسلم بغير الفهم والاجتهاد في كل موطن من العالم وفي كل حقبة من الزمن ، فان تعذر اجتهاد المسلمين جميعاً فقيام العلماء بأمانة الاجتهاد فرض كفاية لا يسقط عن جيل من أجيالهم ولا سلامة لمن يسقطونه عن أنفسهم .

ولا يعفى المقلد من الفهم الذي هو قادر عليه . فان « العامة يهديهم العلماء مع بيان الدليل بقصد الإقناع . فالعلماء لا يجسرون على أن يفتوا في مسألة مطلقاً مالم يذكروا معها دليلها من الكتاب أو السنة أو الإجماع ، حتى لو كان المستفتى

أعجمياً أمياً لايفهم ما الدليل ، وطريقتهم هذه هى طريقة الصحابة كافة والتابعين عامة والأئمة المجتهدين والفقهاء الأولين من أهل القرون الأربعة أجمعين » .

وللمقلد أن يختار بين أقوال المجتهدين ولا حرج عليه، « فان البعض وصفوا المقلد لأحد المذاهب إذا أخذ فى بعض الأحكام بمذهب آخرملفقاً ، واستعملوا لفظة التلفيق فى مقام التلاعب بالدين أو الترقيع القبيح . والحال ليس ماسموه بالتلفيق إلا عين التقليد من كل الوجوه،ولابد لكل من أجاز التقليد أن يجيزه . لأنه إذا تأمل فى القضية يجد القياس أنه هكذا يجب على كل مسلم عاجز عن الاستهداء فى مسألة دينية بنفسه ويسأل عنها أهل الذكر . . . . وعلىهذا الاعتبار ما المانع للمسلم المقلد أن يتعلم كل مسألة من الطهارة والغسل والوضوء والصلاة من مجتهد أو فقيه تابع لمجتهد ؟ . . . . ولا يعقل أن يكلف هذا المقلد بأخذ دينه كله من عالم واحد . لأن الصحابة رضى عنهم مع اجتهادهم وتخالفهم فىالأحكام كان يصلى بعضهم خلف بعض مع حكم المؤتم منهم حسب اجتهاده بعدم صحة صلاة إمامة .. »(١) .

* * *

ويرى الكواكبى بحق ، أن الجمود والخرافة لا محل لها بين أتباع دين متسم بالبساطة والجلاء يأخذه خاصتهم وعامتهم ، مأخذ الفهم والبينة على حسب عقولهم ومصالحهم ، فان التدين على هذا العرف بمثابة بعثة متجددة يتلقاها المسلمون أبداً وكأنهم هم المسلمون الأولون جيلا بعد جيل .

ولم يغفل الكواكبى عن خطته العملية لتحقيق الإصلاح فى هذا الباب . فانه يذكر صفة العالم الذى يؤهله علمه للاجتهاد بالرأى والإقناع بالدليل ، ويذكر موضوعاتالكتب ودرجات هذه الموضوعات التى يتكفل علماء الإسلام بنشرها للعمل بها أو لفائدة المقلدين على تفاوتهم فى القدرة على الاستفادة من المطالعة والمراجعة .

---

(١) أم القرى

فينبغي للعالم المجتهد :

« أولا » أن يكون عارفاً باللغة العربية المضرية القرشية بالتعلم والمزاولة معرفة كفاية لفهم الخطاب لا معرفة إحاطة بالمفردات ومجازاتها وبقواعد الصرف وشواذه والنحو وتفصيلاته والبيان وخلافاته والبديع وتكلفاته مما لا يتيسر إتقانه إلا لمن يفنى ثلثى عمره فيه ، مع أنه لا طائل تحته ولا لزوم لأكثره إلا لمن أراد الأدب .

« ثانياً » أن يكون قارئاً كتاب الله تعالى قراءة فهم للمتبادر من معانى مفرداته وتراكيبه مع الاطلاع على أسباب النزول ومواقع الكلام من كتبها المدونة المأخوذة من السنة والآثار وتفاسير الرسول عليه السلام أوتفاسير أصحابه عليهم الرضوان ، ومن المعلوم أن آيات الأحكام لا تجاوز المائة والخمسين آية عداً .

« ثالثاً » أن يكون متضلعاً فى السنة النبوية المدونة على عهد التابعين وتابعيهم أو تابعى تابعيهم فقط . بدون قيد بمائة ألف أو مائتى ألف حديث ، بل يكفيه ما كفى مالكا فى موطأه وأحمد فى مسنده . ومن المعلوم أن أحاديث الأحكام لا تجاوز الألف وخمسمائة حديث أبدا .

« رابعاً » أن يكون واسع الاطلاع على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأحوالهم من كتب السير القديمة والتواريخ المعتبرة لأهل الحديث كالحافظ الذهبى وابن كثير ومن قبلهم ، وكابن جرير وابن قتيبة ومن قبلهم كذلك ، والزهرى وأضرابهم .

« خامسا » أن يكون صاحب عقل سليم فطرى لم يفسد ذهنه بالمنطق والجدل التعليميين والفلسفة اليونانية والإلهيات الفيثاغورية وبأبحاث الكلام وعقائد الحكماء ونزعات المعتزلة وإغرابات الصوفية وتشديدات الخوارج وتخريجات الفقهاء المتأخرين وحشويات الموسوسين وترويقات المرائين وتمريقات المدلسين .

وعلى العلماء المجتهدين أن ييسروا لكل من المقلدين أن يأخذ من أحكام الدين ما هو أهل لفهمه حسب طاقته . فيقسمون المسائل « على مراتب فى متون مخصوصة فيعقدون لكل مذهب من المذاهب كتابا فى العبادات ينقسم إلى أبواب وفصول تذكر فى كل منها الفرائض والواجبات فقط . وتنطوى ضمنها الشرائط والأحكام

بحيث يقال إن هذه الأحكام فى هذه المذاهب هى أقل ما تجوز به العبادات ، ويعقدون كتاباً آخر ينقسم إلى عين تلك الأبواب والفصول تذكر فيها السنن بحيث يقال إن هذه الأحكام ينبغى رعايتها فى أكثر الأوقات . ثم كتاب ثالثاً مثل الأولين تذكر فيه سنن الزوائد بحيث يقال إن هذه الأحكام رعايتها أولى من تركها . وعلى هذا النسق يوضع كتاب للمنهيات يقسم إلى أبواب وفصول تعد فيها المكفرات والكبائر وكذا الصغائر والمكروهات ، ومثل ذلك تقسم كتب المعاملات على طبقات من الأحكام الإجماعية أو الاجتهادية أو الاستحسانية . وبمثل هذا الترتيب يسهل على كل من العامة أن يعرف ما هو مكلف به فى دينه فيعمل به على حسب مراتبه وإمكانه . وبهذه الصورة تظهر سماحة الدين الحنيف » (١) .

* * *

ويؤخذ من جملة الشروح والمساجلات فى كتابى « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » أن الكواكبى يهتم أشد الاهتمام باغلاق الباب على طوائف الوسطاء المحترفين فى المسائل الدينية ، إذ لامنفذ لوساطة الوسطاء فى دين يعرفه المجتهدون من أتباعه فى كل زمن ، ويعرفه المقلدون على بساطته الأولى مع السؤال عن الدليل الواضح عند التباس الأمر عليهم بين المباح والممنوع .

ولكن هؤلاء الوسطاء يكثرون ويتشعبون حيث يحاط الدين بالخفايا والأسرار ويتوارى خلف حجب الغموض والتهويل ويمتنع فيه الاجتهاد بالدليل والسند المعلوم ، ومن ثم تنجم الحاجة إلى الوسطاء من أشباه الكهان وأدعياء الخوارق والكرامات ، ممن يستغلون الدين لخدمة أنفسهم أو لخدمة الحاكمين المسخرين لهم على سنة التبادل فى المنفعة والتعاون على التضليل وقيادة الرعية المستسلمة بالتمويه والتضليل .

قال الأستاذ من فصل الاستبداد والعلم : « إن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشىء عن الجهل فاذا ارتفع الجهل زال الخوف وانقلب الوضع ، أى انقلب المستبد رغم طبعه إلى وكيل أمين يهاب الحساب ورئيس عادل يخشى الانتقام » .

واستغلال الجهل على ضروب تتسع فيها الحيلة لطوائف شتى من المشعوذين

---

(١) أم القرى .

والدجالين وأصحاب السحر والتعاويذ ممن تروج بضاعتهم مع الغفلة والرهبة وتنكشف حقيقتهم مع الفهم والحرية ، ومنهم علماء السوء وأدعياء التصوف والعبادة وأشباههم من المدلسين الذين يسمون أنفسهم بأهل الباطن ويعنيهم أن يجعلوا السر حكراً ، ليستأثروا بتجارته ويساوموا عليه فى أسواق المطامع والدسائس مساومة الغبن والخداع .

قال من فصل الاستبداد والدين فى طبائع الاستبداد : « إن قيام المستبدين من أمثال أبناء داود وقسطنطين فى تأييد نشر الدين بين رعاياهم ، وانتصار مثل فيليب الثانى الأسبانى وهنرى الثامن الإنجليزى . . . والحاكم الفاطمى والسلاطين الأعاجم المنتصرين لغلاة الصوفية والبانين التكايا لم يكن ذلك كله إلا بقصد الاستعانة بالدين أو بأهل الدين على ظلم المساكين »

ويرى الكواكبي أن المتشددين من رجال الدين مسئولون كالحكام المستبدين عن شيوع التصوف الفاسد بين العامة وأشباه العامة من المسلمين المتقدمين والمتأخرين ، لأنهم جعلوا الدين حرجاً ثقيلا على النفوس فمهدوا الطريق لمن يبيحون المحظورات باسم العلم « الباطن » والمعرفة الخفية التى ترفع التكليف عن الواصلين إلى الهداية من غير طريق الشريعة الظاهرة ولولا العنت المرهق من أولئك المتشددين لما راجت سوق التصوف المكذوب . . . قال بلسان الشيخ السندى : « فبناء على هذا التضييق صار المسلم لا يرى لنفسه فرجا إلا بالالتجاء إلى صوفية الزمان الذين يهونون عليه الدين كل التهوين ، وهم القائلون إن العلم حجاب ، وبلمحة تقع الصلحة ، وبنظرة من المرشد الكامل يصير الشقى ولياً ، وبنفخة فى وجه المريد ، أو تفلة فى فمه ، تطيعه الأفعى وتحترمه العقرب التى لدغت صاحب الغار عليه الرضوان ، وتدخل تحت أمره قوانين الطبيعة ، وهم المقررون بأن الولاية لا ينافيها ارتكاب الكبائر كلها إلا الكذب ، وأن الاعتقاد أولى من الانتقاد ، وأن الاعتراض يوجب الحرمان ، أى أن تحسين الظن بالفساق والفجار أولى من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إلى غير ذلك من الأقوال المهونة للدين والأعمال التى تجعله نوعا من اللهو الذى تستأنس به نفوس الجاهلين » .

قال : « على أن الناس لو وجدوا الصوفية الحقيقيين . وأين هم ؟ . . لفروا منهم فرارهم من الأسد . إذ ليس عند هؤلاء إلا التوسل بالأسباب العادية الشاقة

لتطهير النفوس من أمراض إفراط الشهوات وتصفية القلوب من شوائب الشره فى حب الدنيا وحمل الطبائع بوسائل القهر والتمرين على الاستئناس بالله وبعبادته عوضاً عن الملاهى المضرة ، طلباً للراحة الفكرية والعيشة الهنية فى الحياة الدنيا، والسعادة الأبدية فى الآخرة . وأين التهوين السالف البيان لصوفية الزمان من هذه المطالب التهذيبية ؟ »

* * *

على أن مصلحنا العامل قد نجا به إيمانه من تلك النظرة الضيقة التى تغلب على كثير من المصلحين الواقعيين الذين يقصرون نظراتهم إلى الإصلاح الدينى على الشعائر وظواهر العبادات كديدنهم فى الاهتمام بما تقع عليه المشاهدة ويحصره الحس والاكتفاء به عما وراءه من طوايا النفس وكوامن الضمير .

فلم يكن « الكواكبى » مصلحاً دينياً على هذا النحو الضيق المحدود ، بل كانت عنايته بالشعائر والظواهر المحسوسة سبيلا إلى تصحيح جوهر الدين فى أصوله التى انطوت عليها الطبائع الإنسانية ، وكان إيمان الضمير عنده هو قوام الدين كله ، وفضيلة الإسلام فى اعتقاده أنه دين الإيمان على خلاف أديان المراسم والتقاليد التى أفسدتها الوثنية وبقاياها فأوشكت أن تصبح كلها أشكالا وصوراً مجردة من روح العقيدة وهداية الإلهام .

فاذا انقسمت الديانات إلى ديانات إيمان وديانات مراسم وتقاليد فالإسلام فى طليعة الديانات التى يغلب فيها الإيمان على المراسم الشكلية والتقاليد النقلية وتفتح الباب على مصراعيه لوساطة الكهان وسلطان الهياكل والمحاريب .

وفى غير موضع من مساجلاته يذكر هذا الإيمان الأصيل فى البديهة الإنسانية فهو تارة « ناموس شريف واحد مودع فى فطرة الإنسان، وهو إذعانه الفطرى للقوة الغالبة ، أى معرفته الله بالإلهام الفطرى الذى هو إلهام النفس رشدها وإلهامها فجورها وتقواها . ولا ريب أن لهذه الفطرة الدينية فى الإنسان علاقة عظمى بشئون حياته لأنها أقوى وأفضل وازع يعدّل سائر نواميسه المضرة ويخفف مرارة الحياة التى لا يسلم منها ابن أنثى . . . »

ويعود بعد قليل فيقول : « إن النوع الإنسانى مفطور على الشعور بوجود قوة غالبة عاقلة لا تتكيف تتصرف فى الكائنات على نواميس منتظمة . . . وإن

هذا الشعور يختلف قوة وضعفا حسب ضعف النفس وقوتها ويختلف الناس فى تصور ماهية هذه القوة حسب مراتب الإدراك فيهم أو حسبما يصادفهم من التلقى عن غيرهم . وذلك هو الضلال والهداية . على أن الضلال غالب لأن موازين العقول البشرية مهما كانت واسعة قوية لا تسع ولا تتحمل وزن جبال الأزلية والأبدية . . »

ثم يقول بعد استطراد : « إن أصل الإيمان بوجود الصانع أمر فطرى فى البشر كما تقدم ، فلا يحتاجون فيه إلى الرسل وإنما حاجتهم إليهم فى الاهتداء إلى كيفية الإيمان بالله كما يجب من التوحيد والتنزيه » .

وقد ثبت عنده كما قال : « ما يقرره الأخلاقيون من أنه لا يصح وصف صنف من الناس بلا دين لهم مطلقاً . بل كل إنسان يدين بدين إما صحيح أو فاسد من أصل صحيح ، وإما باطل أو فاسد من أصل باطل . . . »

ومن ثم يتلخص كل إصلاح دينى نهض به الكواكبى فى تصحيح الإيمان واعتبار الشعائر والفرائض آية على صحة الإيمان ، تدل على سلامته بمقدار سلامتها من تشبيهات الوثنية وعوارض الشرك والزيغ عن الوحدانية ، ولا بقاء للظلم والفساد مع هـذا الإيمان ، ولكنهما قد يبقيان ويطول بقاؤهما مع قيام الشعائر التى فارقتها روح الدين ولم يتخلف منها غير الرسوم والأشكال .

قال فى كلامه عن الاستبداد والترقى فى طبائع الاستبداد : « ولا أظنكم تجهلون أن كلمة الشهادة والصوم والصلاة والحج والزكاة كلها لا تغنى شيئاً مع فقد الإيمان ، إنما يكون القيام حينئذ بهذه الشعائر قياماً بعادات وتقليدات وهوسات ، تضيع بها الأموال والأوقات » .

* * *

هذا الإيمان هو قوة الإسلام ، وهو مبعث الغيرة التى تثير المؤمن على البغى والغشم لأنهما استعباد يأنف منه من يرفض العبادة لغير الله .

ولهذا يعقب الكواكبى بعد تلك العبارة قائلا : « إن الدين يكلفكم إن كنتم مسلمين ، والحكمة تلزمكم إن كنتم عاقلين ، أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر جهدكم ، ولا أقل فى هذا الباب من إبطانكم البغضاء للظالمين والفاسقين » .

* * *

ومما يذكر من محرجات الإصلاح الديني فى عصر الكواكبى بصفة خاصة أن أزمته لم تكن أزمة إصلاح ولا أزمة شعب يعانى مشكلاته الاجتماعية من هذه الناحية . ولكنها كانت أزمة الدين نفسه ، بل أزمة العقيدة الروحانية على اختلاف الأديان فى بلاد الحضارة . لأنها كانت أزمة الاصطدام بين الدين والعلم من أواخر القرن الثامن عشر إلى الحقبة التى نشأ فيها الكواكبى فى القرن الذى تلاه ولاحقته آثاره ولم تزل تلاحقه إلى أخريات أيامـه فى أوائل القرن العشرين .

وقد اصطدمت العقائد الدينية فى الغرب بكشوف العلم الحديث ومذاهب التفكير العصرية فاضطربت الأفكار وشاعت الشكوك ونزع الكثيرون من الناشئين إلى التعطيل وإنكار الدين واقترن الإنكار بإباحة المحرمات والترخص فى الشهوات والاسترسال مع غواية الحياة المادية التى وافقت أهواء المنكرين ، فخيل إلى الناس فى أمم الحضارة الغربية أن الدين مسألة مفروغ منها قد لحقت بآثار القرون الغابرة ، وأن التحدث عن الإصلاح الدينى مشغلة فراغ يضيع فيها الوقت على غير جدوى .

واقتربت هذه الصدمة من الشرق مع اقتراب العلوم الحديثة والدعوات الاجتماعية المتطرفة فكان لها أثرها الطبيعى بين المسلمين وغيرهم من الشرقيين على حسب نصيبهم من العلم العصرى والتربية الدينية وتقاليد المعيشة البيتية .

فمن المتعلمين على النظم الأوربية طائفة أخذت بالقشور من العلم الحديث وقل نصيبها من معرفة الدين واستهواها حب التشبه بالأقوياء الظافرين وخلبتها فتنة الحضارة وزخرف الحياة المادية فتحللت من أواصر دينها وهان عليها أمر العقيدة وأمر الوطن فلم يبق لها من الغيرة الدينية ولامن النخوة القومية غير المظهر والعنوان .

والكواكبى ينفض يديه من هذه الطائفة ولايترجى منها خيراً لإصلاح دينها ولا لإصلاح دنياها ، وفيهـا يقول من كلامه فى الاجتماع الثامن من مؤتمر أم القرى : « وأما الناشئة المتفرنجة فلاخير فيهم لأنفسهم فضلا عن أن ينفعوا

أقوامهم وأوطانهم ، وذلك لأنهم لاخلاق لهم ، تتجاذبهم الأهواء كيف شاءت ، لايتبعون مسلكاً ولا يسيرون على ناموس مطرد ، لأنهم يحكمون الحكمة فيفتخرون بدينهم ولكن لايعملون به تهاونا وكسلا ، ويرون غيرهم من الأمم يتباهون بأقوامهم فيستحسنون عاداتهم ومميزاتهم فيميلون لمناظرتهم ولا يقوون على ترك التفرنج كأنهم خلقوا أتباعاً ، ويجدون الناس يعشقون أوطانهم فيندفعون للتشبه بهم فى التشبيب والإحساس فقط دون التشبث بالأعمال التى يستوجبها الحب الصادق ، والحاصل أن شئون الناشئة المتفرنجة لا تخرج عن تذبذب وتلون ونفاق يجمعها وصف لاخلاق . . . والواهنة خير منهم متمسكون بالدين ولو رياء ، وبالطاعة ولو عمياء » .

والجامدون الذين سماهم بالواهنة وقال عنهم إنهم متمسكون بالدين ولو من قبيل الرياء ، يفترقون إلى فريقين بين جاهل لا يعرف شيئاً من العلم الحديث ولا من علوم دينه ، ومتعلم درس الدين على أساتذة من المقلدين مزجوا الدين بالخرافة ولم يسلموا من علل الوهن والنفاق ، وكلا الفريقين يجهل علوم دينه كما يجهل علوم عصره وتصدمه هذه العلوم الحديثة صدمة الجديد المستغرب فينفر منها ويتبرم بها ويحذرها حذره من الكفر البواح ، ولا يكلف نفسه مئونة البحث ، لأن مجرد البحث فيها مدرجة إلى الكفر وأحبولة من أحابيل الضلال.

وهذه الطائفة هى « المصاب » الذى يراد الإصلاح الدينى لتقويمه وإخراجه من ظلماته ، فلا أمل فى معونته على رسالة الإصلاح .

والطائفة المثلى — ومنها الكواكبى — طائفة الرواد السابقين الذين أفلتوا من إرهاق الجمود وتمردوا على أوهام الخرافة واطلعوا على حظ حسن من العلم الحديث ، فوضح لهم أنه يرتهن به التقدم وتستمد منه القوة التى يصول بها الأوربيون على بلادهم ، وأنه هو العلم الذى يدعوهم إليه كتابهم ويحضهم عليه فى كل آية من آيات الأمر بالتفكير والتدبر والنظر فى ملكوت السماء والأرض والعمل الصالح فى سبيل الدين والدنيا .

وتنقسم هذه الطائفة أيضاً إلى فريقين : أحدهما يرى أن العلم الحديث مطلب مباح بل فريضة واجبة توافق الدين ولا تناقضه فى جملتها ولا فى تفصيلاتها .

والفريق الآخر يذهب وراء هـذا الاعتقاد فى العلوم الحديثة خطوة أو خطوات ، فيحاول أن يبين مكانها من القرآن الكريم وأن يردها إلى آيات تحتويها وتتقبل التفسير بمعانيها ، وكذلك صنع الكواكبي رحمه الله فيما كتبه بقلمه أو فيما أسنده إلى غيره ، وأفاض فيه بكلامه عن الاستبداد والدين فى طبائع الاستبداد حيث يقول :

« .. لو أطلق للعلماء عنان التدقيق وحرية الرأى والتأليف كما أطلق لأهل التأويل والخرافات لرأوا فى آيات القرآن آيات من الإعجاز ، ورأوا فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان تبرهن إعجازه بصدق قوله : « ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » .

« برهان عيان لا مجرد تسليم وإيمان . ومثال ذلك أن العلم كشف فى هـذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لـكاشفيها ومخترعيها من علماء أوربة وأمريكا ، والمدقق فى القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به فى القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا ، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن ، شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه .

« وذلك أنهم قد كشفوا أن مادة الـكون هى الأثير ، وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان)

« وكشفوا أن الـكائنات فى حركة دائمة ، والقرآن يقول : (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) . إلى أن يقول : (وكل فى فلك يسبحون) .

« وحققوا أن الأرض منفتقة فى النظام الشمسى ، والقرآن يقول : (أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) .

« وحققوا أن القمر منشق من الأرض ، والقرآن يقول : (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) . ويقول : (اقتربت الساعة وانشق القمر)

« وحققوا أن طبقات الأرض سبع ، والقرآن يقول : (خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن)

« وحققوا أنه لولا الجبال لاقتضى الثقل النوعى أن تميد الأرض أى ترتج فى دورتها ، والقرآن يقول : (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) .

« وكشفوا أن التغيير فى التركيب الكيماوى بل والمعنوى — ناشىء عن تخالف نسبة المقادير ، والقرآن يقول : (وكل شىء عنده بمقدار) .

« وكشفوا أن للجمادات حياة قائمة بماء التبلور ، والقرآن يقول : (وجعلنا من الماء كل شىء حى) .

« وحققوا أن العالم العضوى — ومنه الإنسان — ترقى من الجماد ، والقرآن يقول : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) .

« وكشفوا ناموس اللقاح العام فى النبات ، والقرآن يقول : (خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض) . ويقول : (فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) ، ويقول : (اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) ، ويقول : (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين) .

« وكشفوا طريقة إمساك الظل أى التصوير الشمسى ، والقرآن يقول : (ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) .

« وكشفوا تسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء ، والقرآن يقول بعد ذكره الدواب والجوارى بالريح : (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) .

« وكشفوا وجود الميكروب وتأثيره فى الجدرى وغيره من المرض ، والقرآن يقول : (وأرسلنا عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل) . . أى من طين المستنقعات اليابس .

« إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس الطبيعية ، وبالقياس إلى ما تقدم ذكره يقتضى أن كثيراً من آياته سينكشف سرها فى المستقبل فى وقتها المرهون . . »

* * *

هذه الفكرة الضافية عن التوفيق بين الإسلام والعلم الحديث هى إحدى الأفكار الأساسية فى دعوة الكواكبى إلى الإصلاح فى جميع نواحيه ، إذ كان الإصلاح الدينى عنده غير منفصل عن إصلاح المجتمع كله فى شئونه الدنيوية ،

وكانت فكرة ملازمة له منذ أخذ فى الاطلاع على مراجع العلوم العصرية ، فان اطلاعه على تلك الكشوف التى أحصاها جميعاً لا يتم فى وقت واحد ولا بد له من أوقات متتابعة يتخللها النظر والتأمل ويعود إليها بالمراجعة والمقارنة . فان لم تكن فكرته هذه مما استوحاه فى مطالعاته الطويلة فلعله قد استوحاها من دعاة التوفيق بين الدين والعلم الذين سبقوه إلى النظر فى "مشكلات العقيدة والتفكير منذ دعت الحاجة إلى وحدة التشريع . كما حدث فى الدولة العثمانية للتوفيق بين الأقضية المختلفة التى تطبق على رعاياها حسب اختلافهم فى الجنس والملة ، وسواء خطرت له فكرة الوفاق بين الإسلام والعلم الحديث ابتداء من أثر مطالعاته الخاصة أو كانت إحدى خواطر العصر الشائعة على ألسنة المستنيرين لقد تطورت فى ذهنه وعاود النظر فيها حيناً بعد حين سنوات غير قليلة . فقد كانت فى ذهنه قبل أن يكتب « أم القرى » وظلت فى ذهنه إلى أن أودعها مقالاته عن طبائع الاستبداد وزاد عليها ما استفاده من مطالعاته فى هذه الأثناء .

ومما يلاحظ أن هذه الكشوف العلمية التى أوجز الإشارة إليها يوشك أن تحيط باحصاء كشوف العلم الحديث فى المسائل الكونية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كأنه ينقلها من سجل محفوظ ، وهى ملاحظة ينبغى أن نتنبه إليها لنعلم منها قوة اندفاع الأفكار الحديثة إلى البلاد الشرقية ومبلغ سريانها بين من يعرفون اللغات الأوربية ومن يجهلونها . فان الكواكبى لم يكن على علم بلغة من اللغات الأوربية يساعدة على المطالعة فيها ، ولكنه قرأ أخبار الكشوف الحديثة واستقصاها كما يستقصيها غير المختصين بها من الأوربيين أنفسهم فى بلادهم ، وتلك علامة قوية من علامات الصدمة التى أحسها الشرق بعد هزيمته أمام الغرب فى غارات الاستعمار ، ولنا أن نقول إنها كذلك علامة على اليقظة السريعة بعد تلك الصدمة الوجيعة ، لأن سريان الفتوح العلمية مع الفتوح السياسية تشهد للشرق شهادة حسنة بالقياس إلى زمانها ، وأقل ما فى هذه الشهادة أنه تلقى الصدمة مفتوح العينين ليرى — وهو متنبه من غفوته — جهد ما يقدر أن يراه .

وكان رد الفعل سريعاً كما نتبين الآن من موقف الكواكبى وإخوانه رواد الدعوة إلى الإصلاح كان رد الفعل بين مصلحى الإسلام أسلم وأقوم وأدعى

إلى الثقة والرجاء من رده العنيف بين الأوربيين : هناك كانت الأزمة أزمة الدين عند كثير من اليائسين ، وهنا لم تكن للدين أزمة عند عارفيه ، ولكنها أزمة الجهلاء به وبالعلم الحديث بين أهله ، أو كانت أزمة الإقناع والاستنهاض لمحاربة الجهل بالدين الخالد والعلم الحديث على السواء .

ويقتضينا تقدير الكواكبي فى هذا المقام أن نذكر الفارق بين نظرته إلى العلوم الدخيلة التى طرأت على الفكر الإسلامى حوالى القرن الثالث للهجرة ، وبين نظرته إلى العلوم الدخيلة التى تلقاها المسلمون والشرقيون بعد ذلك بعشرة قرون ، وهى من علوم النهضة الأوربية الحديثة .

إن هذا الفارق بين نظرة الكواكبي إلى أثر الفلسفة اليونانية وأثر العلم العصرى لهو آية من الآيات العديدة على استقامة النظرة العملية فى تفكير هذا المصلح الحكيم ، لأنه يتجه إلى الهدف المقصود بعد تثبيته والتيقن منه ، ولا يبدد فكره وعزمه فيما يتشعب حوله من مطارح الظنون وأباطيل الأوهام على غير طائل ، وهدفه هنا هو الإصلاح الدينى فى تجربته العملية ، وخلاصة هذا الإصلاح الدينى أنه هو العودة بالإسلام إلى بساطته الأولى ، وقوامها الأول إيمان الضمير .

فالكواكبي لا يحفل — أمام هذا الهدف — بفلسفة اليونان من الوجهة النظرية ، ولا يقومها فى ميزان دعوته بقيمتها فى الورق أو قيمتها فى رءوس طلابها المنقطعين لها ، وإنما يحكم على أثرها فى التفكير الإسلامى حين يحكم على مذاهب أتباعها من المسلمين ، وعلى أخلاط الوثنية التى اصطبغت بصبغتها واتخذت لها ألواناً من التصوف الكاذب ، ومن التعمق الأجوف الذى تأباه بساطة الإسلام .

فالفلسفة اليونانية فى ميزانه هى تلك الأخلاط العقيمة التى قال عنها بلسان المحدث النجدى وهو يصف العالم المجتهد ويشترط فيه : « أن يكون صاحب عقل سليم فطرى لم يفسد ذهنه بالمنطق والجدل التعليميين ، والفلسفة اليونانية والإلهيات الفيثاغورية ، وبأبحاث الكلام وعقائد الحكماء ونزعات المعتزلة وإغرابات الصوفية وتشديدات الخوارج وتخريجات الفقهاء المتأخرين وحشويات الموسوسين .. »

وهى التى عناها حين قال بلسان البليغ القدسى عن الدخلاء : « إنهم رجحوا الأخذ بما يلائم بقايا نزعاتهم الوثنية فاتخذ العمال السياسيون ــ ولاسيما المتطرفون منهم ــ هذا التخالف فى الأحكام وسائل للانقسام والاستقلال السياسى فنشأ عن ذلك أن تفرقت المملكة الإسلامية إلى طوائف متباينة مذهبا ، متعادية سياسة ، متكافحة على الدوام . وهكذا خرج الدين من حضانة أهله وتفرقت كلمة الأمة فطمع بها أعداؤها .. »

وتلك الفلسفة التى جعل صلاح المسلمين مرهونا بتطهير العقيدة الإسلامية من بقاياها ؛ هى منطق الجدل الذى قال إن الغربيين أهملوه وحققوا أنه لا ثمرة له « مع أنهم يعتنون بالبحث عن وسائط تفاهم العجماوات » .

ونحسب أن حسنات المنطق وفلسفاته التى تتشعب منه أحرى أن تقبح فى عينى أنصاره وعشاقه إذا وازنوا بين فوائده ومضاره كما لمسها الكواكبى فى عصره وفيما تقدمه من عصور الثقافة الإسلامية .. فان أحسن ما فى المنطق وفلسفاته الجدلية لا يعدو أن يكون تمرينات عقلية يتدرب بها الذهن على فتح أبواب البحث فى المسائل النظرية ومسائل الغيب ــ أو ما وراء الطبيعة ــ التى قلما تسفر عن نتيجة قاطعة فى موضوع من موضوعاتها ، ومن خصائص هذه الموضوعات أنها ثقافة فردية يديرها المفكر فى تأملاته بينه وبين نفسه ولا تتألف منها دراسة عامة تتداولها الجماعات وتنتفع بها فى مرافقها ومطالب تفكيرها ، وقد غابت هذه الفلسفات الجدلية عن ميادين الثقافة الأوربية قبل النهضة العلمية فلم يكن غيابها ليعوق ظهور العلوم التجريبية ولا ليعوق ظهور الصناعات والمخترعات التى تفتقت عنها تلك العلوم ، بل يجوز أن يقال إن تلك العلوم قد ظهرت على الرغم من اعتراض المناطقة والمتفلسفين عليها وإنكارهم لوسائلها وأساليبها . إذ كان المناطقة المتفلسفون يصرون على آرائهم التى تقوم على براهين الجدل والمناظرة ويرفضون ما عدا تلك الآراء من قواعد البحث والتجربة . فغياب الفلسفات الجدلية لم يعطل فى الغرب نهضة العلوم والصناعات ، بل قليلها الذى بقى بين أنصاره وعشاقه هو الذى عطلها وأوشك أن يغلق عليها منافذها .

وهذه هى الفلسفات المنطقية على أحسنها فى أضيق حدودها فلا جرم تنزوى

عن أعين أنصارها وعشاقها ــ فضلا عن منكريها إذا حكموا عليها بأضرارها ونظروا إلى جرائرها التى تخلفت عنها كلما وصلت إلى عقول الجماعات وتلبست بالمذاهب والمعتقدات وانتشرت على الصورة التى تنتشر بها الأفكار بين العامة وأشباه العامة ، وتنتقل بها من لغة الرموز الخيالية والفروض المحتملة إلى لغة الواقع المجسم والشعائر المحسوسة والأشباح الظاهرة التى تعقلها الجماعات ولا تعقل فيما بينها فكرة مشتركة سواها .

إن أضرار الفلسفات الجدلية كانت حقيقة واقعة فى كل أمة تسربت إليها ، وكان أثرها فى الأمة الإسلامية شبيهاً بأثرها بين اليهود وبين المسيحيين وبين أتباع « زرادشت » من المتقدمين والمتأخرين ، لجاجة لا تنتهى وخصومات لا تنحسم ومماحكات على الصغائر والسفساف من القول لا طائل تحتها على حالى الثبوت أو البطلان ، وجملة ما يقال عن آثارها فى عالم العقيدة أنها تفسد بساطتها وتشوب صفاءها ، وعن آثارها فى عالم الثقافة أنها تثير المشكلات ولا تحلها وتشغل مكان العلم ولا تئول به إلى عمل مفيد .

والنظرة العملية فى طبيعة الكواكبى هى التى زهدته فى ذلك المنطق وفلسفاته وأوحت إليه أن البحث فى لغة الحيوان الأعجم أولى وأصلح من البحث فيها ، وقد تأصل فى روعه هذا الرأى الثابت نتيجة لمطالعاته ونتيجة لمشاهداته الملموسة فى وقت واحد .

فمن مطالعاته عرف غوائل الفتن التى أشاعها فى العالم الإسلامى جــدل المتفلسفين حول مسألة القدر ومسألة الصفات ومسألة القرآن وخلقه ومسألة الآيات وتأويلها وأشباه ذلك فى مسائل الإمامة الصريحة والمستورة أو الشريعة الظاهرة والعاطفة أو القياس والتقليد وما انتهت إليه هذه المسألة خاصة من اجتراء المقلدين على رأى لم يجترىء عليه أعظم المجتهدين ، وهو الرأى القائل بتحريم الاجتهاد على المسلمين جميعاً بعد عصر التابعين ، أو على الأكثر بعد تابعى التابعين .

ومن مشاهداته المحسوسة عرف وبال التصوف الكاذب والفلسفة الناقصة على ألوف من معاصريه الذين تلقفوا البدع وتوارثوها من دعاة العلوم الدخيلة بين وثنية ويونانية . فقد كان من وبال التصوف الكاذب والفلسفة الناقصة أنه

هدم العلم والعمل، وأفسد الدين والخلق، وأشاع البطالة والإباحة بين من يسمون البطالة « اتكالا على الله » ويسمون الإباحة وصولا يسقط الحدود ويسمح بالرخصة فى المحظورات .

رأى الكواكبى أثر العلوم الدخيلة فى النوبتين الأولى والثانية فاحتكم إلى الواقع وإلى النتيجة العملية فى موقفه الحاسم بينهما – فأما العلوم الدخيلة فيما مضى فقد كان أثرها مفسدة للعقيدة فى بساطتها ومدرجة إلى العجز والفتنة فى الحياة العامة ، وأما العلوم الدخيلة فى عصره فقد كان أثرها الواضح قوة لأصحابها وغلبة لهم على الجاهلين بها، وهداية إلى المصلحة والعمل والمعرفة بأسباب الحياة الواقعة ، ولم تكن هذه المعرفة عنده بحاجة إلى برهان يؤيدها غير نتائجها الماثلة فى سياسة الأمم وصناعتها وأدوات نجاحها واقتدارها .

فليست مهمة المصلح الحكيم أن يحارب هذه العلوم الدخيلة كما حارب أخوات لها من قبل، ولكن مهمته على نقيض ذلك أن يرحب بها ويجتهد فى نقلها واقتباسها ويتخذها سبيلا من سبل الإصلاح وينظر كيف يقنع باسم الدين من يعارضون الإصلاح باسم الدين، لأنه جديد ولا محل للجديد عند الجامدين على القديم .

وقد كان موقفه حيال العلوم الحديثة أصح وأصدق من المعارضين لتلك العلوم من رجال الدين الجامدين فى أمم العصر الحديث، ولاسيما الأمة الإسلامية : هم يقولون عن كل جديد إنه باطل وإنه يناقض الكتب المقدسة والوصايا المأثورة ، وهو ومن وقف كموقفه يرد التهمة على أصحابها وينعى عليهم أنهم يعارضون العلم والقرآن معاً ، لأن العلم والكتاب يتفقان ، وما كشفه العلم حديثاً يجدد ماسبق به الكتاب ، أو أشار إليه .

وكان الكواكبى موفقاً فى توفيقاته ، لحسن فهمه كتاب دينه ، وحسن اطلاعه على كشوف العلم الحديث فى عصره ، ولم يحدث بعد عصره ما يدعو إلى شيء من الاستدراك على موقفه إلا التفرقة فى عصرنا هذا بين النظريات العلمية ومقررات العلم التى بلغت من الثبوت أن تحسب من القوانين الطبيعية أو قواميس الوجود المتفق عليها ، فاذا جاز أن نوفق بين حقائق الكتاب وحقائق العلم المقررة فمن الحسن أن نصطنع الأناة قبل التوفيق بين الكتاب وبين

النظريات التى يتناولها البحث ويتطرق إليهـا الخلاف بين وجهات النظر ومعارض الآراء ، ونذكر على سـبيل المثال تفسير السموات السبع بالسيارات السبع أو تفسير طبقات الأرض فى علم « الجيولوجية » بالسبع الطباق ؛ فان الكشوف الفلكية قد زادت عدد السيارات ولا تزال تزيدها مع إحكام الرصد وتعميم النظر إلى طوارق المنظومة الشمسية من المذنبات والنجيمات ، وهم يحسبون اليوم سيارات المنظومة الشمسية ثمانيا عدا الكرة الأرضية والنجيمات ، ويحدث مثل ذلك فى حساب طبقات الأرض على حسب تعريف الطبقة ومكانها من مدار الكرة الأرضية . فاذا كان من الثابت أن القرآن الكريم لم يشتمل على آية تمنعنا أن نتقبل حقائق العلم فقد يقع الخلاف فيما يحسب من الحقائق العلمية وما يحسب من نظريات البحث والتجربة ، وقد يدعو الأمر حتما إلى التفرقة الدائمة بين الحقائق والنظريات ، وحسبنا من كتابنا المبين أنه يأمرنا بالبحث فى العلم ولا يصدنا عن حقائقه ولا نظرياته ولا عن التوسل بمحاولة من المحاولات لتمحيص تلك الحقائق أو النظريات .

وبعد نيف وخمسين سنة من قيام الدعوة الكواكبية لايزال أساسه القويم الذى اختاره للإصلاح الدينى صالحاً للبناء عليه : عقيدة خالصة من شوائب الجهل والسفسطة ، تؤمن بدينها ودنياها على بصيرة .

الدّولة

الكلام على الدولة وعلى نظام الحكم شيء واحد فى مصطلحات السياسة على إجمالها ، ولكنه لم يكن شيئا واحداً فى كلام الكواكبى ومعاصريه . لأن كلمة الدولة كانت تعنى عندهم « الدولة العثمانية » إذا أرسلت على إطلاقها وكانت لها مسألة خاصة مستقلة بشئونها عن شئون النظم الحكومية ، يحددها مركز الدولة العثمانية الذى كان فى أخريات أيامها على الخصوص نمطا عجيباً بين الأنماط الدولية يندر نظيره بين دول الشرق والغرب بما لها من تكوين فريد فى رئاسة الدولة وأجناس الرعايا وقوام السلطة ومواقع البلاد بين القارات الثلاث : أوربة وآسيا وإفريقية .

كانت الدولة العثمانية سلطنة أو « امبراطورية » متشعبة تجمع ألفافاً من الأمم التى تختلف بأجناسها وأديانها ولغاتها ومصالحها ، ويدل على مبلغ تشعبها وانقسامها أن الأمم التى خرجت منها واستقلت عن سيادتها بعد ثورات الاستقلال وتقرير المصير زادت على عشر أمم ذات عشر حكومات .

وكان اسم الدولة العثمانية يطلق عليها لأن حكامها من بنى عثمان قبيلة تركية تنعقد ولاية الأمر فيها لسلطانها وقائد جيشها من أبناء قومه ، إذ كان الرعايا الآخرون بمعزل عن جيش الدولة لا يشتركون فى هيئة عسكرية — غير الكتائب المحلية — إلا جنوداً متفرقين لا يتجمعون معاً فى فرقة مستقلة .

وكان رئيس الدولة يضيف إلى ولاية السلطنة وقيادة الجيش صفة الخلافة الدينية ولقب « أمير المؤمنين » .

وهى على هذا المركز الحرج تواجه الدول الأوربية مواجهة العد والقديم الذى تتربص به الدوائر وتتألب عليه لتقسيم بلاده بينها أو لإدخالها فى دوائر نفوذها

وحمايتها ، وقد كاد اسم « الرجل المريض » يغلب على هذه الدولة ويصبح عالما عليها يجهرون به فى خطبهم وأقوال صحفهم ولا يتكلفون كتمانه فى معاملاتهم وصفقات التبادل والمساومة بينهم ، وسميت بلادها باسم « تركة الرجل المريض » تعجيلا بقسمتها وتوزيع حصصها عليهم قبل أن يتنازعوها ، إذا وقع القضاء المحتوم بين ساعة وأخرى .

كان اسم « الدولة » يدور على الألسنة بين رعاياها فتنصرف الأذهان إلى حاضرها ومصيرها فى هذا المركز العجيب الذى يؤذن بالزوال — أو بالتبديل على الأقل — فى كل آونة ، ولا يؤذن بالاستقرار أو بالطمأنينة إليه .

ومن ثم أصبحت للدولة مسألة خاصة مستقلة عن مسألة النظم الحكومية أو النظم السياسية فى ولاياتها .

أصبحت مسألتها مسألة « السلطان » أو الإمبراطور أو أمير المؤمنين الذى يتولاها ، وأصبحت بنية الدولة التى تتكون منها تابعة للصفة التى يتصف بها ولى الأمر ، سلطانا أو امبراطورا أو أمير مؤمنين .

علام تعتمد الدولة فى تكوينها ؟ أعلى الأشتات من الأجناس المتفرقة التى لا تجمعها جامعة واحدة ؟ أعلى الجامعة الطورانية إذا كان لابد لها من جامعة سياسية أو روحية تسندها بين أجزائها ؟ أعلى الجامعة الإسلامية ؟ أعلى الوحدة الائتلافية ؟ أعلى التسليم بالواقع وانتظار المجهول فى مهاب الأقدار ؟

لا بد من مبدأ أساسى من هذه المبادىء يركن إليه صاحب الدعوة إلى المستقبل ويبنى دعوته عليه .

وقد كان برنامج الكواكبى فى هذه المسألة صريحا محدودا لا تخفى منه خافية على من يعتزم العمل فيه ، وكل ما اتخذه من الحيطة لهذا الأمر الجلل أنه أعلن قواعده وترك نتائجه المحتومة تنكشف فى حينها ، وهى غير مجهولة .

وهو يقيم برنامجه فى مسأله الدولة والخلافة على هذه القواعد الثلاث :

(١) أن ينفصل الملك عن الخلافة .

(٢) وأن تعود الخلافة إلى الأمة العربية .

(٣) وأن تقوم الخلافة على أساس الانتخاب والشورى والتعاون المتبادل على سنة المساواة بين الأقطار الإسلامية .

ويستند فى كل قاعدة من هذه القواعد إلى مراجعه التاريخية كما يستند إلى مقتضيات الضرورة العملية فى أحوال العالم الحديث .

فهو يقرر من تحصيله التاريخى أن خلافة بنى عثمان لم تنعقد بها بيعة من حكومات المسلمين ولا من رعاياها ، فلا يقبلها ملوك إيران والمغرب وأئمة الجزيرة العربية الذين لم يخضعوا لسيادة الدولة التركية ، ولا يذكرها المسلمون فى صلاة الجمعة إلا حيث يدينون لتلك السيادة فى أوضاعهم السياسية . ولم يحدث قبل السلطان محمود العثمانى أن تلقب أحد من سلاطين القسطنطينية بلقب الخلافة وإمارة المؤمنين : « إذ صار بعض وزرائه يخاطبونه بذلك أحياناً تفنناً فى الإجلال وغلواً فى التعظيم ثم توسع استعمال هذه الألقاب فى عهد ابنيه وحفيديه إلى أن بلغ ما بلغه اليوم بسعى أولئك الغشاشين الذين يدفعون ويقودون حضرة السلطان الحالى ، للتنازل عن حقوق راسخة سلطانية لأجل عنوان خلافة وهمية مقيد فى وضعها بشرائط ثقيلة لا تلائم أحوال الملك معرضة بطبعها للقلقلة والانتزاع والخطر العظيم . . »

ويرى من تحقيقه التـاريخى أن ساسة الترك لا يقصدون « غير التلاعب السياسى وقيادة الناس إلى سياستهم بسهولة ، وإرهاب أوربا باسم الخلافة واسم الرأى العام . . . » ؛

قال بعد أن بين أن مآرب الملك غلبت فى تاريخ الدولة العثمانية على واجبات الخلافة كما تمليها مصالح الأمم الإسلامية على من يستطيع رعايتها : « إنى أذكر لك أنموذجا من أعمال لهم أتوها رعاية للملك وإن كانت مصادمة للدين .. فهذا السلطان محمد الفاتح ــ وهو أفضل آل عثمان ــ قد قدم الملك على الدين فاتفق سرا مع فرديناند ملك الأراغون الأسبانيولى ثم مع زوجته إيزابيلا على تمكينهما من إزالة ملك بنى الأحمر آخر الدول العربية فى الأندلس .. مقابلة ما قامت لديه روما من خذلان الامبراطورية الشرقية عند مهاجمة مكدونيا ثم القسطنطينية . وهذا السلطان سليم غدر بآل العباس واستقصاهم حتى إنه قتل الأمهات لأجل الأجنة . وبينما كان هو يقتل العرب فى الشرق كان الأسبانيون يحرقون بقيتهم

فى الأندلس، وهذا السلطان سليمان ضايق إيران حتى ألجأهم إلى إعلان الرفض.. ثم لم يقبل العثمانيون تكليف نادر شاه لرفع التفرقة بمجرد تصديق مذهب الإمام جعفر، كما لم يقبلوا من (أشرف) خان الأفغان اقتسام فارس كى لا يجاورهم ملك سنى. وقد سعوا فى انقراض خمس عشرة دولة وحكومة إسلامية .. وأعانوا الروس على التاتار المسلمين وهولاندة على الجاوة والهنديين، وتعاقبوا على تدويخ اليمن .. وباغت العسكر العثمانى المسلمين مرة فى صنعاء والزبيد وهم فى صلاة العيد .. »

قال: « أليس الترك قد تركوا الأندلس مبادلة وتركوا الهند مساهلة وتركوا الممالك الجسيمة الأسيوية للروسيين وتركوا قارة إفريقيا الإسلامية للطامعين وتركوا المداخلة فى الصين كأنهم الأبعدون ».

ولم يشأ الكواكبى أن يفرق بين ضرورات الواقع وبين دواعى الاختيار فى هذه الأعمال، لأنه نظر إلى النتيجة التى يقيم عليها حجته وهى فشل التصدى لواجبات الخلافة مع قيود الملك ومآزق السياسة وصعوبة الوحدة الجامعة بين دول الإسلام.

* * *

وإذا كان انفصال الخلافة عن الدولة ضرورة قاسرة ومصلحة مختارة فليس أولى بالخلافة من الأمة العربية. وقد تبسط الكواكبى فى سرد الشروط والأسباب التى قضت أحوال الحكومات الإسلامية وشعوبها فى عصره بملاحظتها، ولكن الغاية الجوهرية التى لا ترتبط بتلك الأحوال تتلخص فيما يلى:

(١) أن يكون الخليفة عربياً.

(٢) وأن يكون اختياره بالانتخاب.

(٣) وأن تكون وظيفته روحية.

(٤) وأن يعاونه مجلس شورى تتمثل فيه جميع الشعوب الإسلامية.

(٥) وأن تنفذ وصاياه طواعية فى المسائل الدينية، ولا تتعرض فى تنفيذها للمشكلات السياسية.

ولا بد من التمهيد لقيام الخلافة باعداد الأذهان فى العالم الإسلامى لقبول هذا النظام وإيثاره على نظم التقاليد التى فرضتها مآرب أصحاب السلطان ودسائس الدعاة المغرضين بعد عصر الخلفاء الراشدين ، وتتصدى لهذه المهمة جماعة منظمة تعمل أساس الشورى والاختيار وتتخذ مقرها فى ميناء متوسط كبورسعيد أو الكويت ، ثم تعلن دعوتها وتبلغها إلى ولاة الأمور فى الأقطار الإسلامية .

ويظهر من تفصيل الخطط التى رسمها الكواكبي للتدرج فى تحقيق وظيفة الخلافة على هذه الصورة أنه كان شديد الحذر من مقاومة الدول الكبرى التى تعنيها مسألة الخلافة الإسلامية ، وأنه أفرط فى الحذر أحياناً فقدم حساب التقية والمجاملة على كل حساب يشغله فى حينه ، ولم يخالف الحقيقة حين اهتم بتفسير فريضة الجهاد على النحو الذى يزيل مخاوف الدول ومخاوف الأمم من غير المسلمين على التعميم . فقد أصاب حين قال :

« إنه ليس فى علماء الإسلام مطلقا من يحصر معنى الجهاد فى سبيل الله فى مجرد محاربة غير المسلمين ، بل كل عمل شاق نافع للدين والدنيا ، حتى الكسب لأجل العيال ، يسمى جهاداً . وبذلك يعلمون أن قصر معنى الجهاد على الحروب كان مبنيا على إرادة الفتوحات . . . كما أعطى اسم الجهاد مقابلة لإسم الحروب الصليبية . . »

وكذلك أصاب حيث قال : « إن أصل الإسلامية لا يستلزم الوحشة بين المسلمين وغيرهم بل يستلزم الألفة . . . وإن العرب أينما حلوا فى البلاد جذبوا أهلها بحسن القدوة والمثال لدينهم ولغتهم . . »

ولكنه بالغ فى دفع الخوف واتقاء المقاومة حين استطرد قائلا إن العرب « لم ينفروا من الأمم التى حلت بلادهم وحكمتهم ، فلم يهاجروا منها كعدن وتونس ومصر بخلاف الأتراك ، بل يعتبرون دخولهم تحت سلطة غيرهم من حكم الله لأنهم يذعنون بكلمة ربهم تعالى شأنه . . (وتلك الأيام نداولها بين الناس) . . »

ثم كشف عن أسباب تلك المبالغة فى التقية حين قال بعد ذلك : « فاذا علم السياسيون هذه الحقائق وتوابعها لايتحذرون من الخلافة العربية ، بل يرون من صوالحهم الخصوصية وصوالح النصرانية وصوالح الإنسانية أن يؤيدوا قيام الخلافة العربية بصورة محدودة السطوة مربوطة بالشورى على النسق الذى قرأته » .

فالكواكبى « الدبلوماسى » السياسى هنا أظهر من الكواكبى الثائر . « وأم القرى » هنا أسلوب من العمل غير أسلوب « طبائع الاستبداد » . فان الكواكبى الثائر لم يقبل من المسلم أن يذعن للغصب والسيطرة فى حكومة مسلمة ، ولم يحمد منه أن يستكين لتداول الدول وحكم الأيام جهلا بمعنى التسليم للقضاء ، وإنما هى مزالق الحيلة لا تؤمن مزلتها فى طريق الثورة ولا سلامة من عثراتها قبل استوائها على جادتها المثلى .

على أن الكواكبى الثائر كاد أن يتكشف لقارئه فى « أم القرى » وفى صدد الكلام على الخلافة والدول الأجنبية ، حيث قال وهو يتكلم عن القضية الخامسة والأربعين: « إذا صادفت الجمعية معارضة فى بعض أعمالها من حكومة بعض البلاد ــ ولاسيا البلاد التى هى تحت استيلاء الأجانب ــ فالجمعية تتذرع (أولا) بالوسائل اللازمة لمراجعة تلك الحكومة واقناعها بحسن نية الجمعية . فاذا توفقت لرفع العنت فبها ، وإلا فلتلجأ الجمعية إلى الله القادر الذى لا يعجزه شىء . . » .

ومراد الكواكبى من عبارته هذه واضح عند من يفهم أن اللجوء إلى الله « القادر الذى لا يعجزه شىء » يعنى كل شىء غير التسليم والنكوص عن العمل الذى بدأ وتقدم وتمت له أسباب التدبير .

* * *

إلا أن القارىء يستطيع أن ينفذ إلى الغاية الجوهرية فى أمر الدولة والخلافة من وراء الخطط أو النماذج العملية التى تصلح لبعض الأزمنة ولا تصلح لغيرها ، والتى رسمتها الحوادث للكواكبى ولم يرسمها لنفسه باختياره ، ولعله كان يعيد

فيها النظر لو تراخى به الأجل – فيمحو منها ويثبت ويزيد عليها وينقص منها ، ولا يدعها – لخلفائه – بأية حال – على الصورة التى بقيت لنا بعد نصف قرن من وفاته .

فاذا نفذ القارىء من وراء تلك الخطط الموقوتة إلى الغاية الجوهرية فلا نزاع فى تلك الغاية ولا فى الإيمان بأن الوصول إليها هو مبعث الدعوة التى اضطلع بها وصمد عليها ، وخلاصتها فى كلمات معدودات أن دعوى الخلافة فى القسطنطينية لاينبغى أن تعوق الأمة العربية عن نهضة الإصلاح والحرية .

النظام السياسي

علوم السياسة أقرب العلوم إلى أن تكون « اختصاصاً » للكواكبي بين دراسات عصره . نفهم ذلك من كلامه فى مقدمة « طبائع الاستبداد » كما نفهمه فى مباحث الكتاب كله ، لأنها مباحث مشروحة على إيجازها لا يجول فيها قلم كاتب لم يتوسع فى هذه الدراسات .

ولكننا قد علمنا من طبيعة تفكير الكواكبي أنه يدرس ليعمل وينفذ ، أو ليدل على وسائل العمل والتنفيذ ، فكل ما كتبه فى موضوعات العلم السياسى فهو من قبيل « المذكرات الإيضاحية » التى تبين حدود العمل المطلوب وتبين الطريقة التى تتبع فى تنفيذه ، وما عدا ذلك من مباحث النظر والتأمل فقد بقيت فى كتاباته المعروفة « رءوس موضوعات » لم يتسع له الوقت لاستيفائها ولعله لم يجد من لوازم عمله أن يستوفيها على المنهج المدرسى كما يصنع الباحث الذى يدرس الموضوع ليؤلف فيه أو ليضطلع بتعليمه والإقناع به من الوجهة النظرية. وإنما أحالها بعناوينها المجملة لمن يريد أن يرجع إليها فى مصادر التخصص والبيان ليصحح النظر أو ليحقق وسائل العمل المتفق .

ومن قبيل هذه المباحث التى تركها « رءوس موضوعات » فى الصفحات الأخيرة من « طبائع الاستبداد » قوله فى مبحث الحقوق العمومية : «هل للحكومة صفة المالكية ؛ أم صفة الأمانة والنظارة على الأملاك العمومية ؛ مثل الأراضى والمعادن والأنهر والسواحل والقلاع والمعابد والأساطيل والمعدات ، ومثل حقوق المعاهدات والاستعمار ، ومثل حقوق إقامة الحكومة وتأمين العدالة وتسهيل الترقى الاجتماعى وإيجاد التضامن الافرادى ، إلى غير ذلك مما يحق لكل فرد أن يتمتع به وأن يطمئن ؟ »

ومن هذه المباحث قوله عن توزيع السلطة : « هل يجمع بين سلطتين أو ثلاث فى واحد ؟ أم تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بها باتقان ولا يجوز الجمع منعاً لاستفحال السلطة ؟ » .

وقد أثبت من عناوين هذه المباحث خمسة وعشرين عنواناً قال عنها : « إن كلا منها يحتاج إلى تدقيق عميق وتفصيل طويل وتطبيق على الأحوال والمقتضيات الخصوصية » .

ثم مضى قائلا إنه ذكر : « هذه المباحث تذكرة للكتاب ذوى الألباب وتنشيطاً للنجباء على الخوض فيها بترتيب ، اتباعاً لحكمة إتيان البيوت من أبوابها ، وإن اقتصر على بعض الكلام فيما يتعلق بالمبحث الأخير منها فقط ، أعنى مبحث السعى فى رفع الاستبداد .

وإنما خص هذا المبحث الأخير لأنه يمس فيه الوسيلة العملية التى لايكفى فيها مجرد التأمل وتقليب وجوه النظر فى مختلف الآراء ، وذلك شأنه فى كل ما يكتبه عند وجوب التفرقة بين ما يدرس وما يعمل ووجوب التفرقة أيضاً بين ما يشرع فى عمله وبين ما يؤجل إلى حين ليعمل فى أوانه .

ولا ننسى أن الكواكبى كان يكتب ما ينوى إعلانه فى بلاد تابعة للسيادة العثمانية ، سواء منه ما كتبه فى حلب قبل هجرته الأخيرة وما كتبه فى مصر باسمه الصريح أو باسم مستعار ، فلم يكن فى وسعه أن يعلن ما يمنعه القانون ويمنعه العرف الشائع بين الناشرين ، ومنهم أصحاب الصحف والمطابع التى تدين بالولاء للدولة صاحبة السيادة ، ولكنه كان يتحرى التعبير عن رأيه بالأسلوب الذى يدل عليه دلالة لاشك فيها دون أن يخرج بالنص المكتوب عن حدوده القانونية ، وعلى صعوبة التعبير البين عن خطط الثورة لم يكن برنامجه فى مسألة النظام السياسى بالبرنامج المجهول عند قرائه ولو لم يكن منهم من يلقاه ويسمع منه الرأى الصريح فيما يريده وفيما يراه .

فلم يكن أصرح — فى حدود القانون — من دعوته للعرب إلى الاستقلال بحكم أنفسهم حيث يقول فى « أم القرى » إن التطابق فى الجنس بين الراعى والرعية « يجعل الأمة تعتبر رئيسها رأسها فتتفانى دون حفظه ودون حكم نفسها

بنفسها حيث لا يكون لها فى غير ذلك فلاح أبدا كما قال الحكيم المتنبى :

وإنما الناس بالملوك ولا يفلح عرب ملوكها عجم

ومما لاخلاف فيه أن من أهم حكمة الحكومات أن تتخلق بأخلاق الرعية وتتحد معها فى عوائدها ومشاربها » .

بل هو يصرح بما هو أقوى من ذلك وأدل على رأيه فى حكومة عصره التركية . إذ يقول إن التطابق بين الراعى ورعيته من العرب هو الواقع الممكن الذى لا محيد للحاكم عنه وليس قصارى الأمر فيه أنه سياسة حسنة أو نصيحة مستحبة ، ويستشهد بذلك بالحكومات — غير العربية — التى حكمت العرب قبل الترك العثمانيين إذ يذكر آل بويه والسلجوقيين والأيوبيين والغوريين والأمراء الجراكسة وآل محمد على ، ثم يقول : « فانهم مالبثوا أن استعربوا وتخلقوا بأخلاق العرب وامتزجوا بهم وصاروا جزءاً منهم . وكذلك المغول التاتار صاروا فرساً وهنوداً فلم يشذ فى هذا الباب غير المغول الأتراك أى العثمانيين . فانهم بالعكس يفتخرون بمحافظتهم على غيرية رعاياهم لهم . فلم يسعوا باستتراكهم كما انهم لم يقبلوا أن يستعربوا . والمتأخرون منهم قبلوا أن يتفرنسوا أو يتألمنوا ، ولا يعقل لذلك سبب غير شديد بغضهم يستدل عليه من أقوالهم التى تجرى على ألسنتهم » .

* * *

ولا حاجة بالكواكبى بعد هذا البيان عن ضرورة التطابق بين الراعى والرعية إلى كلمة صريحة أو غامضة لجلاء الوجهة التى ينبغى أن تنتهى إليها مساعى العرب فى يقظتهم . فلا بد أن يفلحوا . . . ولن يفلحوا وهم عرب يملكهم عجم ... وملوكهم القائمون بالأمر لا يستعربون ولا يروقهم أن «يستترك» رعاياهم ، ومنهم من يؤثر أن يتفرنس ويتألمن ويتجه نحو الغرب ولا يحول وجهته إلى قبلة شرقية .

فالغاية الماثلة أمام المجاهدين فى سبيل اليقظة العربية هى « الاستقلال » وإقامة الدولة التى يقيمها العرب ويرعاها العرب ، والمطالبة فى انتظار تحقيق هذه الغاية بخير ما يمكن من وجوه الإصلاح التى تزيل أسباب الخلل فى إدارة

السلطنة العثمانية وأهمها — فيما يهم البلاد العربية — « التمسك بأصول الإدارة المركزية مع بعد الأطراف عن العاصمة وعدم وقوف رؤساء الإدارة فى المركز على أحوال تلك الأطراف المتباعدة وخصائص سكانها » .

ويلحق بهذا السبب سببان آخران يبدو للنظر لأول وهلة أنهما متناقضان لولا أنهما يرجعان إلى حالتين مختلفتين ، وهما حالة الرعية الشرقية وحالة الرعية الأجنبية غير العربية ممن تشملهم قوانين الامتيازات أو القوانين المحلية المقصورة على بعض الأقاليم .

فالسبب الأول يرجع إلى «توحيد قوانين الإدارة والعقوبات مع مع اختلاف طبائع أطراف المملكة واختلاف الأهالى والأجناس والعادات » ... ولا يخفى ضرر هذا التوحيد من الوجهة الاجتماعية والإدارية حيث تتبع « الإجراءات » الواحدة فى المقاضاة وتدبير الدواوين بين أطراف دولة تمتد من وادى النهرين إلى البحر الأبيض ومن البحر الأسود إلى خليج عدن، ونسرى على أقوام بينهم من الاختلاف ما بين الأرمن والجركس والترك والعرب فى الحاضرة والبادية .

والسبب الآخر يرجع كما قال الكواكبى إلى « تنويع القوانين الحقوقية وتشويش القضاء فى الأحوال المتماثلة » .

فنى ظاهر الأمر يبدو أن صاحب « أم القرى » يشكو فى وقت واحد من توحيد الإجراءات والقوانين ومن تنويعها واختلافها ، وهى شكوى متناقضة ولكنه تناقض فى الظاهر دون الحقيقة كما أسلفنا . لأن هذه الشكوى فى مؤتمر أم القرى خاصة — إنما يثيرها التنويع الذى يقوم على التمييز بين جنس وجنس وطائفة دون طائفة إذعاناً للمعاهدات الأجنبية تارة أو مراعاة للمنازعات الطائفية واستبقاء لبواعث تلك المنازعات تارة أخرى ، وقد كان هذا التمييز عرفا شائعاً فى نظم الدولة يعم تشريعات الإدارة والأحوال الشخصية ويختلف بالإقليم الواحد بين فئة وفئة وبين عشيرة وعشيرة ، ولا يقتصر على الأجانب ولا على الأقاليم التى نشبت فيها الثورات وتدخلت فيها الدول لتقرير نظام الولاية أو الإدارة فيها .

فالكواكبى كان يشكو فى الحالتين من شىء واحد ، وهو مخالفة الشريعة

للمصلحة إما بالتسوية حيث تفرق الأحوال أو بالتفرقة حيث تلزم العدالة والمساواة».

وربما أضاف الكواكبي شكواه الفنية إلى هذه الشكوى الاجتماعية من تلفيق القوانين والإجراءات . فانه — وهو الخبير بفقه التشريع — كان ينكر من دعاة التجديد من فقهاء الترك أنهم على تقديره لم يحسنوا المحافظة ولم يحسنوا الابتداع ، وأن الدولة ترخصت في تبديل قواعد التشريع لغير ضرورة وتشددت في بعضها الآخر كذلك لغير ضرورة « وجاءها أكثر هذا الخلل في السنين سنة الأخيرة . أي بعد أن اندفعت لتنظيم أمورها فعطلت أصولها القديمة ولم تحسن التقليد ولا الإبداع ففشلت حالها ولا سيما في العشرين سنة الأخيرة التي ضاع فيها ثلثا المملكة وخرب الثلث الباقي وأشرف على الضياع ، لفقد الرجال وصرف حضرة السلطان قوة سلطنته كلها في سبيل حفظ ذاته الشريفة وسبيل الإصرار على سياسة الانفراد » .

وقد صرح الكواكبي بالحل الملائم لهذه المشكلات السياسية والقانونية لبلاد العرب ، ولبلاد الدولة عامة ، في طوار الانتقال ، فقال في هامش الصفحة التي سرد فيها أسباب الخلل من أم القرى إن « من أهم الضروريات أن يحصل كل قوم من أهالي تركيا على استقلال نوعي إداري يناسب عاداتهم وطبائع بلادهم كما هي الحال في إمارات ألمانيا وولايات أمريكا الشمالية ، وكما يفعله الإنكليز في مستعمراتهم والروس في أملاكهم » .

وفحوى هذا الحل أن يؤخذ الذي عرف بعد ذلك باسم «اللامركزية» ، وشعر ساسة الترك أنفسهم بضرورته بعد تفكير الكواكبي فيه بسنوات ، فهو — ولا ريب — رائد الدعوة اللامركزية التي جهر بها « حزب الائتلاف والحرية » وضم إليها أناساً من زعماء الترك والعرب وبعض الأقوام المشتركين في تركيب السلطنة العثمانية ، وكانوا ينادون بالائتلاف لتكوين السلطنة من الشعوب المتآلفة مع استقلالها بحكوماتها الذاتية ، وينادون بالحرية لتغليب حقوق الشعوب في سياسة أمورها على حقوق السلطنة المتفردة بالحكومة المركزية ، ويقابلون بذلك دعوة المركزيين المعروفين باسم حزب الاتحاد والترقي يريدون بذلك أن تكون الوحدة المركزية في الدولة غالبة على الائتلاف ، وأن تكون حجة « الترقي » بقيادة الرئاسة الحاكمة غالبة على حجة المطالبة بالحرية لكل ولاية على انفراد .

ولا يلجئنا مؤلف « طبائع الاستبداد » إلى مراجعة واستنباط للعلم بصفة الحكومة التى يختارها ويسعى إليها . فلابد أن تكون ـ بالبداهة ـ حكومة غير مستبدة أو « حكومة مسئولة » .

أما العنوان الذى يطلق عليها فى مصطلحات العلم السياسى فينبغى أن يتوافر لها بين الشروط الكثيرة شرطان على الأقل من شروط الحكومات المسئولة ، وهما أن تكون « ديمقراطية اشتراكية » .

وقد عرف الاستبداد تعريفين يختلفان بعض الاختلاف لفظاً ويتفقان كل الاتفاق فى المعنى والنتيجة .

فالاستبداد كما قال فى مقدمة طبائع الاستبداد هو : « التصرف فى الشئون المشتركة بمقتضى الهوى » .

أو هو كما قال بعد ذلك « تصرف فرد أو جمع فى حقوق قوم بلاخوف تبعة »

ويمتنع الاستبداد ـ نظرا وفعلا ـ بقيام الحكومة المسئولة ، وأفضل هذه الحكومات التى تجتمع لها مبادىء الديمقراطية والاشتراكية ، وتتراءى هنا طبيعة التفكير العملى التى تمتزج بآراء الكواكبى فى كل مسألة يتسع فيها مجال البحث والمناقشة وتتساوى فيها وجوه النظر عند تحقيق نتيجتها العملية وضمان المصلحة المنشودة بضمان تلك النتيجة .

فليست العبرة عند الرجل العليم بمنافذ الاستبداد أن يتوافر للحكومة شكل من أشكال الدستور وصورة من صور الحقوق الكثيرة التى ترشح أفراد الرعية للنيابة أو الانتخاب ، وإنما المهم فى جميع الأشكال على تعدد المصطلحات والدساتير أن يكون ولى الأمر مسئولا عن عمله محاسباً عليه ، وأن يمتنع عليه الاستبداد وهو التصرف بالهوى والأمان من التبعة «بلا خشية حساب ولا عقاب محققين » .

فلا يمتنع الاستبداد بامتناع حكومة الفرد ولا يتحقق الحكم الصالح باشتراك الكثرة فيه أو بتأييد الكثرة للحاكمين المتعددين ، أو كما قال فى المقدمة : « إن صفة الاستبداد كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذى تولى الحكم بالغلبة أو بالوراثة ـ تشمل أيضاً الحاكم الفرد المقيد الوارث أو المنتخب متى

كان غير محاسب . وكذلك تشمل حكومة الجمع ولو منتخباً . لأن الاشتراك فى الرأى لا يدفع الاستبداد و إنما قد يعدله نوعاً ، وقد يكون أحكم وأضر من استبداد الفرد ، ويشمل أيضاً الحكومة الدستورية المفرقة فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ . لأن ذلك أيضاً لا يرفع الاستبداد ولا يخففه ما لم يكن المنفذون مسئولين لدى المشرعين وهؤلاء مسئولون لدى الأمة التى تعرف أن تراقب وتؤدى الحساب » .

ولا يمتنع الاستبداد فى شكل من أشكال الحكومة مع غفلة الأمة وقدرة الحاكمين على تضليلها والتمويه عليها . قال : « إنه ما من حكومة عادلة تأمن المسئولية والمؤاخذة بسبب من أسباب غفلة الأمة أو إغفالها لها إلا وتسارع إلى التلبس بصفة الاستبداد ، وبعد أن تتمكن فيه لا تتركه وفى خدمتها شىء من القوتين الهائلتين المهولتين : جهالة الأمة والجنود المنظمة » .

ومن علامات الحكومة الصالحة التى يتعذر عليها الاستبداد فى رأى الكواكبى أن يشترك فيها من عناهم القرآن الكريم بأهل الذكر واصطلح الفقهاء على تسميتهم بأهل « الحل والعقد » من قادة الأمة وهداتها . قال بلسان الإمام الصينى فى أم القرى : « وهؤلاء الذين نسميهم عندنا بالحكماء هم الذين يطلق عليهم فى الشريعة الإسلامية اسم أهل الحل والعقد الذين لا تنعقد الإمامة شرعاً إلا ببيعتهم ، وهم خواص الطبقة العليا فى الأمة الذين أمر الله عز شأنه نبيه بمشاورتهم فى الأمر . . . لأنهم رؤساء الأمة ووكلاء العامة والقائمون فى الحكومة الإسلامية مقام مجالس النواب والأشراف فى الحكومات المقيدة . » .

وإذا أشار الكواكبى إلى الطبقة العليا فى «أم القرى» أو «طبائع الاستبداد» لم يدع أحداً من قرائه يفهم أنها الطبقة العليا بالألقاب أو الطبقة العليا بالميراث ، لأنه يسمى أصحاب الألقاب من خدام الاستبداد « بالمتمجدين » أو أدعياء المجد ويقول إن هذا التمجد « خاص بالإدارات الاستبدادية لأن الحكومة الحرة التى تمثل عواطف الأمة تأبى كل الإباء إخلال التساوى بين الأفراد إلا لموجب حقيقى . فلا ترفع قدر أحد منها إلا أثناء قيامه فى خدمتها ، أى الخدمة العمومية ، كما أنها لا تميزه بوسام أو تشرفه بلقب إلا إعلاناً لخدمة مهمة » .

وإنما يكون التمجد كما قال : « أن يتقلد الرجل سيفاً من قبل الجبار يبرهن

به على أنه جلاد فى دولة الاستبداد ، أو يعلق على صدره وساماً مشعراً بما وراءه من الوجدان المستبيح للعدوان ، أو يتحلى بسيور مزركشة تنبىء بأنه صار أقرب إلى النساء منه إلى الرجال . وبعبارة أوضح وأخصر هو أن يصير الإنسان مستبداً صغيراً فى كنف المستبد الأعظم » .

وطبقة الميراث ، ما لم يميزها العلم والخلق الرفيع — هى جرثومة البلاء كما قال ، وأبناؤها « هم الأكثر عدداً والأهم موقعاً وهم مطمح نظر المستبد فى الاستعانة وموضع ثقته » .

قال من كلامه عن الاستبداد والمجد إن هؤلاء الأصلاء « هم جرثومة البلاء فى كل قبيلة ومن كل قبيل ، لأن بنى آدم داموا إخوانا متساوين إلى أن ميزت الصدفة بعض أفرادهم بكثرة النسل فنشأت منها القوات العصبية وتنشأ من تنازعها تميز أفراد على أفراد ، وحفظ هذه الميزة أوجد الأصلاء . . فالأصلاء فى عشيرة أو أمة إذا كانوا متقاربى القوات استبدوا على باقى الناس وأسسوا حكومة أشراف ، ومتى وجد بيت من الأصلاء يتميز كثيراً على باقى البيوت يستبد وحده ويؤسس الحكومة الفردية المقيدة إذا كان لباقى البيوت بقية بأس ، أو المطلقة إذا لم يبق أمامه من يتقيه »

ثم قال : « إذا لم يوجد فى أمة أصلاء بالكلية ، أو وجد ولكن كان لسواد الناس صوت غالب ، أقامت تلك الأمة فعلا أو حكما لنفسها حكومة انتخابية لا وراثة فيها ابتداء ، ولكن لا يتوالى بضع متولين إلا ويصير أنسالهم أصلاء يتناظرون ، كل فريق منهم يسعى لاجتذاب طرف من الأمة استعداداً للمغالبة وإعادة التاريخ الأول . . »

* * *

فالطبقة العليا — فى تعبير الكواكبى — لا تعنى طبقة من طبقات المظاهر المصنوعة ولا المظاهر الموروثة : لا تعنى حملة الألقاب والرتب التى يخلعها الحاكم المطلق على خدامه وعبيد سلطانه ، ولا تعنى أصحاب الوجاهة المنقولة من الأسلاف إلى الأعقاب دون أن ينتقل معها سبب من أسباب الوجاهة النافعة . وإنما الطبقة العليا فى تعبير صاحب « طبائع الاستبداد » ، « وأم القرى » ،

هى الطبقة التى استعدت بكفايتها ودرايتها لقيادة الأمة والاضطلاع « بالخدمة العمومية » والسبق إلى تكاليف العمل والمعرفة ، تتولاها وكالة عن جمهرة الأمة ، ولا بد فى ولايتها من صوت غالب لسواد الأمة ، على أية حال ، كما يؤخذ من إحصائه لأسباب فساد الحكومة فيما جمعة من هذه الأسباب السياسية والدينية والأخلاقية فى فصل خاص ألحقه بفصول أم القرى .

وأياكان مفاد « الطبقة » فى تعبير الكواكبى خاصة فقوام النظام الصالح كله أمران : أن تتساوى الطبقات فى الحقوق القانونية ، وأن تتقارب فى الثروة ودرجات المعيشة .

فلا مناص من إعداد الشعوب لنيل « الأخوة العمومية بالتجارب بين الأفراد والقناعة بالمساواة الحقوقية بين الطبقات » .

ولا مناص من توزيع الثروة توزيعاً يمتنع به التفاوت ، فان الاستبداد كما قال فى طبائع الاستبداد هو الذى جعل « رجال السياسة والأديان ومن يلتحق بهم ، وعددهم لايتجاوز الخمسة(١)فى المائة يتمتعون بنصف ما يتجمد من دم البشر أو زيادة » .

قال : « وإن أهل الصنائع النفيسة والكمالية والتجار الشرهين والمحتكرين وأمثال هذه الطبقة — ويقدرون كذلك خمسة فى المائة — يعيش أحدهم بمثل ما يعيش به العشرات أو المئات أو الألوف من الصناع والزراع ، وهذه القسمة المتفاوتة بين بنى آدم وحواء إلى هذه النسبة المتباعدة هى قسمة جاء بها الاستبداد السياسى » كما قال وكرر المقال مما نعود إلى بيان رأيه المفصل فيه عند الكلام على برنامجه المختار لإصلاح الحياة الاقتصادية .

ويقتضى التساوى بذلك الطبقات على هذا المبدأ ألا تستأثر طائفة من الأمة بانجاب أهل العلم والدراية ، بل يكون حكماء الأمة كما قال بلسان الحكيم الصينى — « من أى طبقة كانت من الأمة . إذ قضت سنة الله فى خلقه ألا تخلو أمة من الحكماء » .

ولا فرق بين طائفة وطائفة فى التخلق بأخلاق الاستبداد متى قام الأمر على

---

(١) فى الطبعات الأولى واحد فى المائة .

الحكم المطلق وامتنعت المساواة فى الحقوق بين الناس : « فان الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة فى كل فروعها من المستبد الأعظم إلى الشرطى إلى الفراش إلى كناس الشوارع ، ولا يكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقاً . لأن الأسافل لايهمهم جلب محبة الناس . إنما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته وأنصار لدولته ، شرهون لأكل السقطات من ذبيحة الأمة . وبهذا يأمنهم ويأمنونه فيشاركهم ويشاركونه . هذه الفئة المستبدة يكثر عددها ويقل حسب شدة الاستبداد وخفته ، فكلما كان المستبد حريصاً على العسف احتاج إلى زيادة جيش المتمجدين العاملين له ، والمحافظين عليه واحتاج إلى الدقة فى اتخاذهم من أسفل السافلين الذين لا أثر عندهم لدين أو وجدان ، واحتاج إلى حفظ النسبة بينهم فى المراتب بالطريقة المعكوسة وهى أن يكون أسفلهم طباعاً أعلاهم وظيفة وقرباً . . . » .

* * *

والكواكبى يذكر السلف الصالح للاقتداء به فى أخلاق الرعاة والرعايا ، ولكنه يحذر قارئه ويعيد التحذير مرة بعد مرة من الخلط بين الاقتداء بأخلاق الحاكمين الأولين وبين الدعوة إلى تقديس أولئك الحاكمين أو إحاطتهم بهالة من عصمة الربوبية أو الرسالة . فانه — مع تقريره أن الخلافة الإسلامية لم تثبت من قبل لغير الخلفاء الراشدين وآحاد معدودين من أمثال عمر بن عبد العزيز — يرى أن الفصل بين الملك والخلافة ضرورة لا محيص عنها كى يتسنى للرعية أن يحاسبوا ولى الأمر ويقيموا ولاية الأمر على أساس الحكومة المسئولة ، وقد يحال بينهم وبين ذلك بانتحال صفة القداسة التى يعتصم بها الخليفة من محاسبة رعاياه ومراجعة الأمة فى مجموعها لسياسة الدولة .

ولا اكتراث للصور والأشكال فى كل ماتقدم من قواعد الحكم وأنظمته وسائر شروطه . فكل صورة من صور الحكم حسنة نافعة إذا تحققت فيها المحاسبة ولحقت فيها تبعات الحكم فعلا بمن يتولاه ، وكل أمة قادرة على محاسبة حكامها إذا عمت فيها المساواة الحقوقية وامتنع فيها التفاوت البعيد فى الأرزاق والأقدار ، وانجابت عنها غشاوة الغفلة بين عامة أهلها وارتفع إلى مكان القيادة من استعد بكفايته ودرايته لقيادتها ، كائنا ماكان منشؤه من عامة طبقاتها .

النظام الاقتصادى

قدمنا فى الكلام على النظام السياسى أن الكواكبى يعتبر التفاوت فى الثروة دعامة من أقوى دعائم الاستبداد، لأنه يسمح لأصحاب النفوذ الدينى أو الدنيوى — وهم لايزيدون على خمسة فى المائة من جملة السكان — بأن يستأثروا لأنفسهم بنحو نصف الثروة العامة .

وهو ينكر مثل هذا الإنكار أن يحصل مثل هذا التفاوت بأية ذريعة من الذرائع ولو كانت ذريعة العمل والصناعة ، فليس من الجائز أن يعيش إنسان واحد بمثل ما يعيش به المئات أو الألوف لأنه يتفوق على غيره بعمل بارع أو صناعة نفيسة ، ولا لأنه يحسن الوساطة والمداورة فى سوق البيع والشراء أو فى سوق الفكر والضمير . « فهناك أصناف من الناس لا يعملون إلا قليلا . إنما يعيشون بالحيلة كالسماسرة والمشعوذين باسم الأدب والدين . . » .

والمال على العموم « لا يجتمع فى أيدى الأغنياء إلا بأنواع من الغلبة والخداع » . . وليس من شأن التفاوت فى القدرة والهمة أن يمنح إنسانا واحداً ما يقوم بنفقات الألوف من الناس ، وليس هذا التفاوت مما يحتاج إليه العامل المقتدر لإتقان عمله أو يحتاج إليه المجتهد الطموح لاستنهاض همته وإشباع طموحه ، بل ربما كان فيه مدرجة للغواية و البطالة ومدعاة إلى الإسراف والإسفاف .

وليس المطلوب أن يبطل التفاوت بين الناس فى المعرفة والذكاء ولا أن يبطل التفاوت بينهم فى المساعى والجهود، فلا يقتضى الأمر كما قال « أن يتساوى العالم الذى صرف زهوة حياته فى تحصيل العلم النافع أو الصنعة المفيدة بذلك الجاهل النائم فى ظل الحائط ، ولا ذلك التاجر المجتهد المخاطر بالكسول الخامل ، ولكن

العدالة تقتضى غير ذلك التفاوت ، بل تقتضى الإنسانية أن يأخذ الراقى بيد السافل فيقربه من منزلته ويقاربه فى معيشتة ويعينه على الاستقلال فى حياته » .

وأياكان جهد المجتهد وعلم العالم فلا يجوز أن يزيد الرزق على الحاجة تلك الزيادة المفرطة التى تسمح لطائفة من الأمة بتسخير جميع طوائفها : « لأن إفراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة فى الإنسان . وهذا معنى الآية : — إن الإنسان ليطغى أنْ رآه استغنى — . . . فضرر الثروات الإفرادية فى جمهور الأمم أكبر من نفعها . لأنها تمكن الاستبداد الداخلى فتجعل الناس صنفين : عبيداً وأسياداً ، وتقوى الاستبداد الخارجى فتسهل للأمم التى تغنى بغناء أفرادها التعدى على حرية واستقلال الأمم الضعيفة . . » .

* * *

وتظهر لنا سعة اطلاع الكواكبى فى مسائل الإصلاح من إحاطته بأوائل الأعمال والآراء التى كانت تحسب فى أواخر القرن الماضى طليعة سابقة ، بل طليعة متهجمة - فى مجال الإصلاح الاقتصادى والمذاهب الاشتراكية ، فذكر تحديد الملكية الزراعية وذكر تأميم المرافق العامة ومضت بعده خمسون سنة قبل أن يتيسر تنفيذ هذه الآراء فى بلادنا الشرقية .

قال : « هذه إيرلنده مثلا قد حماها ألف مستبد مالى من الإنكليز ليتمتعوا بثلثى أو ثلاثة أرباع ثمرات أتعاب عشرة ملايين من البشر الذين خلقوا من تربة إيرلنده . وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالا وستفوقها مآلا . وكم من البشر فى أوربا المتمدنة — وخصوصاً فى لندن وباريس — لا يجد أحدهم أرضاً ينام عليها متمدداً ، بل ينامون فى الطبقة السفلى من البيوت حيث لا ينام البقر ، وهم قاعدون صفوفاً يعتمدون بصدورهم على حبال من مسد منصوبة أفقية ، يتلوون عليها يمنة ويسرة » .

قال : « وحكومة الصين المختلة النظام فى نظر المتمدنين تحرم قوانينها أكثر من مقدار معين من الأرض لا يتجاوز العشرين كيلو متراً مربعاً أى نحو خمسة أفدنة مصرية أو ثلاثة عشر دونما عثمانيا ، وروسيا المستبدة القاسية فى عرف أكثر الأوروبيين وضعت أخيراً لولاياتها البولونية والغربية قانونا أشبه بقانون

الصين ، وزادت عليه أنها منعت سماع دعوى دين غير مسجل على فلاح ، ولا تأذن لفلاح أن يستدين أكثر من نحو خمسمائة فرنك ، وحكومات الشرق إذا لم تستدرك الأمر فتضع قانوناً من قبيل قانون روسيا تصبح الأراضى الزراعية بعد خمسين عاماً ، أو قرن على الأكثر ، كاير لنده الإنجليزية المسكينة » ..

وقال بعد أن قرر أن الشرط الأول لإحراز المال أن يأتى من بذل الطبيعة أو بالمقايضة أو فى مقابل عمل أو مقابل ضمان :

« والشرط الثانى ألا يكون للتمول تضييق على حاجيات الغير كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع والعمال والضعفاء والتغلب على المباحات مثل امتلاك الأراضى التى جعلها خالقها ممرحاً لكافة مخلوقاته . . » .

* * *

وعلى هذا السبق إلى الإحاطة بالآراء المستحدثة يتبين من ثنايا أقواله العامة فى الاقتصاد أنه كان يتقصى معارفه الاقتصادية من أصولها التى تقدم بها الزمن أحقاباً طوالا قبل عصر الميلاد . فلا شك فى اطلاعه على قواعد الاقتصاد السياسى فيما كتبه أرسطو أو فيما نقل عنه . فانه يحصر أسباب الرزق فى مواردها الثلاثة وهى الزراعة والصناعة والتجارة ، ويعرف هذه الموارد كما عرفها أرسطو حيث يقول عن الزراعة إنها استخراج ثمرات الطبيعة ، وعن الصناعة إنها تهيئة تلك المواد للانتفاع بها ، وعن التجارة إنها توزيعها على الناس ، « وكل وسيلة خارجة عن هذه الأصول وفروعها الأولية فهى وسائل ظالمة لا خير فيها . . » .

وعند الكواكبى أن الإنسان النافع لقومه لابد أن يؤدى عملا من هذه الأعمال فى أصولها وفروعها التى لا تزال إلى اليوم مورد الرزق المشروع فى عرف خبراء الاقتصاد والسياسة ، وعلى كل فرد من أفراد الأمة « متى اشتد ساعده أو ملك قوت يومه ، أو النصاب على الأكثر ، أن يسعى لرزقه بنفسه أو يموت جوعاً » .

ثم يعطف فيقول : « وقد لا يتأتى أن يموت الفرد جوعاً إذا لم تكن حكومته مستبدة تضرب على يده وسعيه ونشاطه . . » .

فاذا حدث العجز عن كسب الرزق لسبب قاهر غير الكسل والتقصير فالأمة مسئولة عن إزالة هذا العجز أو معونة المبتلين به على المعيشة التى لا يقدرون على تحصيلها ! « فالعدالة المطلقة تقضى أن يؤخذ قسم من مال الأغنياء ويرد على الفقراء بحيث يحصل التعديل ولا يموت النشاط للعمل » .

وهذه سياسة تتحراها أمم الغرب الحديثة إيثاراً للسلامة بعد أن وضح لها وبال العاقبة من جراء الظلم فى توزيع الثروة . ولكنها فريضة يقررها الإسلام ديناً ويعين عليها اتباع أحكامه . لأنه يقرر صرف العشور والزكاة فى المصارف العامة ومنها سداد الديون : « ولا يخفى على المدقق أن جزءا من أربعين من رءوس الأموال يقارب نصف الأرباح المعتدلة باعتبار أنها خمسة بالمئة سنوياً » .

ويقول الكواكبي — ولعله يجنح فى ذلك إلى الأخذ بالمذهب الظاهرى — إن الأرض الزراعية ملك عام للأمة يستنبتها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط ، وليس عليهم غير العشر أو الخراج الذى لا يجوز أن يتجاوز الخمس لبيت المال » .

فالمعيشة الاشتراكية — فى حكم الدين والسياسة الرشيدة — هى « أبدع ما يتصوره العقل . . . لولا أن البشر لم يبلغوا بعد من الترقى ما يكفى لتوسيعهم نظام التعاون والتضامن فى المعيشة العائلية إلى إدارة الأمم الكبيرة ... »

وعلى هذا يتلخص برنامج الكواكبي الذى اختاره لتدبير الثروة العامة فى الاشتراكية التى تقوم على المبادىء التالية :

(١) تعميم العمل المثمر بين أفراد الأمة وتحريم الكسب بغير عمل مشروع .

(٢) اجتناب التمييز بين أفراد الأمة بغير مزية لازمة للخدمة العامة .

(٣) اجتناب التفاوت المفرط فى توزيع الثروة بين الأفراد أياً كان حظهم من التفاوت فى الكفايات والأعمال .

(٤) قيام المجتمع على التعاون والتضامن بين العاملين فيه ، وإزالة أسباب العجز عن الكسب أو معونة العاجزين عنه لضرورة من ضرورات المرض والحرمان .

(٥) تأميم المرافق العامة ومنع الاحتكار .

وبهذه المبادىء على عمومها يدخل الكواكبي في زمرة الاشتراكيين لا مراء، ويلتقى بأهم المذاهب الاشتراكية في أصل من أصولها الكبرى ، ويكاد أن يجرى مع القائلين بالتفسير الاقتصادى للتاريخ في مجال واحد لولا فارق عظيم في تعريف المال ترتبط به فوارق كثيرة .

فالمال عند أصحاب التفسير الاقتصادى مقصور على العملة وما تشتريه .

والمال عند الكواكبي هو « كل ما ينتفع به في الحياة » ... « فالقوة مال ، والوقت مال ، والعقل مال ، والعلم مال ، والدين مال ، والثبات مال ، والجمال مال ، والترتيب مال ، والشهرة مال . . »

نعم . وكل ما يجرى فيه المنع والبذل كما يقول صاحب القانون، أو تستعاض به القوة كما يقول صاحب السياسة، أو تحفظ به الحياة الشريفة كما يقول صاحب الأخلاق ، فهو مال .

و « المقصود من المال هو أحد اثنين لا ثالث لهما وهما تحصيل لذة أو دفع ألم . . . والحكم العدل في طيب المال وخبيثه هو الوجدان الذى خلقه الله صبغة للنفس وعبر عنه في القرآن بالهامها فجورها وتقواها .

والوجدان هو مرجع الاختيار أولا وآخراً ، بين المال الحلال والمال الحرام » .

التربية القومية

تفيد كلمة التربية فى كتابى الكواكبى مقصدين: أحدهما التربية العامة وتشمل كبار الأمة وصغارها ، وهى التى تتكفل بتهذيب الصفات القومية وتوفير عدة الأمة من الأخلاق والعادات جيلا بعد جيل .

والآخر تربية الناشئين فى المدارس ومعاهد التعليم وتزويدهم بما ينفعهم وينفع أمتهم فى أعمالهم الخاصة وأعمالهم المشتركة .

وعنده أن الحكومات المنتظمة كما قال فى طبائع الاستبداد « تتولى ملاحظة تربية الأمة من حين تكون فى ظهور الآباء . وذلك بأن تسن قوانين النكاح ثم تعتنى بوجود القابلات والملقحين والأطباء ثم تفتح بيوت الأيتام اللقطاء ثم المكاتب والمدارس للتعليم من الابتدائى الجبرى إلى أعلى المراتب. ثم تسهل الاجتماعات وتمهد المراسح وتحمى المنتديات وتجمع المكتبات والآثار وتقيم النصب المذكرات وتضع القوانين للمحافظة على الآداب والحقوق وتسهر على حفظ العادات القومية وإنماء الإحساسات الملية وتقوى الآمال وتيسر الأعمال وتؤمن العاجزين عن الكسب من الموت جوعاً ، إلى أن تقوم باحتفالات جنائز ذوى الفضل على الأمة . . »

وقد ألف الكواكبى « أم القرى » قبل تأليفه « طبائع الاستبداد » فأحصى بلسان المسلم الإنجليزى بعض مقومات التربية العامة التى يعنى بها الغربيون وهى بعبارته :

« تخصيصهم يوماً فى الأسبوع للبطالة والتفرغ من الأشغال الخاصة لتحصل بين الناس الاجتماعات وتنعقد الندوات فيتباحثون ويتناجون . »

« وتخصيصهم أياماً يتفرغون فيها لتذاكر مهمات الأعمال لأعاظم رجالهم الماضين تشويقاً .

« وإعدادهم فى مدنهم ساحات ومنتديات تسهيلا للاجتماع والمذاكرات وإلقاء الخطب وإبداء التظاهرات .

« وإيجادهم المتنزهات الزاهية العمومية وإجراء الاحتفالات الرسمية والمهرجانات بقصد السوق للاجتماعات .

« وإيجادهم محلات التشخيص المعروف بالكوميديا والتياترو بقصد إراءة العبر واسترعاء السمع للحكم والوقائع ولو ضمن أنواع من الخلاعة التى اتخذت شباكا لمقاصد الجمع والأسماع ويعتبرون أن نفعها أكبر من الخلاعة .

« ومنها اعتناؤهم غاية الإعتناء بتعميم معرفة تواريخهم الملية المفصلة المدمجة بالعلل والأسباب لحب الجنسية .

« ومنها حرصهم على حفظ العاديات المنبهة وادخار الآثار القديمة المنوهة واقتناء النفائس المشعرة بالمفاخر .

« ومنها إقامتهم النصب المفكرة بما نصبت له من مهمات الوقائع القديمة .

« ومنها نشرهم فى الجرائد اليومية كل الوقائع والمطالعات الفكرية .

« ومنها بثهم فى الأغانى والنشائد الحكم والحماسات ، إلى غير ذلك من الوسائل التى تنشىء فى القوم نشأة حياة اجتماعية » ..

ولا تتم فى الأمة تربية قومية بغير تعليم المرأة كما قال فى أم القرى : « إن ضرر جهل النساء وسوء تأثيره فى أخلاق البنين والبنات أمر واضح غنى عن البيان » .

وهذا فضلا عن سوء تأثيره فى الرجال من الأزواج ، لأن الرجل كما قال : « يغره أنه أمامها — أى أمام زوجته — وهى تتبعه فيظن أنه قائد لها والحقيقة التى يراها كل الناس من حولها دونه أنها إنما تمشى وراءه بصفة سائق لا تابع » .

ويفسر الكواكبى حجاب المرأة الشرعى بأنه « محدود بعدم إبداء الزينة للرجال الأجانب وعدم الاجتماع بهم فى خلوة أو لغير لزوم » لأن الحجاب بهذا

المقدار يكف من سوء تأثير النساء ويفرغ أوقاتهن لتدبير البيوت « توزيعاً لوظائف الحياة » .

ويرى الكواكبي أن « جهالة النساء المفسدة للنشأة الأولى وقت الطفولية والصبوة » هي علة من أكبر العلل التي أصابت الحياة القومية في الشرق بداء « الغرارة » كما سماه وفسره بالقصور عن طلب « الإتقان » في أعمال العاملين وإن كان لهم علم بما يعملون ويشرفون عليه .

فالذين يفهمون صناعاتهم من الشرقيين غير قليلين ، ولكنهم ، يقنعون بالفهم ولا يجيدون العمل ولا يذهبون فيه إلى غايته التي تخليه من النقص وتجمع له مزايا الإتقان والوفاء ، لأن الفهم شيء يقدر عليه المرء قبل التطبيق ، وإنما يظهر الإتقان أو النقص عند تطبيق الأعمال التي يتداولها الناس ، فلا يقع الإتقان حيث يثقل أمره على الناس في معاملاتهم وحيث يتهاونون فيه ولا يطلبونه أو يبذلون فيه حقه ، وهنا يظهر أثر « التربية القومية » في المعاملات ، أو يظهر الفارق البعيد بين فهم العمل والعناية باتقانه واجتناب النقص والتقصير فيه .

ومن الأمثلة التي أوردها الكواكبي على الغرارة في كبار الأعمال وصغارها أننا نتوهم « أن شئون الحياة سهلة بسيطة فنظن أن العلم بالشيء إجمالا ونظريا بدون ثمرة عليه يكفي للعمل به ، فيقدم أحدنا مثلا على الإمارة بمجرد نظره في نفسه أنه عاقل مدبر ، قبل أن يعرف ماهي الإدارة علما ويتمرن عليها عملا يكتسب فيها شهرة تعينه على القيام بها . . . ويقدم الآخر منا على الاحتراف — مثلا — ببيع الماء للشرب بمجرد ظنه أن هذه الحرفة عبارة على حمله قربة وقدحا وتعرضه للناس في مجتمعاتهم ولا يرى لزوما لتلقي وسائل إتقان ذلك عمن يرشده مثلا إلى ضرورة النظافة له في قربته وقدحه وظواهر هيئته ولباسه وكيف يحفظ برودة مائه وكيف يستبرقه ويوهم ليشتهى به ، ومتى يغلب العطش ليقصد المجتمعات ويتحرى منها الخالية له عن المزاحمين ، وكيف يتزلف الناس ويوهم بلسان حاله أنه محترف بالإسقاء كفا للسؤال ، إلى نحو هذا من دقائق إتقان الصنعة المتوقف عليها نجاحه ، وإن كانت صنعته بسيطة حقيرة » .

والتخصص في رأي الكواكبي علاج نافع لشفاء الأمم الشرقية من هـذه الغرارة لأن « الكياسة لا تتحق في الإنسان إلا في فن واحد فقط . . . وما جعل

الله لرجل من قلبين فى جوفه . فالعاقل من يتخصص بعمل واحد » .

ولا غنى — مع التخصص — من الترتيب على أنواعه ، ومنها ترتيب أوقات المرء حسب أشغاله وإهمال مالا يتسع الوقت له أو تفويضه إلى غيره ، ومنها ترتيب النفقة على قدر الكسب المضمون ، ومنها ترتيب أمر المستقبل « لإراحة نفسه من الكد فى دور العجز من حياته ، فيربى أولاده ذكورا وإناثا » ليستغنى كل منهم بنفسه متى بلغ أشده .

ومن الترتيب المطلوب أن يرتب المرء أموره الأدبية على نسبة حالته المادية، وأن يرتب ميله الطبيعى للمجد والتعالى على حسب استعداده فلا يتطاول إلى مقامات لا يبلغها .

* * *

ويكثر الكواكبى من الحض على التشبه بالغربيين فى بعض صفاتهم القومية وأشرفها فى تقديره صفات الولع بالمعرفة واليقظة الاجتماعية والاستعداد بالقوة والمنعة ، ولكنه يشفق من الإفراط فى الإعجاب بأمم الغرب أن يئول إلى استكانة الشرقيين أمامها وفقدانهم للثقة بأنفسهم فى معاملتها ويعيب على غالب أهل الطبقة العليا من الأمة كما قال بلسان السيد الفراتى أو بلسانه هو فى أم القرى : « إنهم ينتقصون أنفسهم فى كل شىء ويتقاصرون عن كل عمل ويحجمون عن كل إقدام ويتوقعون الخيبة فى كل أمل ، ومن أقبح آثار هذا الخور نظرهم الكمال فى الأجانب واتباعهم فيما يظنونه رقة وطرافة وتمدنا ، وينخدعون لهم فيما يغشونهم به كاستحسان ترك التصلب فى الدين والافتخار به .. »

وهو على إعجابه بالمستحسن من أخلاق الأوربيين القومية لا يرى أنهم سلموا من العيوب فى جملة أخلاقهم القومية ويأخذ عليهم كما قال فى باب الاستبداد والأخلاق من «طبائع الاستبداد» أنهم ماديون و«إن الغربى حريص على الاستئثار حريص على الانتقام كأنه لم يبق عنده شىء من المبادىء العالية والعواطف الشريفة التى نقلتها له مسيحية الشرق . فالجرمانى مثلا جاف الطبع يرى أن العضو الضعيف الحياة من البشر يستحق الموت ويرى كل الفضيلة فى القوة وكل القوة فى المال . فهو يحب العلم ولكن لأجل المال ويحب المجد ولكن لأجل المال ، واللاتينى مطبوع على العجب والطيش يرى العقل فى

الاطلاق والحياة فى خلع الحياء والشرف فى الزينة واللباس والعز فى التغلب على الناس » .

وهذه هى المآخذ التى يقابلها عند الشرقيين كما قال بعد ذلك « إنهم أدبيون يغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحب والإصغاء للوجدان والرحمة ولو فى غير موقعها واللطف ولو مع الخصم والفتوة والقناعة والتهاون فى المستقبل . ولهذا ليس فى شأن الشرقى أن يجوز ما يستبيحه الغربى وإن جوزه لا يحسن استثماره ولا يقوى على حفظه . . ويهتم فى شأن ظالمه المستبد فاذا زال لا يفكر فيمن يخلفه » .

بل هو يرى للشرق رسالة باقية فى هداية الإنسانية وإنقاذها من طغيان الحضارة المادية التى يتمادى فيها الغرب ويوشك أن يتردى فى هاوية من عواقبها لا نجاة له منها بغير مدد روحانى من الشرق كالمدد الذى تلقاه العالم من أديانه الأولى ، ويناشد الغرب فى ختام كتاب طبائع الاستبداد فيقول : « يا غرب ! لا يحفظ لك الدين غير الشرق إن دامت حياته بحريته ؛ وإن فقد الدين يهددك بالخراب القريب » ويسترسل سائلا وكأنه ينظر بلحظ الغيب إلى طغيان مذاهب الهدم الجحود : ماذا أعددت للفوضيين إذا صاروا جيشاً جراراً ؟ هل تعد لهم المواد المفرقعة وقد جاوزت أنواعها الألف ؟ أم تعد لهم الغازات الخانقة وقد سهل استحضارها على الصبيان » ؟

* * *

فمساك التربية القومية فيما أوصى به الكواكبى أنها نهضة مفتوحة العينين تمضى على بصيرة وثقة ولا تستسلم للإعجاب الذليل ولا للمحاكاة العمياء ، وأنها ملكة « تحصل بالتعليم والتمرين والقدوة والاقتباس ، أهم أصولها وجود المربين وأهم فروعها وجود الدين » .

وما من أمة تأخذ بأسباب هذه التربية يعييها أن تدرك الغاية من نفعها ، وأول هذه الأسباب صدق الرجاء فى إدراك تلك الغاية كما قال فى مقدمات أم القرى : « فلا يهولنا ما ينبسط فى جمعيتنا من تفاقم أسباب الضعف والفتور كى لا نيئس من روح الله ، ولا نتوهم الإصابة فى قول من قال إننا أمة ميتة فلا ترجى حياتنا . كما لا إصابة فى قول من قال إذا نزل الضعف فى دولة

أو أمة فلا يرتفع . فهذه الرومان واليونان والأمريكان والطليان واليابان وغيرها — كلها أمم أمثالنا استرجعت شأنها بعد تمام الضعف وفقد كل اللوازم الأدبية للحياة السياسية » .

وإنما هي حضانة علم وحضانة أخلاق ، وعشرون سنة تقوم بحضانة العلم ، وأربعون سنة تقوم بحضانة الأخلاق . إذا كانت عشرون سنة كافية لتخريج فئات من المتعلمين يبتدئون الدراسة من مكاتب التعليم الأولى وينتهون بها إلى معاهد التخصص والإحاطة بأدوات العمل والصناعة ، وإذا كانت تربية الأخلاق إنما تتم بتدريب الجيل كله على سنتها وعادتها ، وحدها الأوسط أربعون سنة تنتقل بالأمة من جيل إلى جيل .

* * *

وتتبع التربية القومية ، بل تسبقها في دور النهضة ، تربية « المربين » أو الزعماء الذين يقودون الأمة ويرسمون لها طريقها ويصبرون على تدريبها وتصحيح أخطائها .

وقد رأيناه يقول إن للنهضة أصولا أهمها وجود المربين ، وسنرى أنه — كدأبه في وصاياه الجامعة — لم ينس أن يوصي بالخطة التي تهيء لهؤلاء المربين أن يروضوا أنفسهم ويعدوا عقولهم وضمائرهم للصبر على متاعبهم وتذليل عقباتهم ونسيان « ذواتهم » في سبيل رسالتهم ، وهي رياضة صارمة قوية تجمع بين الشدة العسكرية والزهادة الصوفية ، وخلاصتها كما جاء في ختام طبائع الاستبداد :

(١) أن يجتهد المريد في ترقية معارفه لا سيما العلوم النافعة الاجتماعية كالحقوق والسياسة والاقتصاد ، والفلسفة العقلية وتاريخ قومه من جوانبه الجغرافية والطبيعة والسياسية ، مع النظر في الإدارة الداخلية والإدارة الحربية .

(٢) أن يتقن أحد العلوم التي تكسبه الاحترام بين قومه .

(٣) أن يحافظ على الآداب والعادات .

(٤) أن يقلل الاختلاط بالناس حفظاً للوقار واجتناباً للارتباط القوى بأحد ، كيلا يسقط بسقوطه .

(٥) أن يتجنب مصاحبه الممقوت عند الناس لاسيما الحكام .

(٦) أن يجتهد ما أمكنه في كتم مزيته العلميـة عمن دونه ليأمن من غوائل حسدهم ، وإنما عليه أن يظهر مزيته لبعض من هم فوقه بدرجات كثيرة .

(٧) أن يتخير من ينتمي إليه من الطبقة العليا ولا يكثر التردد عليه ولا يظهر له الحاجة .

(٨) أن يحرص على الإقلال من بيان آرائه لكيلا تؤخذ عليه تبعاتها .

(٩) أن يحرص على أن يعرف بحسن الأخلاق ولاسيا الصدق والأمانة والثبات .

(١٠) أن يظهر الشفقة على الضعفاء والغيرة على الدين والعلاقة بالوطن .

(١١) أن يتباعد من مقاربة المستبد وأعوانه إلا بمقدار ما يأمن شرهم إن كان معرضاً لذلك .

قال بعد سرد هذه الصفات : « فمن يبلغ سن الثلاثين — فما فوق — حائزاً على الصفات المذكورة يكون قد أعد نفسه على أكمل وجه لإحراز ثقة قومه ... وبهذه الثقة يفعل مالا تقوى عليه الجيوش والكنوز » .

وربما بالغ الكواكبي في التوصية باجتنـاب المظهر الذي يثير الحسد ويغري بالمقاومة في دور الدعوة والإقنـاع وتأليف الأنصار والأعوان ، بل قد بلغ من الحرص على ذلك أنه أثبته في خاتمة أم القرى فجعل « مظهر الجمعيـة العجز والمسكنة وأوصاها في القضية السابعة والأربعين بألا تقاوم ولا تقابل إلا بأساليب النصيحة والموعظة الحسنة وتلاطف وتجامل جهدها من يعادي مقاصدها . . إلا في الضرورات » .

إلا أنه لا ينكر على المصلح الذي انقادت له زعامة الأمة أن يدفعهـا دفعاً إلى التقدم والخير . لأنه يقرر غير مرة أن بلاء الشرق « فقد السراة والهداة . فلا أمير عام حازم مطالع يسوق الأمة طوعاً أو كرها إلى الرشاد ، ولا حكيم معترف له بالمزية والإخلاص تنقاد له الأمراء والنـاس ، ولا تربية قويمة ينتج منها رأي عام لا يطرقه تخاذل وانقسام » .

التربية المدرسية

تنظيم التربية المدرسية عمل يستقل به خبراؤه المختصون بالإشراف على إدارة المدارس وتحضير مناهج التدريس، وفى وسعهم أن يحصروا المعلمين والمتعلمين ويقسموا لمعاهد التربية مراحلها التى تكفى لأوقات الاستعداد وأوقات التكملة والانتهاء ، على حسب الحاجة المتجددة إلى كل صنف من أصناف الدراسات .

وربما بدأت أعمال هؤلاء الخبراء عند نهاية العمل السابق الذى يتصدى له الإمام المصلح لحث الأمة على افتتاح المدارس وتعليم الأبناء . فليس « تصنيف » المواد المدرسية من عمل الإمام المصلح فى دور التنبيه والاستنهاض والحض على طلب العلم كله ، كائناً ما كان .

ولكن الإمام الكواكبى قد نشأ فى عصر ثقافى مريج ملتبس المظاهر بالحقائق كثير البقايا من الماضى والطلائع من المستقبل ، فاضطر إلى مهمة من مهام « التخليص » بين البقايا والطلائع ووجبت عليه المشاركة فى « تصنيف العلوم » المدرسية ليميز على الأقل صفة العالم الجديد بمكانة الإرشاد والهداية وصفة العلم الذى يفضل فى رسالته الأولى وهى كفاح الإستبداد والدعوة إلى الحرية .

وكذلك كان العلم عنده علمين : علم يطمئن إليه الاستبداد ولا يخاف عقباه وعلم يعرف به الإنسان « أن الحرية أفضل من الحياة » ويدرك به « النفس وعزها والشرف وعظمته ، والحقوق وكيف تحفظ ، والظلم وكيف يرفع ، والإنسانية وما هى وظائفها ، والرحمة وما هى لذاتها » .

* * *

ومن الظروف الثقافية التى ألجأته فى عصره إلى المشاركة العامة فى مناهج

التربية المدرسية أن العلم كان فى بعض المراسم « منحة » حكومية تخلع على طائفة من أصحاب الحظوة من المهد بغير حاجة إلى مدرسة ولا إلى دروس .

فالطفل من طائفة « زادكان » أى الأصلاء ينعت فى المنشور الرسمى عند ولادته (بأنه أعلم العلماء المحققين) ... ثم يكون فطيما فيخاطب بأنه (أفضل الفضلاء المدققين) ....ثم يصير مراهقاً فيعطى المولوية ويشهد له بأنه (أقضى قضاة المسلمين معدن الفضل واليقين رافع أعلام الشريعة والدين وارث علوم الأنبياء والمرسلين) ...ثم يكبر فيوصف (بأعلم العلماء المتبحرين وأفضل الفضلاء المتورعين ينبوع الفضل واليقين) إلى آخر ما فى تلك المناشير من الكذب المبين.

يقول الكواكبى بلسان المولى الرومى بعد ما تقدم : « ولا ريب أن التسعين فى المائة من هؤلاء العلماء المتبحرين لا يحسنون قراءة نعوتهم المزورة ، كما أن الخمسة والتسعين فى المائة من أولئك المتورعين رافعى أعلام الشريعة والدين يحاربون الله جهاراً ويستحقون ما يستحقون من الله وملائكته والمؤمنين » .

ثم يقول: « ويكفى حجة عليهم ... تمييزهم جميعاً بلباس عروس محلى بكثير الفضة والذهب مما هو حرام بالإجماع ولا يحتمل التأويل ... اقتبسوا هذا اللباس من كهنة الروم الذين يلبسون القباء والقلنسوات المذهبة عند إقامة شعائرهم وفى احتفالاتهم الرسمية ... »

* * *

وأمر هؤلاء « العلماء » بغير علم وبغير تعليم مفروغ منه ، لا يحتاج من الدولة إلى أكثر من المنشورات الرسمية لإعداده وتمكينه من مناصبه ، ولا يحتاج من الإمام المصلح فى دور النهضة إلى أكثر من التنبيه إليه لإسقاط شأنه والإعراض عنه .

لكن الشأن الذى لا يغنى فيه مثل هذا التنبيه إنما كان شأن « العلماء » بنوع من العلم المطلوب فى معاهده ولكنه لا يلتقى بالإصلاح فى طريقه أو تلتقى به فى بعض الطريق ويتولى عنه فى سائرها .

من هؤلاء طائفة العلماء الجامدين على التقليد ، ولا يعنيهم من العلم غير الإلمام بأشكال الفرائض والشعائر على سنة التقليد الأعمى بغير نظر فى حكمتها ومعناها ، ومن هؤلاء من كان يحرم تعليم الأبناء دروس الجغرافية الحديثة لأنها تعلمهم

أن الأرض مستديرة وأنها تدور حول الشمس وتدور حول نفسها ، خلافاً لما توهموه من معنى انبساط الأرض واستقرارها أن تميد بمن عليها ، ومن هؤلاء من كان يستريب بالتلفون لأن انتقال الصوت على مدى الفراسخ والأميال من فعل الشيطان ولن يؤذن له أن يفعله بعد سليمان !

وأحسن من هؤلاء حالا من كانوا يبيحون المعرفة بالعلوم الحديثة ولكنهم يحرمون أسماءها ولا يجيزون تدريس الظواهر الطبيعية إلا أن تسمى « بعلم الخصائص التي أودعها الله سبحانه وتعالى طبائع الأشياء . . » .

وأحسن من هؤلاء حالا من كانوا يسمحون بتعليم جميع العلوم ويقصرون النفع منها على تخريج الموظفين وصناع المعامل التي تديرها الحكومة لخدمة أغراضها ومآربها . وقد كان في بلاد الدولة العثمانية ولاة يفتحون المدارس ويبعثون البعوث إلى بلاد القارة الأوربية لتحصيل الصناعات والعلوم العملية والنظرية التي تعينهم على تنظيم الدواوين وإدارة مصالح الري والزراعة وتعمير الخزانة العامة لمنفعتهم أو منفعة السلطة الحكومية .

ونشأ مع هذه « التصنيفات المدرسية » صنف من العلوم قد تعم الحاجة إليه في توسيع نطاق الثقافة وتنويع أبواب المعرفة ، وهو العلوم الفكرية الكمالية من فلسفة وبلاغة وتحليل لأصول التشريع والتاريخ وما إليها ، ولكنها مما يحتمل الإرجاء إلى مابعد الوثبة الأولى من وثبات الإصلاح في رأي بعض القادة الذين يرتبون أدوار الثقافة بترتيب الضرورات الفردية ، ولا يحسبون حساباً كبيراً للفارق بين ضرورات الأمم وضرورات الأفراد .

* * *

في مثل هذا العهد من عهود التنازع على اختيار العلوم المقدمة يلتجيء الإمام المصلح إلى المشاركة في عمل الخبير المدرسي المتفرغ لتصنيف علوم الدراسة وإعداد مناهج التربية في مراحلها المتتابعة .

وقد اضطر الكواكبي إلى المشاركة في هذا العمل ، ونظر إليه ــ كعادته ــ من زاويته التي هي أولى عنده بالتقديم من كل زاوية ، وهي ناحية النظر إلى الاستبداد وما يخشاه المستبد من العلوم ومالا يخشاه ، وما هو أحق ــ من ثم ــ بالابتدار به والتعويل عليه في كل نهضة تنبعث لطلب الحرية ومكافحة الاستبداد .

قال فى طبائع الاستبداد : « المستبد لا يخشى علوم اللغة ــ تلك العلوم التى بعضها يقوم اللسان وأكثرها هزل وهذيان يضيع به الزمان ... نعم لا يخاف علم اللغة إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الألوية أو سحر بيان يحل عقد الجيوش ، لأنه يعرف أن الزمان ضنين بأن تلد الأمهات كثيراً من أمثال الكميت وحسان ، أو أمثال منتسكيو وشيلار ، وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد ، المختصة بما بين الإنسان وربه ، لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزال غشاوة ، وإنما يتلهى بها المتهوسون للعلم حتى إذا ضاع فيه عمرهم ، وامتلأت بها أدمغتهم ، وأخذ منهم الغرور ما أخذ فصاروا لا يرون علماً غير علمهم ، فحينئذ يأمن المستبد منهم كما يؤمن شر السكران إذا خمر . على أنه إذا نبغ منهم البعض ونالوا مزية بين العوام لا يعدم المستبد وسيلة لاستخدامهم فى تأييد أمره ومجاراة هواه فى مقابلة أنه يضحك عليهم بشىء من التعظيم ويسد أفواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد .

* * *

ويقول الكواكبى بلسان الرياضى الكردى فى أم القرى : « إن السبب العام هو أن علماءنا كانوا اقتصروا على العلوم الدينية وبعض الرياضيات وأهملوا باقى العلوم الرياضية والطبيعية التى كانت إذ ذاك ليست بذات بال ولا تفيد سوى الجمال والكمال . ففقد أهلها من بين المسلمين واندرست كتبها وانقطعت علاقتها فصارت منفوراً منها .. والمرء عدو ماجهل، بل صار المتطلع إليها منهم يُفسق ويرمى بالزيغ والزندقة ، على حين أخذت هذه العلوم تنمو فى الغرب ، وعلى كر القرون ترقت وظهرت لها ثمرات عظيمة فى كافة الشئون المادية والأدبية . . »

فعلوم الرياضة والطبيعة التى كانت قبل بضعة قرون مجموعة من المعادلات النظرية والخواطر الفكرية هى التى تطورت بها نهضة الثقافة فى الغرب فأصبحت فى طليعة علوم القوة والعمل، وقام عليها تقسيم المتخصصين للكشف والاختراع واستطلاع حقائق المادة واستنباط القوانين التى تحكمها وتفسرها .

ولازمتها علوم نظرية ولكنها لازمة لتوسيع الثقافة العامة ولا سيما ثقافة

القادة المتطلعين إلى كفالة النهضة فى أوائلها ، ولهذا يوصى الشاب الذى يتطلع إلى هذه القيادة أن « يوسع معارفه مطلقاً » ولا سيما فى العلوم الاجتماعية كالحقوق والسياسة والاقتصاد والفلسفة العقلية والتاريخ والجغرافية والإدارة الداخلية والإدارة الحربية . . وسائر ما نسميه فى هذا العصر بالمعلومات العامة .

وإذا أراد هذا الشاب أن يكسب فى قومه « موقعاً محترماً » فلا غنى له مع سعة معلوماته العامة من الاختصاص بأحد العلوم التى يشعر الناس بقدرها كعلم الدين أو الطب أو الإنشاء أو الحقوق .

* * *

على أن التربية المدرسية — تربية أبناء الأمة — تبدأ قبل المدرسة ولا تنتهى بانتهائها كما قال فى طبائع الاستبداد : « إن التربية تربية الجسم وحده إلى سنتين وهى وظيفة الأم وحدها ، وتربية النفس إلى السابعة وهى وظيفة الأبوين والعائلة معاً ، ثم تضاف إليها تربية العقل إلى البلوغ وهى وظيفة المعلمين والمدارس . ثم تأتى تربية القدوة بالأقربين والخلطاء إلى الزواج وهى وظيفة الصداقة ثم تأتى تربية المقارنة وهى وظيفة الزوجين إلى الموت أو الفراق » .

* * *

فالتربية الفردية ، على هذا ، قصة محبوكة الطرفين بين حجر الأمومة فى الطفولة الباكرة وبين كنف الزوجية بعد استواء السن وتقدمها ... لا جرم يكثر الحض فى كلام الكواكبى على تصحيح وظيفة المرأة فى الحياة والتحذير من جهلها وسوء تربيتها والانحراف بها عن سوائها ، فان النساء كما جاء فى طبائع الاستبداد اقتسمن مع الرجال أعمال الحياة قسمة ضيزى .. « وجعلن الشجاعة والكرم سيئتين فيهن محمدتين فى الرجال ، وجعلن نوعهن يهين ولا يهان ويتظلم أو يظلم فيعان ، وعلى هذا القانون يربين البنات والبنين ويتلاعبن بعقول الرجال كما يشأن .... ومن المشاهد أن ضرر النساء بالرجال يترقى مع الحضارة

والمدنية على نسبة الترقى المضاعف . فالبدوية تشارك الرجل مناصفة فى الأعمال والثمرات فتعيش كما يعيش ، والحضرية تسلب الرجل لأجل معيشتها وزينتها اثنين من ثلاث وتعينه فى أعمال البيت ، والمدنية تسلب ثلاثة من أربعة وتود ألا تخرج من الفراش ، وهكذا تترقى بنات العواصم فى أسر الرجال . وما أصدق بالمدنية الحاضرة فى أوربة أن تسمى المدنيـة النسائية لأن الرجال فيها صاروا أنعاماً للنساء » .

الأخـــلاق

يكتب الكواكبي فى جميع مباحثه بقلم الباحث المحلل الذى يزن آراءه بميزان المنطق العملى والتجربة العلمية ، وينحو هذا النحو فى كتابته عن الأخلاق وفى كتابته عن السياسة الحاضرة أو التاريخ الغابر ، ولكنه يصل إلى بعض الصفات فى سياق كلامه على الأخلاق فيخيل إليك أنه يود لو يدع القلم جانبا ليأخذ بيده ريشة النغم ويترنم وهو يتكلم ،وأول هذه الصفات صفة الإرادة وصفة الحرية ، وسائر الصفات التى تلغى الاستبداد أو يلغيها الاستبداد .

يقول فى باب الأخلاق من طبائع الاستبداد : « ماهى الإرادة ؟ هى أم الأخلاق . هى ما قيل فيه تعظيما لشأنها : لوجازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الإرادة . هى تلك الصفة التى تفصل الحيوان عن النبات فى تعريفه بأنه متحرك بالإرادة . فالأسير إذن دون الحيوان لأنه يتحرك بارادة غيره لا بارادة نفسه ».

ثم يقول فى وصف الأسير مسلوب الإرادة : « لانظام فى حياته فلا نظام فى أخلاقه . قد يصبح غنياً فيضحى شجاعاً كريماً وقد يمسى فقيراً فيبيت جبانا خسيساً ، وكذا كل شئونه تشبه الفوضى لا ترتيب فيها ، فهو يتبعها بلا وجهة . أليس الأسير قد يبغى فيزجر أو لايزجر ، ويبغى عليه فينصر أو لاينصر ، ويحسن فيكافأ أو يرهق ويسىء كثيراً فيعفى وقليلا فيشنق ، ويجوع يوما فيضوى ويخصب يوما فيتخم ، ويريد أشياء فيمنع ويأبى شيئاً فيرغم . . »

ومما قاله عن الحرية فى أم القرى : « إن البلية فقدنا الحرية . وما أدرانا ما الحرية ؟ هى ما حرمنا معناه حتى نسيناه ، وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه » .

ثم قال : « إن الحرية أعز شيء على الإنسان بعد حياته . . بفقدانها تفقد الآمال وتبطل الأعمال وتموت النفوس وتتعطل الشرائع وتختل القوانين » .

وقد عرفنا من كل ما كتبه هذا المفكر العامل أنه « منطقي مع نفسه في مذاهب تفكيره .. ولكن ما كتبه عن الإرادة والحرية بصفة خاصة أدل على هذه السليقة فيه ، أو أعمق دلالة عليها ، من مسائل كثيرة طرقها ولا يستغرب فيها أن تتناسق وتطرد على وتيرة واحدة لظهور العلاقة بينها . وإنما اختصاص الإرادة والحرية بالتمجيد والتقديس آية من الآيات الصادقة على أصالة التفكير والشعور فيما يكتب عن هذه الأمور ، أو هو آية على نفس مطبوعة بتفكيرها وإحساسها على إدراك مساوىء الاستبداد والفطنة لمواطن ضرره ومواطن طبه وعلاجه ، فلا الشجاعة ولا الكرم ولا العفة ولا المروءة تصور الخلق المطلوب في مناضلة الاستبداد كما تصوره الإرادة والحرية ، ولا شيء ينفع في ذلك النضال مع فقدان الإرادة والحرية ، ولا بد أن تقترنا معاً لتمام الأهبة في ثورة الأمة على المستبد ، لأن الإرادة بغير حرية تبع لصاحب السيادة ، ولأن الحرية بغير إرادة تفقد الباعث على الحركة فلا تدرى لها وجهة تذهب إليها . ولعل العبد يعتزم ويريد ويصمد على عزمه وإرادته في خدمة سيده فلا جدوى لغير هذا السيد في ملكة الإرادة التي يتصف بها عبيده ومطيعوه .

والاستبداد ــ كما لا يخفى ــ يتلخص في تغليب إرادة واحدة لا تسمح بإرادة أخرى تعمل إلى جانبها على خلاف هواها . فليس من الطبيعي أن يبقى لمن خضعوا له طويلا عمل يريدونه لأنفسهم ويتدبرونه فيما بينهم ، فلا تعنيهم إرادة غير إرادة الحاكم المسلط عليهم ولا يشغلهم شاغل في حياتهم غير الخوف من غضبه والسعي إلى رضاه ، وشر من عملهم له راغمين خوفاً منه ، أن يعملوا له راضين جهلا بحقيقته وانقياداً لخداعه وخداع أذنابه ومؤيديه .

* * *

والواقع أن مؤلف طبائع الاستبداد قد حصر مشكلة الأخلاق جميعاً في وضع واحد : خلاصته أنها « حرب إرادات بين الحاكم المطلق والرعايا المحكومين .

فاستطاع – من ثم – أن يحسم المشكلة حسما سريعاً بقسمة الأخلاق إلى قسمين متعارضين : قسم لمصلحة الحاكم المستبد وقسم لمصلحة الرعايا المحكومين .

فمن مصلحة المستبد شيوع أخلاق الملق والنفاق والريبة والأثرة التي تشغل المحكوم بمنفعته القريبة دون كل منفعة عامة ينتفع بها هو أو ينتفع بها غيره بعد حين : « وأقل ما يؤثره الاستبداد فى أخلاق الناس أنه يرغم – حتى الأخيار منهم – على ألفة الرياء والنفاق . . . وأنه يعين الأشرار منهم على إجراء ما فى نفوسهم آمنين من كل تبعة ولو أدبية . فلا اعتراض ولا انتقاد ولا افتضاح . لأن أكثر أعمال الأشرار تبقى مستورة يلقى عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة على ذى شر وعقبى ذكر الفاجر بما فيه . ولهذا شاعت بين الأسراء قواعد كثيرة باطلة كقولهم : إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب ، وقولهم : البلاء موكول بالمنطق ، وقد تغالى وعاظهم فى سد أفواههم حتى جعلوا لهم أمثال هذه الأقوال من الحكم النبوية . . » .

ومن آثار أخلاق الذلة والخضوع أنها تؤذى الأجسام فضلا عن العقول ، وتشيع المرض فى بنية الحى كما تشيع المرض فى ضميره ، وإن فى ذلك شاهداً بيناً « يقاس عليه نقص عقول الأسراء البؤساء بالنسبة إلى الأحرار السعداء ، كما ظهر الحال أيضاً . . . . من الفرق البين فى قوة الأجسام وغزارة الدم واستحكام الصحة وجمال الهيئات » .

ومن سوء أثر الاستبداد أنه « يضعف الثقة بالنفس » ويفقد الناس ثقة بعضهم ببعض « فينتج من ذلك أن الأسرى محرومون طبعاً من ثمرة الاشتراك فى أعمال الحياة ، يعيشون مساكين بائسين متواكلين متخاذلين متقاعسين متفاشلين . والعاقل الحكيم لا يلومهم بل يشفق عليهم ويلتمس لهم مخرجاً ويتبع أثر أحكم الحكماء القائل : رب ارحم قومى فانهم لا يعلمون . . . » .

ولا بقاء للاستبداد إذا تعود الناس الاشتراك فى الرأى والتعاون على العمل . فعلى هذا الاشتراك يقوم نظام الرعايا الأحرار فى الأمم التى سقط فيها حكم الاستبداد وخلفته حكومة الأمة للأمة : « فبه سر الاستمرار على الأعمال التى لا تفى بها أعمار الأفراد . نعم . الاشتراك هو السر كل السر فى نجاح الأمم

المتمدنة ، به أكملوا ناموس حياتهم القومية . به ضبطوا نظام حكوماتهم . به قاموا بعظائم الأمور . به نالوا كل ما يغبطهم عليه أسرى الاستبداد الذين منهم العارفون بقدر الاشتراك ويتشوقون إليه ، ولكن كل منهم يبطل الغبن لشركائه باتكاله عليهم عملا واستبداده عليهم رأياً ، حتى صار من أمثالهم قولهم : ما من متفقين إلا وأحدهم مغلوب . . . » .

ويرى الكواكبي أن حكم الاستبداد قد استفحل بين المسلمين بعد إهمالهم حياة الجماعة والمشاورة بين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر ، وأن سبب الفتور الذى أصابهم — كما جاء بلسان خطيب من « خطباء » أم القرى « هو فقد الاجتماعات والمفاوضات ... إذ نسوا حكمة تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج وترك خطباؤهم ووعاظهم — خوفاً من أهل السياسة — التعرض لشئون العامة ، كما أن علماءهم صاروا يسترون جبنهم بجعلهم التحدث فى الأمور العمومية والخوض فيها من الفضول والاشتغال بما لايعنى ، وأن إتيان ذلك فى الجوامع من اللغو الذى لايجوز . وربما اعتبروه من الغيبة والتجسس أو السعى بالفساد فسرى ذلك إلى أفراد الأمة وصار كل فرد لايهتم إلا بخويصة نفسه وحفظ حياته فى يومه ، كأنه خلق أمة وحده . . » .

* * *

ولما فرغ من قسمة الأخلاق بمقياسه الدائم إلى قطبين متقابلين : أخلاق الاستبداد وأخلاق الحرية ، أو أخلاق لمصلحة الحاكم المطلق وأخلاق لمصلحة الرعايا نظر فى تقسيمها درجات على حسب المصلحة التى تعنى بها ، وأنواعا على حسب نصيبها من الشرف والرفعة .

فالمصالح التى تحققها الأخلاق هى مصلحة الإنسان نحو نفسه ، ومصلحته نحو عائلته ، ومصلحته نحو قومه ، ومصلحته نحو الإنسانية ، وهذه هى الأخلاق العليا التى تسمى عند الناس بالناموس .

ثم هى أنواع « الخصال الحسنة الطبيعية كالصدق والأمانة والهمة والمدافعة والرحمة . . . والخصال الكمالية التى جاءت بها الشرائع الإلهية كتحسين الإيثار والعفو وتقبيح الزنا والطمع . . . ويوجد فى هذا النوع مالا تدرك كل العقول

حكمة تعميمه فيمتثله المتسبون للدين أحتراماً وخوفاً . . . والنوع الثالث الخصال الاعتيادية وهي ما يكتسبه الإنسان بالوراثة أو التربية أو الألفة . . . والتدقيق يفيد أن الأقسام الثلاثة تشتبك وتشترك ويؤثر بعضها في بعض فيصير مجموعها تحت تأثير الألفة المديدة . . . ترسخ أو تتزلزل حسبما يصادفها من استمرار الألفة أو انقطاعها . . فالقاتل — مثلا — لا يستنكر شنيعته فى المرة الثانية كما استقبحها من نفسه فى الأولى ، وهكذا يخف الجرم فى وهمه حتى يصل إلى درجة التلذذ بالقتل كأنه حق طبيعى له ، كما هى حالة الجبارين وغالب السياسيين الذين لا ترتج فى قلوبهم عاطفة رحمة عند قتلهم أفراداً أو أمما لغاياتهم السياسية إهراقاً بالسيف أو إزهاقاً بالقلم » .

وهنا يئول الأمر إلى مساوىء الاستبداد فى إفساد الأخلاق . لأن ألفة الأحوال العامة تتبعه وتنطبع انطباع العادة فى ظله : « ويكفيه مفسدة لكل الخصال الحسنة الطبيعية والشرعية والاعتيادية تلبسه بالرياء اضطراراً حتى يألفه ويصير ملكة فيه فيفقد بسببه ثقة نفسه بنفسه » .

* * *

ولا يفوتنا — ونحن نختم القول فى آراء الكواكبى — أننا أمام « برنامج عملى » يصدق عليه وصف « البرنامج » قبل أن يصدق عليه وصف الفلسفة أو المذهب أو النظرية . فلم يكن يعنيه أن يدرس الأخلاق من وجهة الأصول العامة والمبادىء النظرية كما عناه أن يدرسها من زاوية النظر إلى الاستبداد وأثر الحكومة المستبدة التى يبدأ منها ويعود إليها فى كل شرح من شروحه وكل سند من أسناده ، ولهذا اخترنا اسم « البرنامج » لفلسفته العملية . واخترناه إنصافاً لمنهجه فى التفكير وتبرئة له من ضيق الحصر الذى يلازم الفكر المحدود فلا يخرج منه لأنه لا يقدر على تجاوزه لا لأنه مشغول فى بحوثه بالأمر الذى يعنيه .

وسيلة التنفيذ

عرضنا فيما تقدم برنامج الإصلاح فى دعوة الكواكبى من أهم جوانبها السياسية والاجتماعية .

ويبدو من النظرة العاجلة — كما يبدو فى إطالة النظر فى هذه البرامج — أنها خطة ثورية لقلب نظام الحكم المطلق فى بلاد العرب وإقامة الحكم القومى على أساس الشورى فى تلك البلاد .

فما هى وسيلة الكواكبى إلى تحقيق تلك الخطة الثورية ؟

إنه لم يكتمها وإن أخفى غايتها التى لا خفاء بها مع العلم بمقدماتها .

وسنرى أنه كان « واقعياً عملياً » فى وسيلته كما كان « واقعياً عملياً » فى دعوته . فان وسيلته التى اطمأن إليها كافية لتحقيق الغاية القصوى كما يريدها ، وعلينا أن نتذكر تلك الغاية القصوى ونحصرها فى نطاقها لكى نعلم كفاية الوسيلة لتحقيق الغاية منها .

علينا أن نذكر أنه كان يريد قلب نظام الحكم المطلق فى بلاد العرب ، ولم يكن ذلك موقوفاً على قلب هذا النظام فى الدولة العثمانية أو قلب نظام الحكم فى القسطنطينية عاصمة السلطان العثمانى ومركز الحكومة التركية . فان قلب الحكومة المستبدة فى الدولة التركية قد يحتاج إلى وسيلة غير وسيلته المختارة لتحرير بلاد العرب واستقلالها بشئونها ، سواء تم هذا الاستقلال دفعة واحدة أو جاء على درجات تترقى من الحكم الذاتى إلى تمام الاستقلال .

كان « الكواكبى » عربياً بتفكيره وشعوره فى ثقته الكبرى « بقوة الكلمة »

أو قوة الدعوة المنتظمة . وتتراءى هـذه الثقة القوية بفعل الـكلمة فى إيقاظ الشعوب من عنوان كتاب « طبائع الاستبداد » الذى أردفه على الغلاف بسطر يقول فيه إنه « كلمات حق وصيحة فى واد . إن ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد » .

ومن ثقته بفعل الدعوة المنتظمة قوله فى مقدمة أم القرى : « أيقنوا أيها الإخوان أن الأمر ميسور وأن ظواهر الأسباب ودلائل الأقدار مبشرة أن الزمان قد استدار ونشأ فى الإسلام أقطاب أحرار وحكماء أبرار ، يعد واحدهم بألف وجمعهم بألف ألف . فقوة جمعية منتظمة من هؤلاء النبلاء كافية لأن تخرق طبل حزب الشيطان وتسترعى سمع الأمة مهما كانت فى رقاد عميق وتقودها إلى النشاط وإن كانت فى فتور مستحكم عتيق .. لأن الجمعيات المنتظمة يتسنى لها الثبات على مشروعها عمراً طويلا يفى بما لا يفى به عمر الواحد الفرد وتأتى بأعمالها كلها بعزائم صادقة لا يفسدها التردد . وهذا هو سر ما ورد فى الأثر من أن يد الله مع الجماعة ، وهذا هو سر كون الجمعيات تقوم بالعظائم وتأتى بالعجائب ، وهذا هو سر نشأة الأمم الغربية ، وهذا هو سر النجاح فى كل الأعمال المهمة ، لأن سنة الله فى خلقه أن كل أمر — كلياً كان أو جزئياً — لا يحصل إلا بقوة وزمان متناسبين مع أهميته ، وأن كل أمر يحصل بقوة قليلة فى زمان طويل يكون أحكم وأرسخ وأطول عمراً مما إذا حصل بمزيد قوة فى زمان قصير . وكلنا يعلم أن مسألتنا أعظم من أن يفى بها عمر إنسان لا ينقطع أو مسلك سلطان لا يطرد أو قوة عصبية حضرية حمقاء تفور سريعاً وتغور سريعاً . . »

قال : « ولا ينبغى الاسترسال مع الوهم إلى أن الجمعيات معرضة فى شرقنا لتيار السياسة فلا تعيش طويلا — ولا سيما إذا كانت فقيرة — ولم تكن كغالب الأكاديميات ، أى المجامع العلمية ، تحت حماية رسمية ، بل الأليق بالحكمة والحزم الإقدام والثبات وتوقع الخير إلى أن يتم المطلوب » .

فهذه الوسيلة — وسيلة الكلمـة الحية والدعوة المنتظمة — كافية صالحة لتحقيق غايتها ، مفضلة على الوسائل الأخرى التى قد يستخدمها الدعاة لقلب الدول وإقامة النظم وقيادة الشعوب من حال إلى حال .

فاذا انتشرت الفكرة بين قادة الرأى فى البلاد العربية فقد تحققت نتيجة

لا شك فيها ولا حاجة إلى نتيجة أكبر منها ، وهى تصعيب كل حكم للعرب يخالف الدعوة وإحراج الدولة الحاكمة فى بلادهم سواء عولت فى حكمها على التعاون معهم أو اعتمدت على السطوة وحدها لإخضاعهم وتطويعهم ، وكلاهما مطلب عسير لا يطول عليه صبر الحاكم الأجنبى ولا تطول فيه المحكومين .

أكان الكواكبى يزهد فى الثورة الدموية أو يحجم عنها خوفاً من أخطارها ؟

كلا ... فقد فكر طويلا فى هذه الثورة وبحث كثيراً فى أحوالها كما يظهر من استقصائه لجميع هذه الأحوال فى خاتمة كتاب طبائع الاستبداد . فوقر فى خلده أن تدبير هذه الثورة قبل إعداد العدة لما بعدها خطل فى الرأى ومضيعة للجهود ومجازفة بالنتيجة المرجوة ، ووقر فى خلده — مع هذا — أن العامة لا يثورون فى الأغلب الأعم إلا لأسباب محصورة قلما تجتمع فى وقت واحد .

« فلا يثور غضبهم على المستبد إلا عقب مشهد دموى مؤلم يوقعه المستبد على مظلوم يريد الانتقام لناموسه ، أو عقب حرب يخرج منها المستبد مغلوباً . . أو عقب تظاهر المستبد باهانة الدين .. أو عقب تضييق شديد عام مقاضاة لمال كثير لا يتيسر إعطاؤه .. أو فى حالة مجاعة أو مصيبة عامة لا يرى فيها الناس مواساة ظاهرة من المستبد .. أو عقب تعرض المستبد لناموس العرض أو حرمة الجنائز أو تحقير الشرف الموروث .. أو عقب تضييق يوجب تظاهر عدد كبير من النساء .. أو عقب الظهور بموالاة شديدة لمن تعتبره الأمة عدواً لشرفها .. »

والمستبد — كما قال — لا تخفى عليه هذه المزالق مهما كان غبياً لا يغفل عن إتقانها .

وقد كاد الكواكبى يستقصى كل سبب يثير العامة ويهيج سخطهم على الحاكم لساعتهم على غير هدى منهم لغايتهم أو لعمل ينفعهم ، ويدل استقصاء الكواكبى لهذه الأسباب على طول تفكيره فى تدبير الثورة العامة حيث ترجى الفائدة من نشوبها ، وهى — فى الواقع — لا ترجى لها فائدة قبل اتضاح الخطة التى تعقبها وتستقر عليها وقبل تعميم الدعوة إلى تلك الخطة بين القادرين على تحقيقها : « فان معرفة الغاية شرط طبيعى للإقدام على كل عمل ، كما أن معرفة الغاية لا تفيد شيئاً إذا جهل الطريق الموصل إليها . والمعرفة الإجمالية فى هذا

الباب — لا تكفى مطلقاً ، بل لابد من تعيين المطلب والخطة تعيناً واضحاً موافقاً لرأى الكل أو لرأى الأكثرية ... »

ولم يكن هذا الثائر المتمكن من قواعد الثورة ليجهل فعل القوة العسكرية فى تبديل النظم وتقويض الحكومات ، فقد كان يقول لصحبه ومن يخاطبهم بدعوته : « لو ملكت جيشاً لقلبت حكومة عبد الحميد فى أربع وعشرين ساعة ». وكان قصاراه من البيان فى هذا الصدد أن يفضى به إلى ثقاته حيث لايتأتى إعلانه فى الصحافة المنشورة ولا جدوى من إعلانه ونشره . وممن صرح لهم بهذا الرأى « ابراهيم سليم النجار » الذى قال عنه فى مجلة الحديث إنه لو لم يكن شيخاً دينياً لكان قائد جيش فاتح .. »

نعم . هكذا كان ينبغى أن يفكر فى تدبير الوسيلة لقلب حكومة عبد الحميد فى القسطنطينية ، لأن دعوته إلى النهضة العربية لا تغنى شيئاً فى محاربته السلطان القائم بالأمر فى العاصمة التركية ما لم تسعده قوة السلاح . ولكنه فى دعوته التى تجرد لها لايلفى بين يديه وسيلة أنفع من وسيلته ولا يصل إلى نتيجة مرموقة أفضل من النتيجة التى يصل إليها بالكلمة الحية والجماعة المنتظمة . وحسبه أن يبلغ بها حد الإقناع فى قومه ليسقط كل حكومة تسوسهم فى عقر دارهم على غير اعتقادهم واختيارهم . وإنما المسألة هنا مسألة وقت مقدور لا شك بعد انقضائه فى الغاية التى يئول إليها .

* * *

وأيا كان القول الفصل فى كفاية الدعوة وحدها لاستقلال العرب بالحكم الذاتى أو بالانفصال من الدولة العثمانية فالحقيقة التى لاخلاف عليها أن الدعوة ألزم وسيلة من وسائل العمل النافع حين يكون المقصود إقناع أصحاب الحق بحقهم وتعزيز الثقة بأنفسهم وبامكان الظفر بأمنيتهم ، قبل التغلب بوسيلة من الوسائل على غاصب الحق أو المعارض فيه . فان زوال القوة الغاصبة قبل اتفاق أصحاب الحق عليه وعلى الغاية من إدراكه قد يفتح أبواب الفتنة على مصاريعها ويمهد الطريق لغاصب طارىء بعد غاصب معزول .

ويقل الخلاف فى مسألة الخلافة وكفاية الدعوة لإقامتها على الصورة التى

تداولتها آراء الكواكبي بألسنة المتكلمين فى أم القرى ؛ وبخاصة حين يكون الخليفة إماما روحيا محدود السلطان فى شئون الدولة . فليس السلطان العثمانى فى هذه الحالة وجه من الوجوه لإبطال بيعة الخلافة بالقوة العسكرية لواستطاعها مع جميع الأمم الإسلامية ، المستقلة وغير المستقلة ،وهو لا يستطيعها ولو تهيأت له الذريعة الشرعية لاستخدام قوته العسكرية .

على أن الراجح فى تقديرنا أن الكواكبي إنما أراد شيوع الفكرة بين المسلمين ببطلان دعوى الخلافة العثمانية ، لأن بقاء هذه الفكرة على شيوعها فى العالم يومئذ قد يشل حركته ويضعف حجته ويمثله للناس كأنه محارب للخلافة الإسلامية مؤيد للغارة عليها من جانب الدول الاستعمارية . فاذا ارتفعت هذه الشبهة فهو قمين أن يكسب الرأى العام إلى صفه وأن يتقى دسائس الدول التى لا يعييها أن تبثها بين الأمم التابعة لها إحباطاً لمسعاه ، بل لعل هذه الدول ترحب بالخلافة المنعزلة عن الدولة وتفضلها على الخلافة التى تعترضها فى ميادين السياسة الدولية .

* * *

ويحق لمن يترجم الكواكبي أن يتنبه إلى رأيه عن الدعوة فى مقام حرج من مقامات الترجمة له وتقديره على حسب أعماله ومساعيه .

ونقول إنه مقام حرج لأنه مقام النظر فى النيات الخفية التى يتوقف عليها الشيء الكثير فى موازين التقدير والحكم على الأعمال والأخلاق ، وهى على لزوما ستيفاء بحث المترجم وتصحيح نقده عرضة للمنازعة والمغالطة خفية المسلك على من يحسن النية وعلى من يسيئها فى تقدير العظيم .

لم أكن قد لقيت الكواكبي ولا رأيته فى زيارة من زياراته للقاهرة ، لأن زيارتى الأولى كانت بعد وفاته بشهور .

ولكننى لقيت من عرفوه وصاحبوه فى بعض مجالس العالم الإسلامى « محمود سالم بك » فيما أذكر ، وهو ممن أقاموا زمناً فى باريس لنشر الدعوة الإسلامية والرد على أقوال الصحف والساسة فى المسألة الشرقية . ومن هؤلاء

الذين لقوه حيث سكنت زمناً بحى العباسية ــ شيخ متوقد الفطنة متتبع لأحوال الزعماء الدينيين خاصة فيما يدور حول العلاقة بين القاهرة والقسطنطينية وبين المهاجرين من بلاد الدولة العثمانية وبين حملة الأقلام وأقطاب الدين من المصريين وكان حى العباسية وما جاوره فى ذلك العصر ملتقى الكثيرين من زوار قصر الدمرداش وقصور الرؤساء المعتزلين وأصحاب الوظائف الكبرى فى القصور الخديوية ، ومنها قصر القبة مسكن الخديوى « عباس الثانى » يومذاك ، وقلما يقيم فى سواه .

قال لى ذلك الشيخ الفطن : إن أناساً من أصحاب الكواكبى كانوا إذا سمعوا عنه أنه يعمل لحساب الخديو ويهيء الجو فى بلاد العرب لمبايعته بالخلافة تبسموا وقالوا : والله ما يعمل الرجل إلا لحساب نفسه . ألا ترونه حريصاً على الخلافة العربية القرشية حريصاً على النسبة إلى قريش فى بيت من بيوت الإمارة ؟

ولم أعرف يومئذ موقع الصواب فى هذه المظنة ولكننى قرأت كتب الكواكبى بعد ذلك عن الدعوة فرأيت أن الرجل يدعو إلى غاية طويلة الأمد يعلم أنها لا تتم فى حياة فرد واحد ويوطن العزائم على ذلك بين قرائه وصحبه وهو أحرى أن يطمعهم فى سرعة الإنجاز وسرعة الجزاء لو كان له مأرب يتعلق به ويعلق به آمال العاملين معه غير مضطر إلى التصريح بمراده .

وكل ما يفهم من حرص الكواكبى على الخلافة العربية القرشية أنه لم يكن يعمل لمبايعة الخديو عباس الثانى بالخلافة الإسلامية ، وأنه ربما استعان به لإضعاف خلافة عبد الحميد والانتفاع بنفوذه فى البلاد المصرية ، ولكنه لا يستطيع أن يوفق بين خلافة عباس الثانى ودعوة إلى الخلافة العربية القرشية « الروحية » . . ولا يرى من إشاراته إلى اختلال الأمن حول الأماكن المقدسة أنه كان يرشح أحداً من بيت معلوم ، بل ليس بين الإمارات العريقة فى أواسط القرن التاسع عشر من تنفعه دعوة الكواكبى بشروطها المقررة فى « أم القرى » سواء كانت دعوة إلى الخلافة أو إلى الدولة . ولكن

دعوته — تلك — بشروطها من ناحية الدين وناحية السياسة تنتهى إلى غايتها إذا تفاهم الناس على شروطها وانخلعت بيعة العثمانيين فى بلاد العرب ، ثم قامت الجامعة الإسلامية بعد ذلك على أساس غير أساسها المرسوم فى خطط عبد الحميد . . .

يكفى أن يقال إن الأمة العربية تبحث عن إمام عربى تبايعه بالخلافة الروحية ليبلغ الكتاب أجله ، وتصبح المسألة بعد ذلك مسألة أسماء ، وأيام .

خاتمة المطاف

ونتيجة الأخبار والوقائع ، وزبدة التعليقات والمعلومات ، أننا أمام حياة عظيمة مقدرة لعمل مسمى ، يوشك كل جزء من أجزائها وكل عنصر من عناصرها أن يشير إلى ذلك العمل ويترقب الوجهة التى اتجه إليها .

فليس فى ترجمة الكواكبى صفحة لا تنتظم فى كتاب السيرة كما ينتظم الفصل المنتظم فى السفر المجموع .

نشأته فى حلب ملتقى المفارق بين المشرق والمغرب والشمال والجنوب ، أو مجس النبض بين أعصاب العالم المعمور .

ومعيشته فى منتصف القرن التاسع عشر ، عصر النهضات القومية والمطامع الدولية ، وفرصة التحفز والصراع فى ميادين العلم والخلق والثروة . بين الغرب المستعد بأهبته والشرق الذى لا أهبة له غير الخوف والرجاء .

وأسرته التى نبت منها فى منبت الجاه والرئاسة، ووظائفه التى تثير فيه كوامن الغضب وتدفعه كل يوم إلى مصطدم الكرامة بين إنسان وإنسان ، وبين قوم وقوم ، وبين فكرة وفكرة ، وبين مصير ومصير .

كل جانب يأوى إليه كأنه هاتف يناديه : كن عربيا للعرب ولا يهولنك بعد ذلك ما يكون ، فلن يكون إلا الخير ، ولن يكون إلا خيرا مما أنت فيه .

وتمت حياة الرجل ولم تتم رسالته فى خدمة قومه ، ولكنها كانت كذلك رسالة مسماة ، لو اطلع على عواقبها بعد سنوات معدودات لرضى عنها واطمأن

إلى عواقبها، وعلم أنه قد أراد ما يريده الزمن، أو أنه قد سبق الزمن إلى ما أراد .

وحسب المصلح صاحب الدعوة عرفانا بعظمته وإنصافا لمقصده أن يسبق الزمن وأن يحسن السبق إلى مجراه ، وأن يأتي بالغد المجهول من ظلمات الغيب فيمشي فيه على هدى قبل أن تهتدى إليه شمس النهار .

وهكذا نظر الكواكبي إلى الغيب فيما اختاره من وجهة العمل للغد المجهول، كأنه اليوم المعلوم .

وضع قضية الإصلاح فى موضعها، وأصاب من حيث أخطأ الدعاة فى زمنه، بين مخلصين منهم ومدعين !

لم تكن قضية الجامعة العربية عند الكواكبي دعوة تناهض الدعوة إلى الجامعة الإسلامية .

كلا .. ولا كانت « الخلافة الإسلامية » أمامه هدفا يرميه ويعاديه .

وكل ما فى الأمر أنه نظر إلى لقب الخلافة فى بنى عثمان فلم يعلق عليه مستقبل المسلمين ولا مستقبل العرب ولا مستقبل الترك أنفسهم ، وهم شركاء بنى عثمان فى الدولة والسلالة .

ولم يمض على وفاته ربع قرن حتى كان نواب الأمة التركية فى أول مجلس لهم يمثلها حق تمثيلها قد عرفوا هذه الحقيقة كما عرفها الكواكبي وسجلها فى أول صفحة من صفحاته ، فأعلنوا عزل الخليفة قبل نهاية الربع الأول من القرن العشرين ، ثم اجتمعت وفود العالم الإسلامى من نحو خمس عشرة أمة فى القاهرة بعد ذلك بسنة ، وانصرفوا وهم لا يحسون أن العالم الإسلامى رهين بذلك اللقب حيثما كان .

وهذه هى المعجزة ...

هذه هى آية العبقرية التى تلهم صاحبها ما يحسب اليوم كفرا ويحسب فى الغد حقيقة من حقائق الإيمان والحكمة ، ومصلحة من مصالح الواقع والعيان .

كان الكواكبى فى عرف قوم من الجاهلين أو المتجاهلين عدو الجامعة الإسلامية ، عدوا لخليفة الإسلام ، عدوا لنفسه ولقومه ، عدوا لإخوانه فى الدين من الترك العثمانيين .

ثم ارتفع حجاب من حجب الغيب فلم يبق أحد يخالف ذلك العدو المبين فى دعوة دعاها أو فى نية خفية انتواها ، لأنه صنع المعجزة بعبقريته الملهمة ، وإنما العبقرية الملهمة من آيات الله .

ولم يزل سبق الزمن كرامة العبقرية التى من أجلها استحقت الذكرى بعد زمانها واستحقت الإعجاب من كل ذى طبع قويم وكل ذى سليقة إنسانية تحس أنها ذات نصيب من عظمة الإنسان . ولكن الإعجاب الصادق البصير يضيف إلى تحية العظيم مزيداً من العلم بمعدنه ومعدن العبقرية فيه ، وما كان مبلغ القدرة فى العبقرية الكواكبية أنها مجهر كبير يريه مدى السنين حيث يقصر النظر حوله عن مدى الأيام ؛ ولا كانت قدرته كالمفتاح الذى يدير لوالب الزمن إلى الأمام عشرين درجة أو أربعين سنة أو خمسين ... هذه قدرة لو صحت على هذه الصفة لكانت إلى قدرة الصناعة أقرب منها إلى قدرة الفكر والضمير . وإنما كانت عبقرية الكواكبى ملكة نادرة تتلاقى فيها فضيلة العقل الثاقب وفضيلة الضمير الأمين .

كان مقتدرا بعقله على التمييز بين الأشكال والعناوين وبين الحقائق والأعمال ، وكان خبيرا بالتفرقة بين عوامل البقاء والنهضة فى الأمم وبين مراسم السمت والزينة فى الدول والحكومات ، وكان يدرك موقع الخطر وموقع السلامة فلا يهوله ذهاب لقب ولا ييئس من مصير أمة تأخذ بأسباب الحياة .

وكانت هذه فضيلة العقل الثاقب فى هذه العبقرية الملهمة .

أما فضيلة الضمير الأمين فيها فهى التى أبت عليه أن يكتم ما يعلم وأوحت إليه أن يعمل بما اهتدى إليه ولا ينكص على عقبيه .

والدنيا لا تضن باعجابها على عبقرية تنفرد بالفكرالسديد ولا عبقرية تنفرد بالخلق الحميد .

ولكن الجدير بالإعجاب والتشريف معا عبقرية يلتقى فيها سداد الفكر وشجاعة الضمير .

فهرس

الصفحة

طبع بمطابع
دار النشر للجامعات المصرية
علاء الدين الشيتي وشركاه (شركة توصية بالأسهم)
١٥ شارع شريف . بالقاهرة

